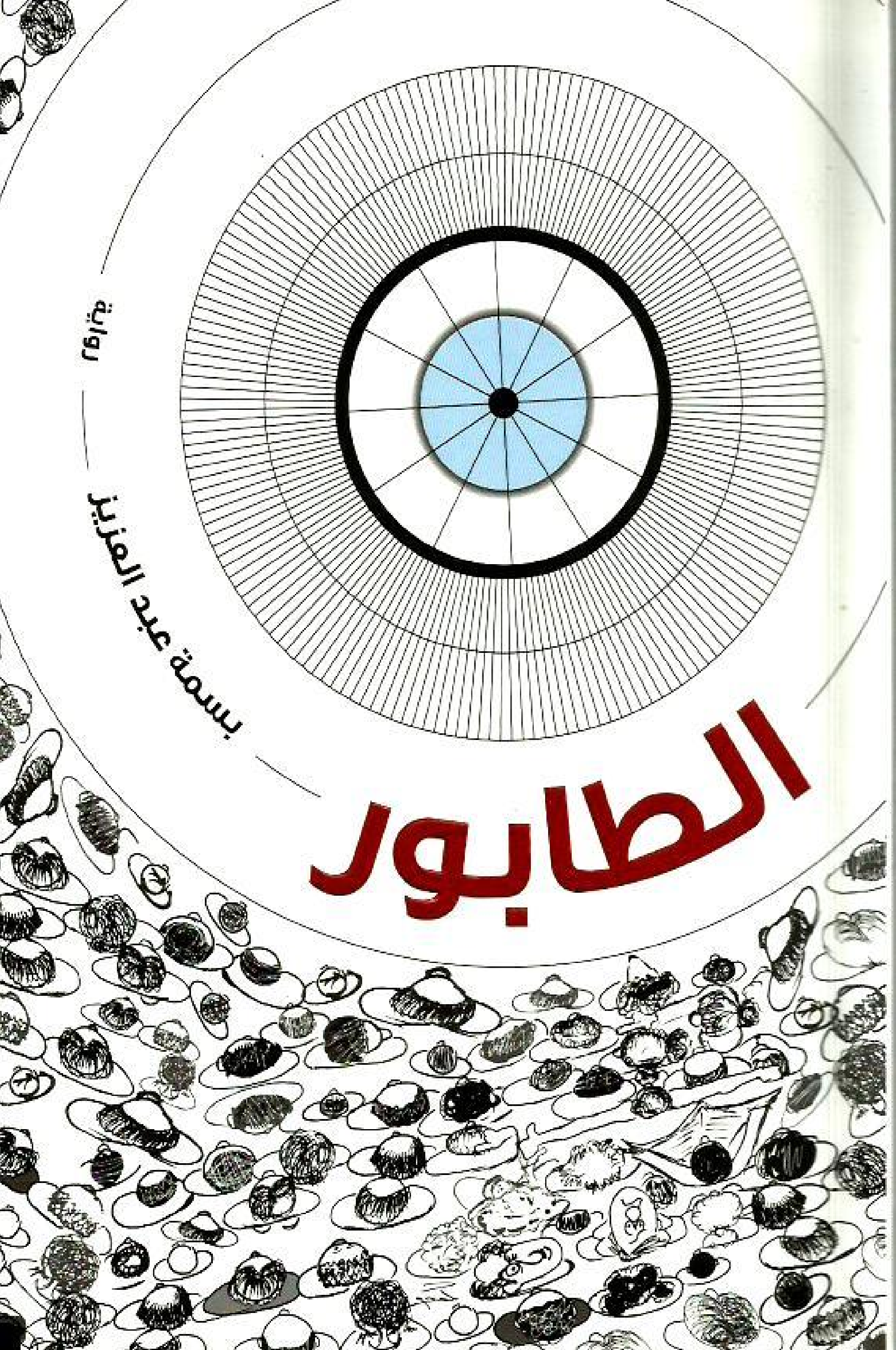


الطابور
بسمة عبد العزيز
رواية

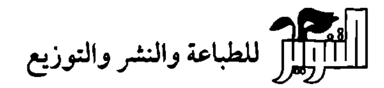
ضربت الشمس نصفه الأيسر، قسمته اثنين كما هي العادة عند كل ظهيرة، شعر بثقل جسده، لكنه لم يتخلَّ عــن موقعه. وقفت أمامه امرأة طويلــة القامة تتلفَّــت حولها، كانــت ترتدي جلباباً أسود شفيفاً، وعلى رأسها طرحة باللون نفســه، منســدلة على جانبي عنقهــا العاري، ومنســجمة مــع التجاعيد والثنيــات الضاربة فيه. ســأله الشــاب الواقــف وراءه عن موعد فتح البوابة فهزّ كتفيه مفصحاً عن جهله التام، ومطّ شــفتيه، دون أن ينطق بكلمة واحدة. لم يكــن يعرف في الحقيقة متى ســوف يتم ذلك الأمــر؛ لا يــزال يخرج من البيــت كلّ صباح، يجرّ قدميه وبطنه وحوضــه الثقيل، ليقف في الطابور، دون أن يبلغ البوابة.

الطابور

رقم الإيداع: 2012/23497
الترقيم الدولي: 3-60-582-9953-978

طبعة دار التنوير الأولى: 2013

بيروت - القاهرة - تونس



لبنان: بيروت - الجناح - مقابل السلطان إبراهيم
سنتر حيدر التجاري - الطابق الثاني - هاتف وفاكس 009611843340
مصر: القاهرة - وسط البلد - 8 شارع قصر النيل - الدور الأول - شقة 10
هاتف: 0020227738931 - 00201007332225 فاكس: 0020227738932

البريد الإليكتروني: info@dar-altanweer.com
الموقع الإليكتروني: www.dar-altanweer.com

بسمة عبد العزيز

الطابور

رواية



الفصل الأول

الورقة الأولى

البيانات

«الاسم: يحيى جاد الرب سعيد

السن: 38 عاماً

الحالة الاجتماعية: أعزب

محل الإقامة: المنطقة التاسعة ـ البناية الأولى

المهنة: مندوب مبيعات...

كان أول ما فعله طارق حين وصل في الصباح، أن طلب الملف من رئيسة التمريض. جاءته بحافظة بلاستيكية شفافة، تبدو ملتحمة الحوافّ من جوانبها الأربع، وعلى غلافها: *«موقوف لحين الحصول على تصريح من البوابة»*، تأمّل العبارة كبيرة الحجم، كانت مائلة بزاوية حادة ومطبوعة باللون الأحمر القاني، بينما كُتِبَ على بطاقة بيضاء مستطيلة، مثبتة في المنتصف تماماً اسم «يحيى جاد الرب سعيد» وأسفله رقم مؤلّف من سبعة أعداد؛ نصفها تقريباً مأخوذ من بطاقة الهوية الخاصة بالمريض، والنصف الثاني عبارة عن رمز يدل على نوع الملف، لا يفهمه إلا الإداريون المسؤولون عن عملية التصنيف. جاء في النهاية اسم الطبيب المناظر: «الدكتور طارق فهمي»، اسمه الثنائي الذي تمنى لمئات المرات أن يمحوه من تلك الورقة، لكن ما باليد حيلة، سوف يظل هنا، في مكانه، منغّصاً عليه حياته إلى ما شاء الله.

دخل إلى مكتبه حاملاً الحافظة، ووراءه فنجان من القهوة المضبوطة، أتت به التمرجية «صباح». وضعته على طرف المكتب الخشبي العتيق كما اعتادت أن تفعل كل يوم، ثم وقفت شابكة

أصابع كفّيها أمام بطنها الكبير، وشرعت في التثاؤب وقد لاح عليها الكسل:

ـ أي أوامر يا دكتور طارق؟» رد بطريقته الودودة الهادئة، وإن بدا لها مكفهراً على غير عادته:

ـ ما تروحيش بعيد يا صباح النهارده، يمكن أعوز منك حاجة.. «عينَيَّ يا دكتور» خرجت وأغلقت الباب عليه.

طارق من جيل الوسط في المستشفى، واحد من الأطباء الجادين المسئولين عن قسم الاستقبال، تعرفه صباح منذ سنوات حين كان نائباً صغيراً يقضي أغلب وقته مع المرضى، ولا يعود إلى منزله تقريباً، ليس لديه الكثير من الأصدقاء، ولا مجموعة معينة من الزملاء يرتبط بها ويخرج معها، ولم يحدث أبداً أن راوغ أو تهرب من المناوبات كالباقين. هو غامض وكتوم بعض الشيء، يغلق على نفسه المكتب حتى في أوقات الراحة، لا يتسامر معهم في مكتب التمريض ولا يتحدث عن نفسه أو عائلته، لكن الكل يعرف أنه ماهر في عمله وأنه، وهذا هو الأهم لديها، طيّب القلب.

تناول طارق رشفة من فنجان القهوة، وأخذ يروح ويجيء في الغرفة متطلّعاً إلى الحافظة، ثم استقرّ أخيراً على مقعده الجلدي، وفتح أحد جوانبها ملتقطاً الملفّ المحبوس بالداخل، ليراجعه من جديد.

تلك هي إحدى المرات النادرة التي يتناول فيها ملفاً لمريض، قام الموظّف بتدوين بياناته الشخصية مكتملة، الخانات كلها

مستوفاة وباستفاضة، لا مساحات فارغة، ولا أسئلة دون إجابات، حتى تلك الأسئلة التي قد لا يهتم الطبيب بها، والتي قد يندهش المرء لذكرها في ملفٍّ طبّي.

«يحيى جاد الرب سعيد، 38 عاماً، أعزب، محل الإقامة: المنطقة التاسعة ـ البناية الأولى، المهنة: مندوب مبيعات....»، لم تعد تهمه كثيراً هذه البيانات الشخصية، التي حفظها بالتكرار عن ظهر قلب، وصار قادراً على أن يسترجعها غيابيّاً دون أن يبذل جهداً ذا بال. في أغلب الأحوال لا تخرج تلك الورقة بما تحويه عن كونها مجموعة من المعلومات الروتينية، تؤخذ من المرضى جميعهم دون تمييز، تُكتَبُ تلقائياً وكثيراً ما يتّضح فيها الاستهتار، حيث يتكاسل الأطباء والموظفون عن ملء العديد من خاناتها، ويكتفون عادة بذكر الاسم والسن.

أبعد الورقة الأولى جانباً، وأخرج الثانية متأهباً للتركيز في ما تحمله من معلومات، لكن عدة طَرَقات متعاقبة على الباب جعلته يعيد الورقتين إلى مكانهما، ويغلق الحافظة ويخفيها في درج المكتب، ثم يعتدل في جلسته. دخلت صباح مرة أخرى حاملة في يدها ملفّاً جديداً: «فيه حالة يا دكتور بتسأل على حضرتك، تحب أقول لها إن قدامك شغل؟» لم يكن يرغب في مباشرة أي عمل الآن، تنقله اللحظات التي يبدأ فيها مراجعة ملفّ يحيى جاد الرب إلى منطقة لا تحتمل وجود آخرين، لكنه اضطر لابتلاع ضيقه حتى لا ينشأ بينهما حوار لا داعي له، وسمح لها بإدخال الحالة إلى غرفة الكشف، وطلب منها الانتظار هناك ريثما يحضر. فكر أن

يعيد الحافظة إلى مكانها الأصلي في حجرة الملفات قبل أن يترك المكتب، لكنه انتبه لوجود المفتاح فوق المنضدة فاستلّه، وجذب المعطف الأبيض، ثم أغلق الباب خلفه بهدوء، وأدار المفتاح دورتين متتاليتين ووضعه بحرص في جيب القميص.

لم يستغرق الكشف سوى دقائق معدودات، فقد اختصر استفساراته الموجّهة إلى المريض وفحصه على عجل، كما أوجز في الإدلاء بالتشخيص ووصف العلاج. كان ذهنه منصرفاً إلى الحافظة التي تركها خلفه بما تحويه، خطر له أن ينسخ الملف ويصطحبه إلى البيت، حيث يمكنه أن يحظى بفرصة للقراءة والتمعن دون إزعاج، لكنه سرعان ما تنازل عن تلك الفكرة خوفاً من التبعات المحتملة. بات يدرك بوضوح أن الموضوع لم يعد قاصراً عليه، ولا خاضعاً لسلطة الإدارية الضيقة، وهو رجل لا يتعدى الحدود، لم يذهب إلى البوابة في حياته مطلقاً، لا طلبات له ولا مشاكل، تسير الحياة به سيراً رتيباً ومتوقعاً، انتهى من دراسة الماجستير ونال الشهادة، وسوف يفتتح عيادته الخاصّة عمّا قريب، وقد يتقدّم للارتباط بإحدى الزميلات، ولا يعرقل الآن خطته التقليدية المستقرة منذ زمن سوى ملف يحيى جاد الرب هذا.

ترى لماذا ظلّ واقفاً ذلك اليوم في المستشفى رغم أنه يغادرها في موعد انتهاء مداومته تماماً، ولماذا تمسّك بالاطلاع على حالات المصابين وأصرّ على القيام بكل ما هو متاح أمامه لمداواة جروحهم وتقطيبها، قبل أن تقوم سيارة الإسعاف الجماعية بنقلهم إلى المستشفى الميري، ولماذا وقع اختياره على يحيى تحديداً

ليجري له الأشعة دوناً عن الباقين؟ كان رأسه مشوّشاً إلى حدٍّ كبير، تتوه منه الأجوبة والتفاصيل باستمرار في الآونة الأخيرة، ويتفاقم توهانه كلما طالع الملف، وكأن هناك أجزاء كاملة مما حدث قد تبخّرت واختفت، ربما لفرط ما استعادها وكرّرها على نفسه طيلة الأسابيع الماضية.

مرّ على حجرات الكشف المجاورة له، فوجد عدداً من الأطباء الجدد يتناولون أكواب الشاي والقهوة على صوت الراديو، توقّف لدقائق مستمعاً؛ كانت مذيعة محطة الشباب تحاور ضيفتها تليفونياً على الهواء، وتسألها عن حال أبنائها الطلاب، وقد راحت مرة بعد مرة تمتدح أخلاقهم القويمة الجديرة بالاقتداء، التي ألهمتهم عدم الخروج من البيت وقت اندلاع «الأحداث المشينة»، وحمتهم من الانسياق وراء الأكاذيب، أو المشاركة فيها.

ابتهجت الضيفة بما نالته من تقدير وثناء، وأشارت في حماسة إلى أنها قامت بجهد كبير منذ البداية، وبذلت الغالي والنفيس في تربية الأولاد ولم تبخل عليهم بأي إرشاد أو توجيه، وأنهم لهذا يعرفون مصلحتهم جيداً، ولا يُخشَى عليهم من أي انحراف. هز طارق رأسه المرتبك عاجزاً عن استيعاب الحوار، ترك حجرة الراديو متجهاً إلى رئيسة التمريض، وطلب منها أن تتركه ينتهي من بعض الأعمال الورقية الهامّة في مكتبه دون مقاطعة، فطمأنته بأنها سوف توزّع المرضى على باقي زملائه. استدعت صباح التي كانت انتحت بفطورها جانباً، وأمرتها بتقسيم الملفات بالتساوي على الحجرات الأخرى.

عاد إلى مقعده الجلدي مرة أخرى، بينما ظلت كلمات المذيعة تتكرر في أذنيه. سمع كغيره عن الأحداث المشينة وقت وقوعها، أو ربما بعد بدايتها بقليل، لكنه لم يكن أبداً هناك، ولم يعرف عنها الكثير. لم ير سوى نتائجها على من اشتركوا فيها، ومن قادهم الحظّ العاثر إلى الوقوع وسط أتونها المشتعل مصادفة. كان ينصت إلى بعض التعليقات التي تعبر أمامه قادمة من أفواه الزملاء والمعارف، وأحياناً من الجيران وراكبي المواصلات. كَوَّنَ صورة مهزوزة غير مكتملة المعالم، لكنها على كل حال كانت كافية في حينها كي يلقي بالمسألة وراء ظهره، لم يكن فيها ما يثير اهتمامه بشكل خاص. جملة ما استنتجه أن بعض الأشخاص قد ضجّوا وتضايقوا من اضطرارهم لاتباع النظام الصارم الذي وضعته البوابة بعد ظهورها بفترة وجيزة، أرادوا أن يهدموا القواعد الجديدة التي تمّ فرضها على الجميع، وأن يقوموا بإرساء نظام آخر يمكن اعتباره، كما فهم من بعض المهتمين بالموضوع، أقل تسلطاً وتشدداً، وأكثر مرونة وربما أرحب أفقاً،لكنه كان في رأيه الشخصي أقلّ انضباطاً واستقراراً.

تجمّع هؤلاء الأشخاص وراحوا يحتجّون ويشاغبون بالقرب من الساحة، كان عددهم متوسّطاً وأعمارهم متفاوتة، لكن أصواتهم علت بشدة مُجَاهِرَة بالعصيان، ومندّدة بتعدّيات البوابة واستبدادها. ردّدوا شعارات حالمة بعيدة عن الواقع، أسمعه إياها واحد من أطباء المستشفى. هتافات كانت تنادي بزوال البوابة وما يحيط بها، حكى له هذا الطبيب أيضاً أثناء إحدى مداوماتهما الليلية، أن أناساً آخرين لا ناقة لهم ولا جمل في الأمر، انضموا لاحقاً إلى

المحتجين، أيّدوهم وراحوا يردّدون الشعارات الهائمة نفسها، كانوا يتحركون كثيراً فبدا عددهم ضخماً، لكن وحدات الحرس الأمني التي تم تشكيلها حديثاً واجهتهم بحزم وبادلتهم الهتافات المضادة، ثم قالت إنها لن تسمح لهم بهذا العبث؛ واتهمتهم بسوء الأدب، وأخذت توجّه لهم الضربات الصاعقة كي يعودوا إلى رشدهم، فلما تفرقوا من هول وشدة الإصابات، وراحوا يعْدون هنا وهناك متراجعين، اتهمتهم بنشر الفوضى، وبمحاولة العودة بالأمور إلى العهد المؤسف تم محو آثاره كلها، وكذلك بالسعي إلى تقويض الأمان الذي ساد أخيراً في عموم البلاد.

التقى الجمعان وثارت المعركة، وسقط من سقط، قبل أن يُحسَمَ كل شيء لصالح البوابة وحرسها، الذي أثبت في أول محكّ، أنه قادر على بسط سيطرته. وقد استطاعت وحدة الحرس الأمني القابض، التي كلّفت منذ إنشائها بالتعامل مع هذا النوع من المشاغبات وتم تسليحها بأفضل مما سبق، أن تقضي على المتجمّعين في ساعات قليلة، وأن تخلي الساحة دون جهد كبير. لم يكن لدى طارق أي شك في انتصار البوابة الساحق. لكنه كذلك لم يكن شديد الحماسة لها، خاصة مع ما لمسه بنفسه من بشائر هذا الانتصار، وقد أدرك من شكل الإصابات التي باشرها في حجرة الطوارئ، أن الهبّات المتعاقبة التي وقعت قبل ظهور البوابة وكادت أن تعصف بنظام البلاد، لن تتكرر ثانية.

لم يكن في حياته مولعاً بالتاريخ لكنه يذكر جيداً «الهبّة الأولى» التي قرأ عنها، والتي جابت لفرط قوتها مناطق البلاد جميعها من

أقصى الشرق إلى أقصى الغرب، وحصدت في طريقها الحرس القديم، ودمّرت الأسوار العالية التي كان يحتمي بها، واضطرت الحاكم إلى التفكير في التراجع والتسليم، لكنها لسوء الحظ أو ربما لحسنه، لم تستمر على المنوال ذاته، ففي حين انشغلت بعض المناطق بحصد غنائمها، فضلت أخرى أن تستكمل هدم الأسوار، بينما راحت مناطق ثالثة تتفاوض مع الحاكم المرتاع خوفاً من استمراره، وما لبث الأمر أن انطفأ.

خمدت الهبة بعد أن رمت كل منطقة المناطق الأخرى بالخيانة، وتحصّنت بالسلاح تحسّباً لهجوم معاكس، ثم دخلت فيما بينها في معركة طويلة وتناست ما كان من أمر الحاكم، الذي استعاد بعضاً من نفوذه، بينما تكتّل الحرس القديم وأعاد بناء الأسوار، في غفلة من أصحاب الهبّة المتعاركين.

ترك المقعد شاعراً بالإجهاد رغم أنه لم يفعل شيئاً منذ جاء، أعاد قراءة ورقة وحيدة من الملف، وناظر مريضاً لم يعد يتذكر الآن مشكلته على وجه التحديد. طلب أن ينصرف مبكراً متحجّجاً بالسعال الذي لم يبارحه منذ أيام.

الطابور

وسط الحرارة الشديدة وقف يحيي في الصف الطويل، طابور ممتد من بداية الشارع العريض حتى البوابة. ساعة كاملة لم يتحرك خلالها إلى الأمام أكثر من خطوتين، ليس لأن أحد الواقفين قد أنهى مهمته بنجاح، بل لأن شخصاً غير متمرس يبدو عليه أنه قد جاء إلى البوابة للمرة الأولى، أصابه الملل والكمد فغادر مكانه.

ضربت الشمس نصفه الأيسر، قسمته اثنين كما هي العادة عند كل ظهيرة، شعر بثقل جسده، لكنه لم يتخلَّ عن موقعه. وقفت أمامه امرأة طويلة القامة تتلفّت حولها، كانت ترتدي جلباباً أسود شفيفاً، وعلى رأسها طرحة باللون نفسه، منسدلة على جانبي عنقها العاري، ومنسجمة مع التجاعيد والثنيات الضاربة فيه. سأله الشاب الواقف وراءه عن موعد فتح البوابة فهز كتفيه مفصحاً عن جهله التام، ومطّ شفتيه، دون أن ينطق بكلمة واحدة. لم يكن يعرف في الحقيقة متى سوف يتم ذلك الأمر؛ لا يزال يخرج من البيت كلّ صباح، يجرّ قدميه وبطنه وحوضه الثقيل، ليقف في الطابور، دون أن يبلغ البوابة.

المرأة سمراء كما ملابسها، نحيفة وعجوز لكنها صلبة، تبدو بعودها المتين وبياض عينيها الحليبي من أقصى الجنوب، استدارت نصف استدارة وفحصت يحيى بنظرة نافذة قيّمته من خلالها تقييماً سريعاً، ويبدو أنها وجدت هيئته مقبولة، فشرعت في الكلام دون مقدمات.

قالت إنها أتت إلى البوابة بالأمس فقط، تنتوي تقديم شكوى، وفي الوقت ذاته تستخرج شهادة رسمية موثقة، سكتت قليلاً مفسحة له الفرصة كي يسألها عن الموضوع، لكن يحيى لم يفعل. أكملت مسترسلة في الحديث دون أن يسكتها جموده أنها فشلت للمرة الأولى في شراء أرغفة الخبز البلدي الميري، التي دأبت على شرائها منذ سنوات طويلة. نظرت إليه مرة ثانية، متوقعة أن يعتريه بعض الفضول، لكنه كان مشغول البال ومنصرفاً عن متابعة كلامها، أشاحت بوجهها عنه وامتعضت، وعادت تتلفّت ثانية حولها، ثم سرعان ما استأنفت الكلام، إذ وجدت آذاناً مصغية من جيران آخرين.

مدّت السيدة السمينة التي تتقدمها، يديها الاثنتين لتُعَدِّلَ من وضع الحجاب الفيروزي على رأسها، ثم اقتربت وقد جذبتها مسألة الشكوى. كان وجهها رغم السمنة الواضحة يبدو شاباً، ربما في الثلاثينيات من العمر، لها حاجبان رفيعان، وأنف دقيق، وبشرة معتنى بها. أبدت تعاطفها مع العجوز مستفهمة في دهشة إن كان الخبز قد صار صعب المنال إلى هذا الحد هو الآخر، فاندفعت العجوز تروي في لكنة مميزة: «الراجل ابن الكلب الواطي الدون،

زبونة عنده أنا، ليّا عشر سنين كل يوم آخد منه العيش، إيه اللي حصل يعني؟ رحت زي كل يوم الصبح آخد الرغيفين بتوعي، سألني اخترتي مين؟ قلت له علّمت على الهرم، غضب وكشّر وقال ما أنا عارفكم، صنف مالهوش إلا الكرباج، ما أنا عطيتك الورقة البنفسجي يا ولية عشان تختاري منها. سكتّ ومدّيت له إيدي بالجنيه، رماه على الأرض وخطف مني الرغيفين، ورجّعهم عنده وزعّق: ما عندناش عيش، وما تجيش هنا تاني.. راجل ما يختشيش. مشيت للفرن الأفرنجي كان شطّب، تاني يوم الصبح طلعت من بدري على الفرّان اللي في السوق، لقيته عرف بالحكاية، وقال لي نفس الكلام وحجز عني العيش هو كمان. الست جارتي في الشارع قالت لي مادام كده، يبقى لازم شكوى تتقدم للبوابة، وقالت لي كمان لازم أَقَدِّم على شهادة ما حفظتش اسمها، وتكون مختومة بالختم الميري، عشان أكيد هايطلبوها مني وقت التحقيق في الشكوى». غاصت بيدها في الجلباب الواسع، وأخرجت ورقة صغيرة كرتون كُتِبَ عليها «شهادة صلاحية مُوَاطَنة».

ربتت الشابة على كتف العجوز مواسية، صار الحال غير الحال وما من فرج قريب، أكلت السياسة رؤوس الناس حتى صاروا يأكلون بعضهم البعض، ثم إنها هي الأخرى قد اختارت الهرم، لكنها حتى الآن لم تتعرض إلى موقف محرج هكذا وإلا لماتت خجلاً، ربما لأنها لم تُصَرِّح لأحد باختيارها مثلما فعلت العجوز، والحق أنها خافت ودفعها حرصها وحذرها المعتادان إلى الصمت، حتى لقد اتّبعت في الأشهر الماضية حيلة قديمة، لتجنّب نفسها عناء الارتباك، ومشقة الإجابة عن السؤال الذي

انتشر كالمرض بين الناس: «اخترت إيه؟» ظل ردّها الدائم هو إعادة السؤال إلى سائله مرة أخرى، ثم التعقيب على الرد الذي يأتي منه، أيّاً ما كان الرّد، بابتسامة متواطئة، وغمْزة عين: «وأنا كمان اخترته.. بصرة». سقطة وحيدة وقعت فيها منذ أيام، حين جاءتها تلميذة في الفصل الذي تدرّسه اللغة العربية، وأعطتها مسرورة موضوع تعبير قامت بكتابته. واجب منزلي عادي تقوم به جميع الطالبات، وتحصلن مقابل أدائه على درجة تضاف إلى درجات الامتحان الشهري. كتبت البنت كلاماً كثيراً ورائعاً عن أحوال المنطقة التي تعيش فيها، و ثم راحت تحكي عن ظروف البلد وما يجري من حولها بشكل عام. للحق؛ قالت البنت كلاماً يشبه ما تتحدث به هي شخصياً مع نفسها في أوقات الخلوة، حتى لقد تلبّستها الظنون من شدة إعجابها بما قرأت، وشَكَّت أن إحدى أخواتها الكبيرات أو ربما أحد والديها قام بكتابة الموضوع وصياغة الأفكار، لكن البنت أصرّت على أنها لم تطلب مساعدة أي شخص في العائلة، وأن تلك العبارات والأفكار تخصّها وحدها. ومع إصرار البنت وميلها هي؛ الأستاذة إيناس، إلى تصديقها، أعطتها درجة عالية تقترب من النهائية، وجعلت الفصل يصفّق لها، ثم أمرتها بقراءة الموضوع أمام باقي التلميذات، متخذة منها مثالاً على التفوق والنجابة.

في اليوم التالي، غابت البنت عن المدرسة، وجاء المفتش خفيض الصوت إلى مكتب الإدارة، وطلب متجهماً الاطلاع على السيرة الذاتية للأستاذة إيناس، وعلى مسوّغات تعيينها، ثم أخبر الناظرة أن أوراقها ناقصة، وأنها يجب أن تذهب إلى البوابة،

لتحصل ـ هي الأخرى ـ على شهادة «صلاحية مواطنة»، وإلا كان من المحتّم عليه أن يرفع أمرها إلى الديوان، وحينها سوف تخضع لإعادة اختبار وتقييم، ويُنظَر في جدوى استمرارها كمُعَلِّمَة. قبل أن يغادر المدرسة، ترك للناظرة شريط كاسيت، عرفت فيما بعد أنه يحوي تسجيلاً بصوت البنت لموضوع التعبير.

فكرت إيناس أن أمنية حياتها الوحيدة لم تتغير منذ الصغر أبداً، بخلاف كل البنات والأولاد، ودّت دائماً لو تصبح معلّمة. في البيت كانت تَصُفُّ العرائس على السرير صفاً واحداً عريضاً، تمسك المسطرة في يدها ثم تبدأ في شرح الدرس، توجّه إليهنّ الأسئلة عروسة تلو الأخرى، وتستمع في ذهنها إلى الإجابات. حين كبرت قليلاً، صارت تَصُفّ أبناء الجيران على سلالم العمارة، وتمسك بعصا تكسرها من أفرع الشجرة المتدلية، وتكرّر لعبتها الأثيرة؛ تمنح تلاميذها الحصى الملون كمكافأة، أو تضرب كفوفهم تأنيباً على الإهمال. قالت لنفسها إنها الآن تقف كالتلميذة التي ارتكبت الخطأ الأكبر، وتنتظر الحكم وتوقيع العقاب، وربما يمنعها خطؤها العفوي هذا من مزاولة الشيء الوحيد الذي تتقنه. اختلست النظر إلى الواقفين قبل أن تتأمّل قليلاً في وجه يحيى النحيل الشارد.

لم يتدخّل يحيى مطلقاً منذ بدأت العجوز الكلام، ظل لاهياً عنها، غارقاً في داخله، لا يسمع من حكاياتها ولا من أحاديث الواقفين حوله شيئاً، لكنها مع ذلك لم تكف عن الثرثرة ولا عن محاولاتها الدؤوبة لجذب انتباهه، وكأنما صار الأمر تحدياً لقدراتها. حرّكت إيناس شفتيها دون أن يصدر عنها صوت: «كل واحد عنده اللي يكفّيه من المصايب».

لاح على يحيى التعب، وتكوّنت تقطيبة سميكة ما بين حاجبيه، أما ناجي الذي جلس القرفصاء فقد بدا ضَجِراً لا ينشد سوى الرحيل. انثنى يحيى قليلاً إلى الأمام وتأوّه، فقام ناجي من جلسته، وأمسك بذراعه طالباً إليه أن يجلس قليلاً بدلاً منه. كانت هناك لافتة قماش صفراء اللون تظلّل مكانه، وتحمل صورة لشخص باهت الطلعة، وقلب أحمر كبير بجانبه علامة بنفسجية مميَّزة. رفض يحيى الجلوس مكان ناجي، ليس لشيء، إلا لأنه لم يكن قادراً على الهبوط بساقيه تلك المسافة كلّها إلى الأرض، بسبب الألم. فتّش في جيبه عن شريط المُسَكِّن الذي يحمله دائماً فعثر عليه خاوياً. تطوّع الشاب الوسيم الذي كان يسترق السمع من خلف كتف ناجي بقرصين من دواء ذائع الانتشار، يستخدم عادة لإزالة الصداع، وعرض على يحيى أن يذهب إلى بيته ليستريح قليلاً، على أن يحتفظ له بمكانه في الطابور، لكن ناجي شكره نيابة عنه قائلاً إن ثمة خبراً شبه أكيد بأن البوابة سوف تفتح اليوم، ولا يجب تفويت الفرصة التي ربما لا تتكرّر في القريب.

تقدّم الشاب خطوة إلى الأمام وسأل هامساً عن حاجتهما من البوابة، فلكز يحيى صاحبه لكزة خفيفة لم يلحظْها أحد، وأجاب على الفور: «أبداً مجرد تصريح علاج، عندي وجع سخيف في مصراني بيمنعني حتى من النوم ومحتاج لنوع دوا مخصوص كتبهولي الدكتور لما كشفت في المستشفى، سألت عليه في الصيدليات لقيته ناقص، الناس اللي بياخدوه قالوا لي إنه موجود في العيادات الميري، وزي ما حضرتك عارف العيادات دي محتاجة تصريح من البوابة عشان تصرف أي دوا»، هزّ الشابّ رأسه

بأسف متفهماً الوضع، وبدا أنه سوف يستطرد في الكلام، لكنه غيّر رأيه وعاد إلى وقفته الأولى، بينما تدخّلت العجوز بصوتها الحادّ، قائلةإن أقراص الدواء تجلب المرض، وإن كوباً من النعناع الدافئ سيعيد له الصحة والعافية ويخلّصه من الألم، أغلق يحيى عينيه نصف إغلاقة، فمصمصت العجوز شفتيها، وانحنت على أستاذة إيناس، وقد أمسكت في يدها بأعواد من النعناع الجافّ: «بكرة أعمل لك دول في شوية مَيّه مغلية من القهوة القريبة». انحنى ناجي هامساً في أذن يحيى بأنه لو كان له فقط نصف اليقين والثقة اللذين تتعامل بهما هذه المرأة مع الجميع، لفعل الكثير ردّ على الفور ساخراً: لو كان لك نصف يقينها كما تقول لتوقّفت عن التفلسف منذ زمن طويل.

أم مبروك

لم تكد أم مبروك تنتهي من ترتيب الحجرة الأخيرة، حتى أُعلِنَ عن موعد الانصراف، دفعت باب دورة المياه لتغلقه عليها وشرعت في تغيير ملابسها المبتلة، غسلت وجهها وارتدت جلباباً نظيفاً وحذاءً ذا كعب مائل، وتأكدت من اكتمال محتويات حقيبة يدها، مُتَحَسِّسة الظرف الذي تحمله فيها للمرة الثالثة، ثم ألقت السلام على من تبقّى من الموظفين وخرجت مسرعة لتحشر جسدها بصعوبة في الميكروباص قبل أن يغادر الرصيف. حين وصلت إلى البوابة كان نهر الطريق قد صار مشغولاً تماماً بالطابور، نزلت عند الحافة، فانقطع جوربها بعد أن علق بنتوء صفيحي أسفل الباب الذي لا ينغلق، رفعت ذيل الجلباب فرأت القطع واضحاً وصاعداً إلى أعلى، وتذكرت في الحال أن زجاجة طلاء الأظافر نفدت عن آخرها، مع ذلك بقيت مبتسمة دون سبب واضح. سارت بمحاذاة الطابور وهي تؤكد للواقفين أنها لن تتخطاهم في الدور، وأنها أتت باحثة عن أحد أقربائها، تجاوزت العشرات حتى وصلت إلى يحيى، تعرفت عليه من قفاه دون الحاجة إلى رؤية وجهه، فاصطنعت

ابتسامة أكثر اتساعاً ومدت يدها إليه: «مساء الخير يا أستاذ يحيى، لك جواب معايا من الشغل».

بدا على يحيى الجزع لظهورها المفاجئ رغم أنه حاول رسم علامات التوقع والترحيب على ملامحه: «أهلاً أهلاً.. إزيك يا أم مبروك، كويس إنك عرفتي تيجي..» ناولته الظرف دون أن تتغير ابتسامتها:

ـ أنا مش عارفه جوّاه إيه، خير إن شالله، حضرتك تأمر بحاجة؟

ـ شكراً.. تعبتك معايا.

انصرفت أم مبروك مسرعة، بينما شعر يحيى بقلبه يرتجّ، ويرسل باختلاجات قوية إلى جانبه الأيسر ليعاوده الألم في نوبة جديدة. طفت رعشة خفيفة على يده الممسكة بالظرف، وتحفّز ناجي لفض محتواه. لم يكن بداخل الظرف سوى ورقة بيضاء خالية من السطور دُوِّنَت عليها كلمات قليلة:

«العزيز يحيى؛ أرجو أن تكون بخير، أردت أن أنبهك إلى أن طبيباً قد جاء البارحة إلى المؤسسة، يبحث عنك، كان يرتدي زياً رسمياً، وقال إنه يعمل بمستشفى الأجواء، ولم يسأل عن شيء آخر. نلتقي قريباً. أماني».

شرد يحيى بعد قراءة الجواب ولفّه شيء من الضيق، لا يريد أن تكون لديه أية صلة بتلك المستشفى ومن فيها، كما أنه لم ير أماني منذ أسبوع كامل، اتفقا على موعد للّقاء وتبادُل الكلام حول مسار الأحداث، لكنه صار حبيس الطابور، يقضي فيه معظم

ساعات اليوم، ويبيت أحياناً مثلما يفعل كثير من الناس. عرض عليه ناجي أن يُحضر خيمته ليقيما داخلها، لكنه رفض، فضّل أن يظلّ كالباقين، يسهر وسطهم كما يسهرون، ويغفو لساعة أو ساعتين فقط في مكانه، ثم إن الناس من حوله في وقوف مستمر لدرجة أنه لم ير الكثير من الجالسين أو النائمين طيلة أيام الانتظار الفائتة؛ الكل يتوقع أن يتحرك الطابور في أي وقت، ويرغب في أن يكون على أهبة الاستعداد. وجد نفسه يفعل ما يفعلونه، رغم أنه لم يصدق أبداً ما قالوه عن أن البوابة قد تُفتح فجراً أو حتى في عمق الليل.

* * *

في رحلة العودة، أسعفتها حركتها النشيطة بمقعد في المترو القديم، شيء من الراحة بعد تعب يوم طويل. حدثت نفسها بأنها لم تعد قادرة على بذل هذا الجهد، الذي اعتادته أيام الشباب، أيام تمتّعت بالصحّة. تذكرت أم مبروك عملها لدى السيدة الكبيرة، والدة أماني، ثم وساطة أماني لها عند صاحب المؤسسة التي تعمل فيها، وقبوله بها ثلاثة أيام أسبوعيّاً، تتولّى خلالها أعمال النظافة والبوفيه، وتمد يد المساعدة في كل ما يطرأ على المكان. بعد وفاة السيدة الكبيرة وبعد أن لحق بها أبو أماني، لم يعد منزلهما يحتاج إلى خدماتها. انتقلت بدوام كامل إلى المؤسسة؛ توظّفت هناك خمسة أيام، تقضيها كاملة من الصباح حتى العصر دون أن يسمح لها بالخروج وسط اليوم إلا في أضيق الحدود، وعندما تراكمت عليها مصاريف البيت والأبناء حتى أغرقتها وفاضت، أضافت إلى مصادر دخلها منزلين صغيرين تقوم على شؤونهما يومَي الإجازة.

بان الأسى على ملامحها. لولا سوء الظروف وقسوتها، ما تلطّمت من بيت لآخر، وما اضطرّت للعمل بأكثر من وظيفة.

قطع حبل أفكارها صعود رجل ضخم شديد الاتساخ إلى عربة المترو، تماماً في اللحظة التي نهضت فيها جارتها من المقعد المقابل. أسرع الضخم بأسماله محتكّاً بركبتيها، مالئاً المكان الشاغر. أخرج رأسه من النافذة، وطفق يغني بصوت أجشّ، ويمصّ خصلات شعره الطويل المغبّر. أقسمت أم مبروك سراً، ألا تقوم إلا في محطتها رغم الرائحة النفّاذة التي انبعثت منه، بيد أنها لم تستطع الاسترسال في تاريخها الاجتماعي الذي كانت تجترّه أكثر من هذا. ظلّت تراقب حركته بحذر وتبعد ساقيها عنه، لكن ذلك لم يمنع الرجل الذي بدا لها ممسوساً من أن يمدّ يده في فضول ناحية صدرها الممتلئ. انتفضت واقفة. صرخت وسبّت، وقذفته بحقيبتها فانفتحت، وسقط منها التليفون المعطّل الذي اصطحبته معها من المؤسسة زاعمة أنها سوف تصلحه. انتاب الرجل الذعر من الجلبة التي أحدثها السقوط، وفَزَّ إلى باب المترو، ثم قفز منه قبل أن يتوقف في المحطة التالية.

تعالت صيحات الخوف والاضطراب من أغلب السيدات الواقفات بالقرب من مكانها، ووصلت إلى أذنيها همهمات استغفار ولوم من بعض الراكبين، كما رأت رجلًا كبيرًا يهمس شاخصاً في الأرض، بأن البيت هو المكان الأمثل لاستقرار النساء، وقرأ أحد الجالسين نصًّا من الكتاب الأكمل لم تميّزها جيداً وإن أحسّت من أسلوبه أن الآية موجَّهة ضدّها، بينما اقترب صبي لا يتجاوز عمره

الثانية عشرة، يرتدي زياً مدرسياً مهندماً لكنه قديم، وسألها إن كانت قد تأذّت، فربتت على رأسه الحليق: «ربنا يحميك يا حبيبي». ثم أكملت وصلة السباب التي شرعت فيها حتى انتهت. انحنت لتلتقط التليفون وأعادت تركيب سمّاعته، ثم جلست مرة أخرى وقد أفزعها بالفعل ما قام به الرجل، لامت نفسها إذ اختارت المكوث أمامه، على تلك المسافة القريبة، رغم إسراع بقية الركاب بإفساح المكان فور رؤيته.

حظّها سيء بصفة مستديمة، ومشاكلها لا تنتهي أبداً مهما عافرت معها وحاولت رأْبها. راحت تفكّر أن لها ولداً في الثامنة مريضاً بالكلى لا يتوقف عن تناول العلاجات ولا عن دخول المستشفى، تنقله إليها عدة مرات في الشهر الواحد حيث يستقبل جسمه النحيف أطناناً من الدواء. وأن لها كذلك بنتين كبيرتين عاجزتين عن مساعدتها في التكفّل بجزء من المصاريف بسبب روماتيزم القلب، الذي هدّهما وأقعدهما عن الدراسة معاً قبل أن يقرأه لها الطبيب في نتائج التحاليل والأشعّات.

غرفتان في منزل رطب صار آيلاً للسقوط، مطمورتان داخل إحدى حواري المنطقة الثالثة القديمة، التي لا تجفّ فيها برك الصرف الصحي، وزوج طريح المقهى، ترك عمله وتفرّغ للبحث عن الحشيش والأقراص. لا تراه إلا حين تنتهي من يديه الجنيهات التي يستولى عليها من راتبها، غصباً تارة وتذلّلاً تارة أخرى؛ يترك مقعده في الليل ويأتي متوسلاً، طالباً المزيد، تنهره، فيسبّها، وأحياناً يضربها. علاوة على هذا، كُسرت يدها حين سقطت وهي تنظّف

سقف أحد مكاتب المؤسسة منذ شهرين، ثم قدمها اليسرى وهي تقفز من الميكروباص، ولم يختف الوجع من ساعتها، صار مزمناً، وكأن المصائب تنقصها.

نصحها الجيران الذين لاحظوا تعاقب الأزمات عليها دون غيرها، بأن تبحث عن السبب، وقد فعلت. قال لها الشيخ الأعلى، الذي زارته مرة واحدة قبل أن تصبح زيارته ممنوعة، إلا بتصريح من البوابة؛ إن سوء الحظ يلازمها لأنها غافلة عن الصلاة، وإن علاج الفقر وضيق ذات اليد اللذين كلَّت منهما، يَكْمُن في الإكثار من الدعاء ركوعاً وسجوداً، والكفّ عن الشكوى والتذمّر. ملأ رأسها بكلام كثير وفتح أبواباً لم تكن تلتفت إليها في سابق حياتها. عزمت بعد الزيارة التي سالت فيها دموعها ندماً وخشوعاً، على أداء الفروض والنوافل والالتزام بالمواقيت، وابتاعت طرحة بيضاء، احتفظت بها لدى السيدة الكبيرة أم أماني، حتى لا تفوتها الصلاة وهي هناك، لكنها فشلت في المحافظة على التزامها الجديد لأكثر من أسبوعين، لم يفارقها خلالهما سوء الحظ. كانت تنسى في بعض الأيام، وأحياناً تؤجل الوضوء حتى الانتهاء من العمل، ثم تكتشف في آخر اليوم أن الصلوات قد تراكمت عليها وأنها جد متعبة، فتعاهد نفسها على البدء بجدية من فجر اليوم التالي، لكنها تصحو متأخرة على موعد النزول، وتركض على قدمها السليمة متنوية أن تعوّض ما فاتها خلال اليوم وهكذا. لم تنجح أبداً في ما انتوته، حتى ظنّت أنها هي نفسها ممسوسة.

قطعت المسافة الباقية من محطة المترو إلى البيت سيراً على

قدميها، خلعت حذاءها ووضعته تحت إبطها الأيمن قبل أن تدلف من المدخل الخشبي المتآكل، ثم صعدت السلم بقدمين خشنتين متماهيتين مع درجاته المليئة بالحفر والبثور. وصلت إلى باب البيت ودفعته فانفتح بسهولة، تركت الحذاء ينفلت منها ونادت على مبروك، ثم أخرجت التليفون وأعطته إيّاه، وهي تستدعي الابتسامة الجَزِلَة ذاتها، التي تُضَيِّق من اتساع عينيها، وتجعلهما مجرّد فتحتين دقيقتين، ومن حولهما خطوط كثيرة متشعبة، لكن مبروك بكى حين رفع السماعة ولم يجد فيها صوت «الحرارة» الذي اعتاده وقت أن كان لديهم ـ حين وُلِدَ ـ خطّ أرضي. أقسمت له أن الحرارة قادمة بعد أيام معدودة. فكّرت في أن القرار الذي تسلّمته من مبعوث البوابة منذ سنة كاملة، والذي أفاد بعدم استحقاقها خط التليفون بسبب سوء السلوك، جاء عن طريق الخطأ، وأنهم لابدّ متداركون المسألة في القريب العاجل.

الفصل الثاني

الورقة الثانية

مكان وظروف وتوقيت الإصابة

«حضر المريض/ يحيى جاد الرب سعيد إلى الاستقبال في الساعة الثالثة إلا الثلث من عصر يوم الاثنين، الموافق 18 يونيو، وأقر المصاحبون له بأنه أصيب في الواحدة والنصف ظهراً تقريباً، أثناء مروره في المنطقة الثامنة التي شهدت وقوع الأحداث، كما أقروا بأنه كان متوجهاً من مقر عمله للقاء بعض الزبائن والعملاء في الناحية الأخرى من الساحة، حين استؤنِفَت الاشتباكات مرة أخرى بين أشخاص لم يتم تحديدهم، وأنه مع تصاعد الاضطرابات وتزايد حدتها وامتدادها إلي الشوارع المحيطة، شاهده بعضهم يحاول الخروج من المنطقة، لكنه سقط مصاباً ولم يتسنّ لهم تمييز من اعتدى عليه، فحملوه على أكتافهم حتى وصلوا به إلى المستشفى، وكان واعياً رغم حالة النزيف. قيل إن ثمّة مستندات قد فقدت منه في الطريق، وكذلك سُرِقَت حقيبة البضائع التي كان يحملها، ويُستَدَلُّ من هذا على أنه لا يوجد أي إثبات على صحة الرواية. مرفق مع الملف كشف مُفَصَّل بأسماء المصاحبين للمريض».

توقيع موظف الاستقبال.

مضى طارق يتأمل الكلمات المرصوصة في الورقة الثانية حانقاً، فقد أغرق نزيف يحيى الأرض وملاءات السرير حين جاء إلى المستشفى، ولو كان من بين صحبته طبيب أو ممرض، لجعل الباقين يتأنّون في عملية النقل، ويبطئون من حركتهم مراعاة لإصاباته الكثيرة، ولكان هذا كافياً لأن يصلوا به إلى قسم الطوارئ بعد موعد مغادرة طارق بساعة أو أكثر، فيتذيّل ملفّه باسم طبيب آخر؛ ربما أحمد أو بهاء أو حتى سماح، ولو انتظروا في مكانهم مجيء عربات الإسعاف التي أرسلها مستشفى الأجواء إلى الساحة، لكان الأمر انتهى وما صادفه طارق في غرفة الطوارئ على الإطلاق، لكنه جاء إليه رأساً، أول الوافدين الأحياء، وعلى جسده خارطة المعركة. ظل يعبث بالقلم الرصاص الذي لا يفارق جيب معطفه أبداً. اندمج بين الخطوط والمنحنيات التي أخذ يصنعها، مستعيداً هوايته الفنية الأثيرة، وانفصل تماماً عما حوله ثم لم يلبث أن أفاق بعد دقائق وتوقف عن اجترار الأحداث، فألقى القلم من يده، وترك الكرسي الجلدي.

كان قد رسم على نصف الورقة الثانية، الخاوي من الكلمات،

صورة تشبه يحيى، شبه عارِ، ودائرة مصمتة صغيرة، مظلّلة بكاملها، تحتلّ أسفل الجانب الأيسر من بطنه. فتح الباب طالباً من صباح كوباً إضافياً من القهوة الثقيلة، وعاد فألقى نظرة على المكتب ثم التقط الممحاة ومسح ما خطّه بعناية، رفع الورقة إلى بؤرة الضوء الخارجة من النافذة، فرأى الهيكل الخارجي ليحيى وظِلَّ الدائرة المصمتة، لايزالان موجودين.

الطريق إلى أماني

مع انتصاف نهار ذاك اليوم الغريب، وقع حدثان أثارا جدلاً وهرجاً في الطابور؛ سقطت الجنوبية العجوز، التي لم تأخذ قسطاً من الراحة منذ جاءت، مغشيّاً عليها، وقد وصل ابنها على الفور، شاب أسمر ملتاع، حملها ومضى إلى حال سبيله، دون أن يعرف أحد مَن أبلغه بسقوطها. قيل إن روحها قد صعدت إلى بارئها في الطريق من فرط الإعياء، كما قيل إنها نجت وأُودِعَت غرفة الرعاية المركزة في المستشفى الميري لمتابعة حالة القلب والرئتين، لكن الرجل ذا الجلباب الذي ظهر وسط الطابور دون أن يدري الواقفون متى أو لماذا جاء، أكّد أن هذا هو غضب الله عليها، فقد ارتكبت خطأً عظيماً في حقّ نفسها، وحقّ المؤمنين جميعاً، ورغم حضورها إلى البوابة معترفة بما فعلت، فإنها لم تستتر وتتوارى ببلوتها، بل تبجّحت وطافت تحكي عنها دون خجل هنا وهناك، وقد زادت الأمر سوءًا وبدلاً من أن تعقد النية على تقديم اعتذار، وأن تطلب من الله الصفح والمغفرة، اعتزمت تقديم شكوى وكأنها هي المظلومة. ساد الصمت من حوله، فرفع كفّيه إلى أعلى صائحاً: لا يختار الهرم إلا الضالّون.

الحدث الثاني كان ظهور إيهاب، الذي أعلن منذ البداية أنه صحفيّ، ولم يحاول التخفّي كعادة صحفيّين ومراسلين كثر ظهروا في المكان من قبله. تَرَفَّع عن حجز مكان في الطابور، وأخذ يتنقل إلى الأمام وإلى الخلف، ويطرح أسئلة على الواقفين، مدوناً كل شيء في دفتر صغير، وقد بدا مشاغباً، نشطاً، شديد الحماسة، لم يتعب من المسافات التي قطعها جيئة وذهاباً طيلة اليوم، باعثاً مزيداً من الحيوية حوله.

قَدَّرَ الواقفون على عتبات البوابة، أن بينهم وبين مؤخرة الطابور كيلومترات ثلاث، بينما أصرّ القريبون من المؤخّرة على أن بعدهم عن البوابة أقلّ من ذلك بكثير. كادت أن تنشب بين الفريقين مشاجرة عنيفة في المنطقة الوسطى، بسبب تقديراتهم المتفاوتة للمسافة، لولا أن تدخّل خبير مساحة معروف، يشغل مكاناً متميزاً في المنتصف تقريباً، وتطوع لفَضِّ الاشتباك. طلب بعض الهدوء وأخذ يجري حسابات سريعة، استخدم فيها معرفته الجغرافية بالمنطقة، والمعلومات التي نُقِلَت إليه تباعاً من الجانبين؛ المقدمة والمؤخرة، والوصفَ التفصيليّ الدقيق لشكل ومعالم المكان الذي احتلّه آخر المنضمّين إلى الطابور أثناء فترة الليل، ثم أعلن الرجل في النهاية، بالورقة والقلم، أن متوسّط المسافة هو كيلومتران تقريباً، فرضي المتناحرون وكفّوا عن الصياح، وعاد كل منهم إلى مكانه سعيداً بحسن تقديره للأمور.

شعر يحيى بأن اليوم، على عكس الأيام السابقة الفارغة، حفل منذ بدايته بنصيب وافر من الأحداث، بما يفي باحتياجات الواقفين من موضوعات للنّقاش والتسامر حتى حلول الليل، وشعر أيضاً

بأن هذه الضجّة ليست ملائمة أبداً لوقوع حدث آخر كبير الحجم مثل فتح البوابة، إذ يلزمه بالقطع بعض التحضيرات والاستعدادات التي تهيّئ الجوّ، وتجعله مناسباً لمباشرة أعمالها. بدأ كذلك يضيق بإيهاب وأسئلته، وبالصخب الذي يخلقه من لا شيء، وإصراره على طرح مواضيعه السخيفة، وعلى انتزاع إجابات لاستفهاماته التي لا يحيط بها أصحاب الشأن أنفسهم في معظم الأحوال. طافت برأسه أماني مرة أخرى، ففكّر أن عليه المبادرة بزيارتها دون تأخير، وعلى كلٍّ لا يبدو أن هناك جديداً في الأفق فيما يتعلق بالبوابة، تسير الأمور ببطء رغم ما يبدو عليه المكان من زخم ونشاط، ولن يضيره الخروج من المنطقة لفترة بسيطة.

بعد خلوّ مكان الجنوبية العجوز، صارت الأستاذة إيناس أمامه مباشرة؛ تلك الشابة الثلاثينية الحمقاء، التي يراها مخبولة، والتي يخاطبها الجميع، فتستمع منهم دون كلل إلى حكايات وتفاهات لا آخر لها، ثم لا يسمع منها أحد شيئاً مهماً أو مفيداً. لم يجد في نفسه ميلاً لأن يتبادل الحديث معها، ولا لأن يخبرها بنيّته الغياب لعدة ساعات، رغم أن تقاليد الطابور التي تكوّنت على مدار الأيام وصارت شبه ثابتة، كانت تحتّم عليه أن يترك بعض المعلومات مع جيرانه، كما كانت تسمح له أيضاً بالاحتفاظ بدوره، حتى وإن غاب لبعض الوقت، لكنه قرّر أن يتجاوز القواعد والتقاليد متحملاً المخاطرة، فغادر دون أن يؤكد على إيناس أن تحتفظ له بمكانه مهما تأخر، لم يُشِر إليها ولو بكلمة أو إيماءة واحدة، وانسلّ في هدوء ولحق به ناجي تلقائياً، دون أن يعرف وجهته.

كان الجو حاراً رطباً، صيف لزج، وسماء تكاد تتبخر أمام

سطوة الشمس القاصمة. بدت الشوارع أمامهما كما لو أنها خرجت لتوّها من حالة حرب غير مرئية، أوراق ملقاة في كل مكان، وزجاج مفتّت متناثر على الأرض، صناديق قمامة مقتلعة من أقفاصها، وأكوام من كاوتشوك السيارات المحترق لا زالت تنفّث دخاناً وأحياناً بعض اللهب. خطر ببال ناجي أن زمناً مرّ دون أن يسمع عن طارق أيّ خبر جديد، سأل يحيى فأشاح بيده دون اكتراث وقال إنه لم يره أو يتّصل به منذ تلك الليلة الكئيبة، التي أطلعه فيها على المستندات داخل مكتبه. تركا الطريق الرئيسي متجّهين إلى منزل أماني عبر طرقات فرعية مختصرة تمرّس يحيى عليها. مرّا بعدد من المقاهي نصف المفتوحة، كما صادفا عدة محلات ودكاكين على الجانبين، معظمها مُغلَقٌ بستائر حديدية رغم اقتراب الساعة من الرابعة عصراً.

قال ناجي إنه سمع من خلال مكالمات بعض الأصدقاء أن دكاكين كثيرة أقفلت أبوابها، وأن تجاراً لا يحصى عددهم تخلصوا من بضائعهم، بسبب طول الفترة التي يقضونها في الطابور، عاجزين عن مباشرة عمليات البيع والشراء وعن متابعة العمّال، كما سمع أن هؤلاء الذين لا علاقة لهم بالطابور، ولا حاجة بهم إلى الوقوف فيه، قد فعلوا المثل أيضاً مع بداية الأحداث المشينة، فأغلقوا بدورهم أشغالهم، خوفاً من الخسائر المادية التي لاحت في الأفق. أخبره أحد أقربائه المطّلعين أن مِن الناس مَن لم يصدّقوا خلوّ الدكاكين من البضائع، فاقتحموها، ولمّا لم يجدوا احتياجاتهم فيها، خرج كل منهم بما تَمَكَّنَ من حَمِلِه؛ حاسب آلي، مقعد، سكين تقطيع الجبن، ماكينة تخريط اللانشون، حتى أقفال المحال الحديدية اختفت من أماكنها في تلك المناطق.

كانا يجولان شبه وحيدين في الشوارع، لم تعد ساعات الذروة معروفة لأحد، لا مواعيد ثابتة ولا نظام، يخرج التلامذة في أي وقت، ويتحرك الموظفون تبعاً لاتجاه الشائعات اليومية، وقد فَضَّلَ كثير من الناس أن يتركوا أعمالهم، ويقيموا عند البوابة، عسى أن يتمكنوا من قضاء مصالحهم التي تعطّلت. لم تترك القرارت والأحكام الجديدة أحداً في حاله

هزّ يحيى رأسه صامتاً، منذ أن ظهرت تلك البوابة وصارت ضالعة في كل شيء، أصبح الناس في حيرة من أمرهم ومن أمرها، وقد صحوا ذات يوم ليجدوها ماثلة أمامهم دون مقدمات، لم يسبق ظهورها أي تمهيد؛ اللهم إلا ذلك الخطاب القصير الذي بثّته بعض قنوات التلفزيون ذات ليلة، وتحدّث فيه الحاكم القديم عن ضرورة استعادة زمام الأمور ومقاليدها، بعدما تكاثرت الهبّات والهوجات الشعبية العنيفة، التي كانت تنبثق من تلقاء نفسها أمام أفعاله غير المقبولة. تلك الهبّات التي كثيراً ما نالت من سمعته وطالت أملاكه وأملاك أعوانه، وهدّدت بتقويض النظام الذي استطابته الحاشية ورغبت في الحفاظ عليه.

لم يعرف الناس في البداية ما كنه هذا المبنى الضخم المهيب الذي اعتلته عبارة «بوابة المبنى الشمالي»، لكنهم لم يلبثوا أن أدركوا لاحقاً أهميته في حياتهم. اختفى الحاكم القديم من المشهد، وراحت البوابة تنظّم الكثير من الأمور، وتضع القيود والضوابط اللازمة لتسيير المصالح والأشغال، ثم صدر منشور رسمي أوضح اختصاصات البوابة وصلاحياتها، التي اشتملت على كلّ ما يمكن

للمرء أن يفكّر فيه، وقد كان هذا المنشور بمثابة الورقة الأخيرة الممهورة بتوقيع الحاكم. بمرور الوقت أخذت البوابة تستنّ بعض القواعد الثابتة، ثم صارت هي المصدر الأوحد للقوانين والقرارات، وانتفى ما دونها. ما لبثت البوابة أن سيطرت على كل شاردة وواردة، وجعلت لكل فعل خطوات وأوراقاً وأذوناً وتصاريح، حتى الطعام والشراب خضعا لأوامرها وتحكّماتها، وقد فرضت رسوماً كثيرة على كل شيء؛ حتى الوقوف على الأرصفة أمام واجهات المحلات للفرجة صارت عليه رسوم يدفعها المتجوّلون والمتسوّقون، كما راحت البوابة أيضاً تستقطع جزءًا من الرواتب كي تتمكّن من طباعة الأوراق الكثيرة التي تستخدمها في أعمالها، وكذلك كي تنشئ نظاماً أمنياً على كفاءة عالية يمكّنها من تطبيق تعاليمها.

صارت هناك وحدات حرس متنوعة، اختصت إحداها بحماية البوابة ذاتها والحفاظ عليها من أي سوء، وقد صُنّف أفرادها تحت مسمى «الحرس الأمني المانع»، وهم لا يظهرون أبداً إلى في حال حدوث أمر ينذر بالخطر في محيط البوابة. اختصّت وحدات أخرى بحماية المنشآت التي تحاط وثائقها وملفّاتها ومعلوماتها بقدر كبير من السرية؛ كمستشفى الأجواء وما يتبعها من أبنية معاونة، وقد أطلق على هذه الوحدات مسمى «الحرس الأمني الحاجب». أما هؤلاء الذين يُدفَع بهم دائماً إلى المعارك العشوائية المباشرة في حالة الاضطرابات والانفلاتات، فهم أفراد وحدة «الحرس الأمني القابض»، وقد أصبح مفهوماً أن تلك الوحدة هي الأقل تنظيماً وتهذيباً بين الوحدات جميعها لكنها أيضاً الأكثر طاعة والأشرس في المواجهات.

لم يكن يحيى ببعيد عن النكبات المتوالية التي حلّت على الناس بظهور البوابة، كادت المؤسسة التي عمل بها أن تفلس بعد أن امتدت الرسوم الإجبارية إليها، وصلها منشور يفيد تكليفها بتوريد بعض مستلزمات وحدات الحرس الأمني الغذائية، وهي نفقات جدّ باهظة لا يمكن تحمّلها دون خسارة، تظلمت المؤسسة إذ إنها لا تعمل في مجال الأغذية على الإطلاق، لكن تظلّمها عاد مختوماً بالرفض، وقد استغنت بالفعل عن عدد من الموظفين كي تفي بالتكليف، لكنه ظلّ في عمله ناجياً من الجولة الأولى، ومتوقعاً أن يطاله الاستغناء في الجولة الثانية. ساد التذمر في أوساط كثيرة، بيد أن أحداً لم يجرؤ على الكلام، فقد ساد الظن بأن البوابة قد أحكمت قبضتها وقبضة الحرس الأمني على المناطق جميعها؛ وامتدّت سطوتها إلى الشركات والمؤسسات والشوارع والبيوت.

سمع يحيى ذات يوم أن هناك من لم يعد يطيق ما يحدث، وأن مجموعة صغيرة من الناس تكونت حديثاً سوف تقوم بمحاولة منظمة للاعتراض، ساوره الشك في إمكانية حدوث هبّة جديدة في عهد البوابة، لكنه على كل حال استأذن عامداً ونزل من العمل في الموعد المقرر، عازماً على متابعة ما سوف يفعلون من بعيد، خطا عدة خطوات في الطريق إلى الساحة ثم لم يفهم ما جرى، وجد نفسه يسقط أرضاً دون ألم، ثم غاب عن الوعي ولم يفق إلا عند وصوله إلى المستشفى. عرف فيما بعد أن البوابة أُغلِقَت في هذا اليوم على أثر «الأحداث المشينة» الأولى. ومنذ ذاك الحين لم تُفتَح ولم تستقبل المواطنين، لكنها لم تتوقف عن إصدار القوانين والقرارات. فكر يحيى أنها لابد ستفتح، ما من سبب يدعوها إلى أن

تستمر موصدة، فقد انتهت الأحداث المشينة بتأكيد جبروت البوابة وسطوتها، إلا إذا كانت تمارس نوعاً إضافياً من العقاب. حين وصلا استأذن ناجي في الانصراف، وصعد يحيى بمفرده.

دقّ الجرس عدة مرات قبل أن تفتح أماني الباب. رغم لهفتها الشديدة إلى رؤيته، لم تتطلّع في وجهه سوى للحظة عابرة، انتقلت بعدها عيناها إلى أسفل دون تفكير، وأخذت تتفحّص ملابسه وتدقّق النظر فيها، ففهم على الفور أنها تبحث عن أثر لأربطة وضمادات، وحين لم تجد أياً منها تهدّلت ملامحها المشدودة وشعرت بانقباض. احتفظت طوال الوقت بالأمل في حدوث معجزة رغم أنها كفّت عن الاعتقاد في المعجزات منذ شبّت؛ لم تتخلّ عن رغبتها في أن تراه وقد أجرى العملية الجراحية بنجاح، ثم طاب وتماثل للشفاء، وانتهى الكابوس السخيف الذي حطَّ عليهما دون مقدمات.

لا تتغير أماني مهما جرى، يدرك تماماً كيف تفكّر بمشاعرها دون أن تعقل الأمر، تنتظر تحقُّق أمنياتها بطريقة سحريّة، ولا يروقها أن تضع في حسبانها العقبات والعراقيل حتى وإن كانت تعرفها جيداً، وتعي صعوبة التغلب عليها. اعتاد أن يتعامل مع طريقتها الطفولية تلك بمحاولة نقل أفكارها الخيالية من الأحلام إلى الواقع كلما استطاع، لكن هذه المرّة تختلف عن سابقاتها بكل تأكيد؛ هي نفسها اشتركت في تفاصيل الحادث، وصارت جزءًا منه. اقترب منها كي تكفّ عن التفتيش والتمني، وقَبَّلَ رأسها وشفتيها، لكنه لم يستطع احتضانها كما يجب، فقد ظل الوجع يضرب جانبه الأيسر دون رأفة، قال لنفسه إن أياماً أفضل قادمة بكل تأكيد.. جلست معه لدقائق في

الصالة الفسيحة، ثم دخلت إلى المطبخ وعادت تحمل كوبين وفطيرة صنعتها خصّيصاً للاحتفال بعيد ميلاده التاسع والثلاثين. فكّر أنه عيد الميلاد الأول له، وهو يحمل في أحشائه رصاصة.

لم يكن لديها في البيت شموع، ولا كانت لديهما رغبة في أداء تلك الطقوس الاحتفالية المعتادة، فاكتفيا بوجودهما سوياً. صبّت الشاي في الكوبين، وتمنت وهي تقسّم الفطيرة إلى قطع كبيرة الحجم، أن تختفي الرصاصة، قبّلت رأسه وأعطته الطبق، لكن يحيى لم يتمكن من مشاركتها الأكل بسبب الألم الذي تمدّد في بطنه كلها، وامتدّ لفخذيه كالسكين. فَرَد جسمه على الكنبة مغمضاً عينيه، فأحضرت له كوباً من الماء، ثم جلست على المقعد المقابل دون أن تجرؤ على لمسه، كانت منزعجة وبائسة لمرآه ممدّدًا هكذا، ضعيفاً ومكدوداً. تملّكها شعور بالعجز والغباء، وهي تقول في نفسها إن كوباً من الماء لن يخفّف عنه تعبه بكل تأكيد. غفا، بينما جالت أماني في ذاكرتها وتوقّفت أمام المبنى الشمالي، ذاك الذي يقف يحيى بفارغ الصبر، منتظراً الدخول إليه، كثيراً ما تراه على بعد: بناء غريب يرتفع عن أسوار البوابة قليلاً، لا نوافذ في الجوانب الظاهرة منه ولا شرفات، فقط حوائط مصبوبة جرداء، ولولا أن أناساً قد دخلوه فيما مضى، ووصفوا حجراته ومكاتبه العديدة، لتصوّره الرائي مكعباً مصمتاً، لا فراغات داخله.

لم يُطِل يحيى من رقدته، أشفق عليها بعد أن صمتت تماماً وأخذت تراقبه، وتحصي مرات تنفّسه، وتتنفس معه لتكتشف ما يطرأ عليه من تغيّرات، استجمع قواه واعتدل جالساً، وقد استعاد وجهه بعض الحيوية. أثار أساه أنهما لا يجدان موضوعاً آخر

للكلام في تلك اللحظة، سوى الموقف المربك، الذي صار عالقاً فيه بين صباح مغبّش وظهيرة مشؤومة، يقوم وينام ويسير ويأكل ويشرب وفي جسمه رصاصة تأبى أن تفارقه. سرّها قيامه وحمّسها وأذاب شحوبها، اقترحت أن يزورا طارق سوياً مادام الوقت متاحاً. كانت موقنة من قدرتها على استمالته إلى صفهما كطبيب، فقد تغيّرت الأمور الآن عما كانت عليه في الزيارة الأخيرة؛ بدأ يحيى في اتخاذ الإجراءات اللازمة، وحجز مكاناً في الطابور، وسوف يبقى هناك حتى يحصل على التصريح. أصبحت مسألة وقت وليس إلّا، ويمكن لطارق أن يظهر بعض الشهامة ويمدّ يد المساعدة قبل أن تكتمل الأوراق المطلوبة، فالوضع لا يحتمل التأجيل والتشبّث بتلك القواعد المتعسفة التي لا تفيد شيئاً. أومأ لها برأسه موافقاً، قضم قطعة من الفطيرة، وقام على مهل ممسكاً بجنبه.

رَن جرس التليفون قبل أن يغلقا باب البيت، تردّدت قليلاً ثم عادت والتقطت السماعة فانطلق منها صوت ناجي العريض متهلّلاً لسماع صوتها، مرّت فترة طويلة لم يرها خلالها، ربما منذ أن وقعت إصابة يحيى. كان قد أنهى ارتباطاته وقرر العودة إلى الطابور، ففكّر أن يصطحب يحيى في طريقه، لكن أماني غيرت خطّته، ودعته إلى لقائهما في المستشفى. فرصة طيبة أن يلتقوا بعد زمن من الانقطاع، حتى وإن حمل المكان لثلاثتهم ذكرى سيئة. تناول منها يحيى السماعة ليوصيه بالاحتراس، والتحفّظ في الكلام إذا وصل في وقت مبكّر عنهما، وشَدَّدَ عليه ألا يذكر أمام طارق أية تفاصيل تخصّ أوضاع الواقفين في الطابور. على السلّم، ذكّرته أماني بالرسالة التي بعثتها له مع أم مبروك، فهو لم يحدّثها عمّا سوف يفعله بشأن الطبيب المريب الذي

زار المؤسّسة. اندهش لنسيانه الأمر تماماً، رسالتها الغامضة أورثته الحيرة والقلق وقد أراد أن يستوضح منها الأمر بمزيد من التفاصيل، فتبعاً لما قرأه ليس هناك إلا معلومة واحدة: مستشفى الأجواء، المكان الذي يعمل فيه. عدا ذلك، لا اسم ولا لقب ولا توصيف لمنصبه، كما أنه لم يطلب منها أي شيء ولا حتى إبلاغ يحيى بقدومه، قذفها بسؤاله وتلاشى. رغم أن تلك الرسالة المبهمة كانت بمثابة الحافز الذي جعله يترك الطابور ويذهب لزيارتها، لكن الموضوع انمحى من ذاكرته ليحلّ محلّه الألم. فقط الألم. كان الوقت متأخراً فأجّلا الحديث، وأسرعا للّحاق بطارق.

اتخذ ناجي إلى المستشفى أقصر الطرق التي يعرفها، والذي صار الأقرب إلى مزاجه في الآونة الأخيرة، حيث تحول إلى مزارات مسلّية، وأسواق عامرة بأصناف من المأكولات والمشروبات والملابس، وبكل ما يمكن أن يحتاجه عابر وحيد مثله من بضائع، والأهم أنه صار منجماً زاخراً بالكتب والمطبوعات. لمح قفصاً خشبياً ينوء بالعديد من الصحف والمجلات في ركن شاحب الإضاءة، وقد تربّع بجواره رجل نصف نائم، رأسه مائل على كتفه كما لو كان سيسقط في أقرب فرصة. حدّق في العناوين مستكشفًا، ثم اشترى منه، دون أن يوقظه، جريدة الحق الأسبوعية، وإحدى الدوريات الفصليّة التي صارت تصدر كلما تيسّر. توقّف لدى عربة يدوية تبيع البطاطا شاعراً بالجوع يتسرّب إلى جوفه، لكن الأدخنة التي تصاعدت منها استدعت إلى رأسه أحداثًا قريبة مزعجة، فتجمّد أمامها لبرهة، ثم واصل السير دون أن يقتنص لنفسه حبة واحدة.

الورقة الثالثة

الفحوصات التي تمّت، الفحوصات المطلوبة، العلامات الظاهرية والتشخيص المبدئي

«المريض واعٍ ومنتبه ومدرك لما حوله، ضغط الدم والنبض في المعدلات العادية، العلامات الواضحة: مظاهر اختناق وتهيّج في الأعصاب، مداخل ومخارج (كلمة محذوفة) حادّة الحواف تحوطها الدماء، وعلامات لسحجات وكدمات حديثة في منطقة الظهر والحوض والساعدين، (كلمة محذوفة كُتِب فوقها: جُرح) نافذ بمنطقة الحوض مصحوب بنزيف غزير، اعوجاج في المعصم. تم إجراء (جملة طويلة محذوفة). مطلوب:صورة كاملة للدم، وظائف كلى وكبد، موجات فوق صوتية على البطن والحوض والصدر، أشعة عادية على الساعد الأيمن».

أعاد طارق قراءة تلك الورقة مرات عديدة، وقد راح في كل مرة يقلّبها على ظهرها ويحقّق في الوجه الآخر، فيجده خالياً. كان يبحث عن الوصف التفصيلي الذي كتبه بيده بعد أن رأى الأشعة، الوصف الذي دَوَّنَه ووقّع عليه باسمه، لكنه لم يكن هناك. ثمة أوراق ناقصة، لا يدري كيف اختفت، أمّا هذه الورقة الماثلة أمامه، فقد امتدّت إليها يد أخرى، فطمست المعلومات المفيدة، وأحالتها إلى تقرير مبتسر غير ذي قيمة، لا يكتبه حتى طبيب حديث التخرج. لم يعرف أبداً من الذي غيّرها هكذا.

يتذكّر جيداً كيف قام بإيقاف النزيف، وإجراء بعض الإسعافات الأولية، ثم كيف اضطر إلى إغلاق الجرح تاركاً الرصاصة في مكانها بجانب مثانة يحيى. لم يخطر بباله أبداً أن يأتي بمثل هذا الفعل، وهو جراح يفهم جيداً عمله ويدرك نتيجته، لكن أحد الزملاء الأصغر سناً نبّهه ساعتها إلى أنه يحتاج تصريحاً خاصاً، إن كان ينوي المجازفة باستخراج رصاصة. دارت بينهما مناقشة حادّة عصبية، توجه الزميل على أثرها إلى صوان المحفوظات، وأخرج مجموعة من الأوراق الموضوعة بعناية على الرفّ العلوي، ثم انتشل منها مستنداً مطبوعاً

على ورق أصفر خفيف، وألقاه أمام طارق وقد فاض به الكيل من سذاجته، ورجاه أن يقرأ قبل أن يتخذ القرار. تناول طارق المستند محاولاً الفهم، لكن صافرة عالية جعلتهما يكفّان عن الحوار.

وصلت عربة الإسعاف الجماعية، فأحصت عدد المصابين بدقّة وبينهم يحيى جاد الرب، وتحقّقت من نوعية إصاباتهم، وحملتهم إلى مستشفى الأجواء الميري، حيث أُعلِنَ في القنوات التلفزيونية والمحطّات الإذاعية، عن رفع درجة الاستعداد القصوى لاستقبالهم.

ترك طارق الحافظة والملفّ على مكتبه، وذهب ليجلس بعيداً في ركن الحجرة مصطحباً معه الورقة الثالثة فقط. تضايقه كثيراً تلك الورقة، خاصة أنه كلما أخرجها من الملف وشرع في القراءة، تجاوز نهاية الفقرة، واستعاد ما جرى بعد ذلك كاملاً، ففي صبيحة اليوم التالي للأحداث، جاء طبيب يرتدي الزي الرسمي، طالباً مقابلته هو: د. طارق فهمي. رفض الجلوس كما رفض قبول واجبات الضيافة في انتظار وصوله. دلف طارق الذي تم استدعاؤه إلى البهو بعد دقائق، فوجد الطبيب الخمسيني، مهيب الطلعة، يدور متأملاً اللوحات الزيتيّة المقلَّدة، المعلّقة على الجدران. دعاه إلى المكتب وهو يمدّ يده مصافحاً، فبادله المصافحة في صلف وجمود.

ما إن أغلق الباب، حتى أبرز الطبيب بطاقة تعريف مِن تلك التي لا يمكن الشكّ فيها ولا مراجعتها، ثم أخذ يستعلم عن الأشعة التي أُجرِيَت ليحيى، وأخرج مِن حقيبته أمراً واجب النفاذ باستلامها. رجاه طارق أن يتناول عصيراً أو مشروباً ساخناً، لكنه رفض مرة

أخرى في حسْم، ووقف متعجلاً الأشعة، كما طلب أيضاً من طارق أن يحصل على كل النسخ الموجودة منها، إن كانت لديه. في حقيقة الأمر لم يكن الرجل يطلب شيئاً، ولم يستخدم أية صياغة تدل على إمكانية أن تُقَابَل طلباته بالرفض، الجُمَل التي خرجت من فمه كلها، كانت عبارة عن أوامر صريحة مُغَلَّفَة في إطار رشيق من التهذيب، لكنها تتجاوز في طبيعتها ومضمونها صلاحيات أي طبيب خارجي.

اتصل طارق برئيسة التمريض، وأمرها بإحضار ملف يحيى جاد الرب على وجه السرعة. في اللحظة التي طرقت فيها الباب، كانت يد الطبيب تمسك بالمقبض وتفتحه ثم تنتزع منها الملف، بينما بقيت يد طارق خالية وممدودة في اتجاهها لثوان. أمرها الطبيب بالانصراف والحرص على عدم الإزعاج حتى يخرج، ثم أعاد إغلاق الباب. جلس في استرخاء محتلاً المقعد الجلدي، غير عابئ بوجود طارق الذي ظل متسمراً في الأرض. طالع كل محتويات الملف ثم هز رأسه راضياً، واستلّ الأشعة فقط، ولم ينبس بأكثر من كلمة واحدة: تمام. وخرج من الغرفة واختفى.

رغم تلقّيه جرعة لا يمكن احتمالها من الإهانة، لبث طارق صامتاً حتى مضى الرجل حاملاً غنيمته، لم يكن في نيّته أن يبدأ نقاشاً أو أن يبدي أي اعتراض حتى لو أتيحت له الفرصة، يدرك جيداً أن الجدل في أمر كانت «بوابة المبنى الشمالي» عنواناً له، ومع شخص مثل هذا، حماقة لا تؤتمن عواقبها في الفترة الغائمة التي تمر بها البلاد. عرف بعد ساعات قليلة، أن جهاز الأشعة الجديد الكائن بالدور السفلي أصابه عطب جسيم، وقالت صباح التمرجية

إنها رأت سيارة مغطاة تابعة للبوابة، تعمل على نقله بغرض الفحص والإصلاح. عاد إليه يحيى بعد يومين أو ثلاثة تقريباً، كان شديد الإنهاك وقد نزف الجرح الذي خاطه له بيده، وبدا أنه سوف يفقد الوعي للتوّ. ذكّره بنفسه رغم أنه لم يكن في حاجة إلى التذكير، ورجاه أن يساعده على البدء في إجراءات الدخول إلى أن يتمكّن من استدعاء أحد الأصدقاء لملازمته، قال إنه يبغي استكمال العلاج واستخراج الرصاصة، وأنه قد جاء تاركاً مستشفى الأجواء، حيث لم يتسنّ للأطباء إجراء الجراحات كلها، نظراً لأعداد المصابين الكبيرة التي وصلتهم هناك، وقد أخبروه بأن حالته مستقرة إلى حدّ ما مقارنة بالآخرين، وأجّلوا موعد العملية على هذا الأساس.

تذكر طارق في ضيق أنه لم يجد الظرف ملائماً كي يطلع يحيى في حينها، على تلك الزيارة الرسمية التي تلقاها بشأنه دوناً عن باقي المصابين، كان يدرك جيداً أنه ليس في وسعه إخفاؤها إلى الأبد، وأن يحيى سوف يبحث عن الأشعة مادام قد جاءه ثانية، وسوف يعرف بشكل ما أنها لحقت به إلى مستشفى الأجواء رغماً عن أنفه، وأنه على الأغلب لن يراها ثانية. مرّت بذهنه المشاهد اللاحقة سريعاً، تلك الحجرة الجانبية الخالية التي ساعده على السير إليها، والباب الذي أحكم إغلاقه حتى لا يتطفّل عليهما أحد، والصوان الذي أخرج منه المستند الأصفر، ذاك المستند الذي عطّله عن إجراء الجراحة فور وصول يحيى مصاباً، استرجع ملمس الأوراق وهو يفتحها للمرة الأولى ليطالعا سوياً ما يحويه، كما استعاد وجه يحيى وهو يتلو في صوت خفيض ما وجده أمامه: بعض مواد وبنود أحكام البوابة الصادرة بتاريخه، والمتعلقة بسير العمل في المنشآت الطبية.

المادة 4 (أ)؛ «التصريح باستخراج ونزع رصاصة». نص المادة: «يُجرَّم استخراج الرصاص وجميع أنواع المقذوفات النارية، من أجساد القتلى، أو المصابين، سواء عن طريق العيادات، أو المستشفيات الخاصة أو العامة، وكل ما في حكمها، إلا بتصريح رسميّ موثق يصدر عن بوابة المبنى الشمالي، ويُستثنى من ذلك على سبيل الحصر، مستشفى الأجواء وملحقاتها، التابعة تبعية مباشرة للبوابة».

العقوبات الموقعة على كل من خالف المادة 4 (أ): «يعاقب كل من خالف المادة4 (أ) عامداً أو عن غير قصد، أولاً؛ بالتوقيف عن ممارسة عمله، وثانياً؛ بالسجن للفترة التي يراها القاضي، ولا يُسمَحُ له بعد انتهاء فترة العقوبة بالعودة إلى نفس المنصب أو الوظيفة، إلا بعد الخضوع إلى برامج تأهيلية، تختص بتحديد مدتها بوابة المبنى الشمالي، ويكون على الشخص محل المساءلة مراجعة المنفذ دورياً، بحد أدنى مرّة كل شهر، أو أقل من ذلك حسبما يقتضي الأمر».

كانت هناك عدة سطور مكتوبة على هامش المستند بخط اليد، كما لو أن قارئًا من المطلعين قام بإضافة بعض النقاط التي رآها مفيدة للفهم والتطبيق: «في توضيح المادة وأحكامها، قيل إن هذا التدبير قد اتُّخذ مراعاة للأوضاع الحرجة، وأن الرصاصات والمقذوفات بوجه عام، قد تكون ملكاً لإحدى وحدات الحرس الأمني، وبالتالي لا يمكن إخراجها من الجسم إلا بتصريح خاص».

ابتسم طارق وهو لا يزال يحدّق في الورقة الثالثة، مستشعراً كيف زاوله التوتر بعد أن استوعب النص، وأدرك ما كان سيقع فيه.

نجا دون أن يدري من موقف عسير كان كفيلاً بوضعه قيد المساءلة والتحقيق. غمره إحساس بالامتنان للمجرى الذي اتخذته الأمور، والحقيقة أن حرجه تجاه يحيى قد تضاءل بعد تلك المكاشفة كثيراً، كان تصرّفه سليماً بكل المقاييس. أخفى ارتياحه هذا في حينها، وأبدى الأسف العميق، ونصح يحيى بأن يتمسك بدوره في مستشفى الأجواء، ثم قام في همّة وأحضر علباً من مضادّ حيوي قوي، وعدّة شرائط تحوي أقراصاً مسكّنة. أوصله إلى الباب، واعداً بأن يجري له الجراحة إن ظلت قائمة مستشفى الأجواء مكتظّة بالمصابين، بمجرّد إحضاره تصريح البوابة، كما أعطاه إذناً بالقدوم في أي وقت من أيام الأسبوع دونما حاجة إلى موعد مسبق.

سيعرف طارق فيما بعد أن يحيى قد ذهب بالفعل إلى البوابة، فقد سُجِّلَت زيارته إليها في الورقة الخامسة من الملف الملقى أمامه على المكتب، وجاء فيها أنه قد وصل مع أحد أصدقائه إلى الطابور في أوائل شهر يوليو، يوم لا يتذكر تاريخه تحديداً، لكنه قرأ أعلى الورقة؛ الساعة التاسعة وخمساً وعشرين دقيقة.

عطل شبكة المحمول

تشجّع رجل متوسّط العمر وقرّر أن يغادر الطابور في صمت مثلما فعل يحيى وناجي. تسرّب بعدهما بساعات قليلة متجنّباً أن يُحدث جلبة، لكنه ترك خلفه دون أن يدري جريدة، وحقيبة صغيرة ظلت واقفة وحدها في مكانه. حين انتبه الجار الذي يليه مباشرة، كان الرجل قد قطع مسافة بعيدة وهَمَّ بالصعود إلى سيارة ميكروباص. نادى عليه دون فائدة، فحمل الحقيبة وأسرع خلفه صائحاً بصوت أعلى، لكن الميكروباص انطلق على الفور بينما ظلّ الرجل غافلاً عن أشيائه. عاد الجار بالحقيبة حائراً، وقد تجمع في المكان بعض الناس ممن تابعوا الموقف، فتحها أمامهم فلم يعثر فيها على هويّة للرجل، الأمر الذي دفع أحد المتحلّقين حوله إلى القول بأن الحقيبة تصير إلى من وجدها أولاً، لكن الجار تحرّج من الموافقة على هذا الرأي وتلعثم رافضاً أن يستولي عليها.

تدخّل الرجل ذو الجلباب وأكد أنه لا غضاضة على من يأخذها طالما حاول إعادتها إلى صاحبها ولم يفلح، وأضاف أنها تقع في باب الرزق الحلال. أوشك الأمر أن ينتهي، لكن امرأة مستجدّة

كانت تبحث عن مكان خالٍ أكثر قرباً إلى البوابة، لها تسريحة شعر قصيرة وجونلّة سوداء، اقتحمت التجمّع الصغير واقترحت الحفاظ على الحقيبة ليوم أو اثنين، فإذا لم يرجع صاحبها ـ الذي يُرجَّح أن يعود باحثاً عنها ـ صار من الأفضل تسليمها إلى الموظف القابع في المنفذ القريب، أو إلى الحرس الواقف هناك، بحيث تنقضي شبهة ارتكاب ذنب واستباحة شيء لا يخصّ أحداً من الحاضرين. انزعج الرجل ذو الجلباب لوجودها بينهم، أشاح برأسه متعوّذاً، وسمعته يتمتم داعياً بالهداية لمن يدسّون أنوفهم في غير شئونهم، وكذلك للجهلة والسفهاء الذين لا يفهمون الفارق بين الحلال والحرام. أيّده بعض الواقفين متأفّفين من تدخلها، وانضم آخر حليق اللحية متسائلاً، دون أن ينظر إليها، عن جواز الأخذ برأي امرأة غير محتشمة في جمع من الرجال. لم يكن في الواقع ينتظر رداً، فقد وضع يده على كتف الجار الذي ظلّ مشتّتاً وسط الجمهور المتزايد، وأمره بأن يُخرِج محتويات الحقيبة كلها، ليتقاسمها الواقفون فيما بينهم فيتفادى الوقوع في موضع الحرام.

وجدت إيناس نفسها طرفاً في الأزمة التي نشبت على بعد أمتار قليلة من موقعها؛ أزعجها كثيراً الهجوم الذي نالته المرأة المستجدة، لكنها مكثت تراود نفسها البقاء بعيداً عن مواطن النزاع، ثم لم تستطع التحمل أكثر مما سمعت، خاصة مع الإهانات المتعاقبة التي وُجِّهَت إلى المرأة، بعد أن أصرت على رأيها وحاولت حماية الحقيبة. خطت إيناس عدة خطوات إلى الخلف حتى اقتربت من الدائرة، وهتفت معترضة: معاكي حق يا مدام. خرج صوتها ضعيفاً خفيضاً لكنه كان كافياً كي يلتفت إليها الواقفون كلهم. حدّق فيها ذو

الجلباب طويلاً دون أن يعلّق على كلماتها المعدودة، التي اتّخذت بها جانب المرأة الأخرى دون مواربة. بات واضحاً أن هناك فريقًا آخر في طريقه إلى التكوّن.

شعرت إيناس بالحرج يكتنفها واحمرّ وجهها إذ توقّف الجدل الدائر بعد عبارتها القصيرة، وراحت الوجوه تطالعها في فضول، كأنما يُنتَظَرُ منها أن تنطق بشيء إضافي. أخيراً تدخّل إيهاب، ذلك الصحفي الذي يمر من أمامها كثيراً، وعرض أن يقوم بتوصيل الحقيبة إلى مقرّ الجريدة التي يعمل بها، وأن يتم جردها وتسجيل محتوياتها هناك، ثم يُنشَرُ تنويه صغير بمواصفاتها، ربما يتعرف عليها مالكها الذي سيفضل غالباً استلامها من المقر على الذهاب إلى منفذ البوابة. ثار على اقتراح إيهاب قلة من الواقفين بينما استحسنه الباقون، فعادت إيناس سالمة إلى مكانها ومضت المرأة المستجدّة تتابع البحث.

مع هبوط قرص الشمس وراء البوابة، هدأ الطابور وكف أغلب الموجودين عن إحداث ضجّة، بدأت فترة الراحة التي تتزامن مع مجيء حَمُّود بالمشروبات. صلّى بعض الواقفين المغرب، وتَرَبَّعَ آخرون على الأرض في انتظار الشاي والينسون، لكن صبيان المقهى لم يظهروا. مرّت ساعة كاملة بعد الموعد الذي اعتادوا أن يأتوا فيه دون خبر، وطال الوقت حتى تململ الناس ونادى أحدهم على سائق الميكروباص سائلاً إن كان يعرف سبب الغياب، فأخبره أن ثمة إصلاحات وتركيبات تتمّ بالقرب من المقهى، وأن العمّال جميعهم منشغلون هناك. حاول إيهاب الاتصال بتليفون حَمُّود

الذي حرص على تسجيله أثناء حوارهما حول حكايات الطابور وخفاياه، فلم ينجح، ثم جرّب الاتصال بزميل له في الجريدة، لكن جهازه عجز عن التقاط أيّ إشارة. أخرج البطارية ثم أعاد وضعها وابتعد عن المكان وجرّب مرّة أخرى دون نتيجة. اكتشف خلال تجواله أنه لا يعاني تلك المشكلة منفرداً.

ظهرت الأعراض تدريجاً لدى بضعة أشخاص مثله، ثم على عشرات ومئات، وأخذت الأعداد في التصاعد. أدرك الناس أخيراً أن عطلاً عامّاً قد أصاب الشبكة. اقترب الرجل ذو الجلباب من إيناس سائراً على مهل، عابثاً في المسبحة، ومتظاهراً بأنه لا يقصدها. ارتعبت حين وقف على مسافة خطوتين فقط منها، موجّهاً عينيه الواسعتين صوبها. ألقى عليها السلام كاملاً بصوته الرفيع الذي اكتشفت للتو أنه مناقض جداً لهيئته الجَهمَة، أمسكت عن الضحك بالكاد، وردت السلام في تردد متحاشية أن تنظر إليه، فعرض عليها أن تستخدم هاتفه المحمول الذي لايزال يعمل رغم العطل، إذ ربما يحتاج أهلها إلى الاطمئنان عليها، واستطلاع وضعها الحالي. شكرته مندهشة، لم يكن لديها على كلِّ حال من تتصل به، قالت له إن والديها لن يعودا من الخليج إلا بعد شهرين من الآن، وأن أختها المتزوجة تنشغل خلال هذا الوقت من اليوم باستقبال مدرّسي الأولاد. لم تدر ما الذي جعلها تفصح له بتلك المعلومات دون تفكير، أما هو فقد داعب لحيته راضياً، وأخبرها أن التليفون متاح لها في أي وقت، ثم عاد إلى مكانه بعد أن ألقى نظرة عابرة على يديها الاثنتين، وقد سَعِدَ بامتلائهما البض، وبخلوّ أصابعها من أي مصاغ.

عن ليلة 18 يونيو

لم يكن الطريق إلى المستشفى حيث يعمل طارق طويلاً، لكن أماني أصرّت على ألا تترك يحيى يسير متعباً. استقلّا سيارة أجرة وراح كل منهما يفكّر فيما ستنتج عنه المقابلة.

أخذ يحيى يسترجع الأحداث حتى لا يخطئ بكلمات لا ينبغي التفوّه بها، وحتى لا يفوته شيء في كلامه مع طارق؛ حين وصل إلى الأجواء في ليلة الثامن عشر من يونيو، كان هناك العشرات مثله وربما المئات. مِن الجرحى مَن سكنت جسده ثلاث وأربع رصاصات، ومنهم من كانت إصاباته أقل خطورة. حين تأجل موعد استلقائه مخدّراً على الطاولة، ظل يبدي للممرضات انزعاجه وسخطه طيلة يومين كاملين، لكنه سرعان ما بدّل رأيه في اليوم الثالث من إصابته، فقد اكتشف أن زميله بالحجرة، الذي رأى بعينيه مشهد إصابته، والذي يرقد في غيبوبة كاملة وفي رأسه رصاصة، قد صدر بشأنه تقرير طبي، يفيد أن سبب الغيبوبة هو نوبة صرعية، أدت إلى سقوطه من مكان مرتفع على جسم معدني صلب، أصابه في جانب الرأس، وأنه لا وجود لمقذوفات نارية في الأشعة التي خضع لها. عند

الظهيرة سمع أن الأمر ذاته قد تكرّر مع اثنين آخرين، وأنهما خرجا لتوّهما من غرفة العمليات. في هذا اليوم طلب استخدام تليفون والد زميله، وأجرى اتصالاً بأماني لتبكّر من موعد زيارتها له، وأفهمها بكلمات مقتضبة أن ثمة أشياء غريبة تحدث في المكان، وأنه لم يعد مطمئنّاً لبقائه ولا لإجراء العملية وإزالة الرصاصة، التي ربما تختفي هي الأخرى.

في اليوم الرابع من إصابته عرف أن أماني لم تتمكّن من دخول المستشفى بسبب الإجراءات الأمنية شديدة التعقيد التي قيل إنها اتُّخذت من أجل الحفاظ على راحة المرضى، لكنها أخبرته في اتصالها الأخير على تليفون جاره، أن الرسالة الصادرة عن البوابة أكدت عدم حدوث إطلاق رصاص في المكان والتوقيت اللذين أصيب فيهما، وأن بعض الصحف الهامة نشرت أخباراً احتلت صفحات كاملة، جاء فيها أنه لم يتم العثور على أية آثار للرصاص في أجساد الموتى والجرحى على حد سواء، وأن شهود العيان أفادوا بأن المشتبكين في تلك الأحداث المشينة هم أشخاص أصابهم الانفلات الأخلاقي؛ تبادلوا السباب في أول الأمر، ثم تراشقوا بالحجارة، واستولوا على أسياخ حديدية من مبنى عريق تابع للبوابة، تصادف خلوّه من الموظّفين، وخضوعه لبعض أعمال الترميم، ثم تبارزوا بتلك الأسياخ التي انتزعوها فجُرِحوا جروحاً نافذة.

قرأت له أماني من جريدة الحق، تصريحاً لأحد الأطباء المشرفين على علاج المصابين بمستشفى الأجـواء، دون ذكر

اسمه، يؤكد أن ارتفاع نسبة الوفيات يرجع إلى أنه مِن بين المتراشقين مَن لم يتحمل قسوة الألفاظ، فسقط صريعاً من تلقاء نفسه وتوقفت عضلة قلبه قبل وصول الإسعاف، وأن بعض الذين تصادف مرورهم في هذا الوقت، أصيبوا بصدمات عصبية حادة من هول الموقف فتجمّدوا في أماكنهم ثم توالى سقوطهم تباعاً. تمادى بعض الصحافيين، فنقل أخباراً غير موثقة عن أن عدداً ممن توفوا لم يُقتَل وإنما انتحر اعتراضاً على ما جرى، وقد تولّى نفر منهم طعن نفسه وطعن الآخرين بالخوازيق الحديدية، على الطريقة اليابانية الشهيرة. انسلّ يحيى آنذاك من سريره دون أن يلحظه أحد، وعاد بمفرده إلى المستشفى الأول حيث طارق. لمحه وسط البهو، ولم يكن يذكر اسمه لشدة الوهن والضعف اللذين حلّا به، أشار إليه متسائلاً، فردّت التمرجية على نحو آلي بغير أن ترفع بصرها عن دفتر المناوبات: الدكتور طارق فهمي.

زفر حين فكّر في تلك النصوص المنقولة التي عرضها عليه طارق، والتي تشكّك حينها في صحّتها، ففتّش في باقي المستند، لكنه لخيبة الأمل اكتشف وجود ختم البوابة الأصلي على ظهر كل ورقة، ولم يجد لديه حجّة للمناورة. خرج من المستشفى ليقضي ليلته الأولى ممدّداً على جانب الطريق، إذ لم يتمكن من الاستغاثة بأحد المعارف أو الأصدقاء وقد بدا محبطاً ضائع الحيلة، لا هاتف معه كالعادة، ولم يكن قادراً على استكمال السير، كما رفض أغلب السائقين أن يسمحوا له بركوب سياراتهم بسبب إصابته المشكوك في طبيعتها، والتي جعلت منه مصدراً محتملاً للخطر عليهم. في اليوم التالي تمكّن من تسوّل مكالمة واحدة من أحد المارّة الذين

تعاطفوا مع حالته المزرية، واستطاع الوصول إلى ناجي، الذي نقله بدوره إلى منزله، ولبث معه لأيام متتالية لا يعرف عددها تحديداً، حتى توقّف النزيف وهدأ الجرح وجفّ، وتليّف الجلد فوقه، وصارت الرصاصة حبيسة في حوضه. اصطحبه ناجي باتجاه البوّابة للمرة الأولى في تاريخهما الشخصي.

توقفت السيارة في الشارع الهادئ فأطفأ يحيى ذاكرته ودفع الأجرة للسائق وهبط منها. عبر ومعه أماني باب المستشفى في تمام السادسة مساءً، موعد مداومة طارق. وجدا ناجي وقد سبقهما إلى هناك كما توقّعا، واتخذ كدأبه موقعاً كاشفاً يُمَكِّنَه من متابعة الداخلين إلى البهو، والخارجين منه دون الحاجة إلى بذل أي مجهود. لاح على صباح الانزعاج لمرآهما، كانت واقفة تتسامر مع زميلاتها أمام مكتب الاستعلامات حين دخلا، فقطعت كلامها على الفور وقد بدا أنها تذكّرت يحيى جيداً، هو أيضاً كان يذكر وجهها المستدير المرسوم بعناية منذ زيارتيه السابقتين إلى المستشفى. حاولت أن تتصرف بشكل طبيعي، تلقي عليه نفس العبارات التي تلوكها أمام الزوار وتطرح الأسئلة التقليدية، وكأنه من زمرة المرضى الذين تقابل العشرات منهم في اليوم الواحد، لكن ملامحها وشت بالارتباك وخرجت كلماتها مهتزّة متذبذبة النغمات، يعوزها الترتيب. سارعت في اتّجاه المكتب: «هاشوفه، بس يمكن أكيد، دكتور طارق يكون مشي، أصله مش بيقعد بالليل».

صباح

رأت صباح يحيى للمرة الأولى مساء اليوم الذي وقعت فيه الأحداث المشينة، تسلّمته محمولاً في غرفة الطوارئ، وغرزت في يده خطًّا وريديًّا لضخ الدماء والمحاليل، ثم تركته لتسعف آخرين، بينما تولّى طارق التعامل مع إصاباته وضبط حالته الصحية العامة. في نفس الليلة، عند الثانية والنصف صباحاً على وجه الدقة بعد إتمام نقل المصابين جميعهم، تلقّت صباح اتصالاً شخصياً من أحد كبار الأطباء النافذين في مستشفى الأجواء، أمرها بالتوجه إلى حجرة الملفات دون نقاش، وإخراج الملف الطبي ليحيى جاد الرب، وقراءته له، ثم تعديل بعض العبارات والأوصاف بما يتلاءم مع ما يراه هو شخصياً أمام عينيه في المريض. كان التعب والإرهاق قد حلّا على الأطباء والممرضات دون استثناء من هول ما رأوا في هذا اليوم، فاستلقى كل منهم على أول ما صادفه، بينما اتجهت البقية التي لن تتناوب الليل إلى المنازل تلتمس بعض الراحة، إذ كان من المنتظر أن تتواصل الأحداث في اليوم التالي.

لم يكن لدى صباح خيارات كثيرة، حسمت الموقف في

لحظات، ليست إلا ممرضة صغيرة في المكان؛ صغيرة السن، وصغيرة القيمة أيضاً، والرجل الذي يخاطبها على الناحية الأخرى كبير جداً؛ في السن، وفي المركز. كبير بما يكفي لأن يفصلها من وظيفتها ومن أي وظيفة أخرى قد تجدها، وكبير بما يكفي لأن يغلق المستشفى بأكمله.

بعد أن هدأ الجو نسبياً، وسيطرت حالة من التراخي على الساهرين وأصابت في الوقت ذاته بعض الأشياء التي كانت تؤمن بها، استطاعت صباح أن تتسلّل لتقوم بتنفيذ الأوامر التي تلقّتها بحذافيرها ودون أخطاء. المرة الثانية التي رأت فيها يحيى، كانت من قبيل المصادفة الحمقاء. قابلته في البهو، مشوّشاً ونصف واعٍ، يسأل عن طارق دون أن يتذكر اسمه، لكنّه لم يمكث معه كثيراً، غادر واختفى تماماً حتى نسيته، وها هو الآن يظهر أمامها كالشبح للمرة الثالثة.

وضع ناجي جريدته جانباً وانضمّ إلى رفيقيه، جلست أماني في الجهة المقابلة للطرقة التي تحوي مكاتب الأطباء، بينما فَضَّلَ يحيى الاستناد بظهره إلى الحائط، محاولاً التقليل من عدد مرات القيام والجلوس لتفادي الألم. اعتاد مع استقراره في الطابور على الوقوف المتواصل، وقد صار في إمكانه أن يستمر على هذا الوضع ليوم كامل دون أن تشكو قدماه أو تكلّ.

لم يكن طارق في حالة أفضل من صباح، ظهر مهرولاً في اتجاههم وبدا هو الآخر متفاجئاً ومرتبكاً، لم يمدّ يده بالسلام إلا حين بادرت أماني ومدّت يدها تعرّفه بنفسها: أماني، زميلة يحيى،

نقلتُه إلى هنا وقت الإصابة. منحها ابتسامة مقتضبة بغير ترحيب وقادهما إلى مكتبه، بينما بقي ناجي بعيداً يشير إليهما بأنه لن يبرح مكانه. طلب طارق من صباح ثلاثة أكواب من الشاي، ثم أغلق الباب بإحكام.

ـ أهلا أستاذ يحيى، أخبار صحتك إيه؟

ـ بخير يا دكتور، الجرح اتحسّن لكن الوجع لسّه موجود، يظهر إن الرصاصة بتتحرك من مكانها.

ـ حضرتك ما عملتش العملية لغاية دلوقت؟ تبقى أكيد أخدت التصريح من البوابة وجيت النهاردة عشان نرتب معاد مناسب، تمام كده؟

ـ الحقيقة يا دكتور، أنا خلصت جزء من الإجراءات، قدمت الطلب والأوراق المطلوبة للمنفذ، وحالياً أنا في انتظار التصريح.

رغم ضيقها من مقابلته الجافة، اشتركت أماني في الحوار بابتسامة عذبة لطيفة، ولهجة حاولت أن تجعلها ودودة قدر الإمكان:

ـ دكتور طارق، بيتهيألي ممكن نبدأ دلوقت تحضيرات العملية، لغاية ما ناخد التصريح.. الإجراءات كلها ماشية في الطريق المعتاد، وكل اللي فاضل عبارة عن روتين. هاكلمك بمنتهى الصراحه يا مدام أماني، أنا عملت كل اللي أقدر عليه، وأستاذ يحيى عارف كده كويس، لكن لا يمكن أبداً أتحرك أي خطوة لها علاقة بالعملية من غير التصريح.

توتّرت ابتسامتها بعض الشيء وتحرّكت في كرسيّها منحنية إلى الأمام، وكأنما سوف تقنع طارق باقترابها منه:

ـ لكن إحنا فهمنا من دكاترة مستشفى الأجـواء، ومن كلام حضرتك ليحيى هنا في المستشفى إن فيه خوف حقيقي عليه، وإنه مع الوقت احتمال الرصاصة تهتك جزء من الأحشاء، ويحصل نزيف ما نقدرش نوقّفه ولا نتصرف فيه، مش ده كله كلام حضرتك؟

ـ يا أستاذة الموضوع ده خرج من إيدي، ولو كنت أقدر أعمل العملية ما كنتش أتأخر أبداً من الأول، لكن القرارات والأوامر والقوانين الجديدة بتقول لازم تصريح، ومستحيل أخالف تعليمات رسمية وصلت لنا من البوابة نفسها. ما انتو عارفين.

اختفت ابتسامة أماني في ثانية واحدة وحلّ محلّها العبوس. علت نبرات صوتها وهي تذكّره بأنه طبيب، وبأن مهمته الأولى هي إنقاذ المرضى، فردّ عليها محتداً بأن إنقاذ المرضى يخضع أيضاً لقواعد محدّدة، وليس مجرّد فوضى وعشوائيّة. تدخّل يحيى قبل أن يتطوّر الأمر إلى معركة. أشار إلى أماني بأن تهدأ قليلاً وتتروّى، ثم توجّه بالكلام إلى طارق:

ـ ما فيش مشكلة خالص يا دكتور طارق، إن شاء الله هارجع لك بالتصريح في اليومين الجايين، عايز أطلب منك بس الأشعة اللي عملتهالي هنا، بيتهيألي هاحتاجها أول ما البوابة تفتح، على الأقل تبقى مستند إضافي يأكد الموضوع ويدعّم موقفي.

احتبس صوت طارق الذي كان منطلقاً في الدفاع عن نفسه منذ

دقائق، بينما كان يسوق إليهما حجّة منطقية على موقفه لا يمكنهما دحضها. ها هي اللحظة التي سبّبت له أرقاً مزمناً قد حانت الآن، دون إعداد أو تخطيط. ظل منكفئاً على المكتب، كأنّما تصلّب ظهره على هذا الوضع وصار عاجزاً عن العودة إلى الوراء. برق في ذهنه للوهلة الأولى أن ينكر إجراء أية أشعّات داخل المستشفى في ذاك اليوم، لكنه تراجع، فقد أخبر يحيى بلسانه عن كل ما رآه فيها، صحيح أن الملحوظات التي وضعها قد اختفت، وأن فني الأشعّة لم يعد يملك أي دليل على إجرائها بعد أن سحبوا منه الأفلام، وصحيح أيضاً أن الطبيب المختصّ لم يحظ بفرصة كي يكتب عنها تقريراً مستقلّاً بسبب الازدحام وحالة الفوضى التي عمّت وقتها، لكنه هو شخصياً يعلم أنها أُجريت، وأنها كانت هنا في ملف يحيى، وأن من حقّه الحصول عليها.

لم يكن في إمكانه ـ حتى لو أراد ـ أن يكذب بصورة فاضحة وأن ينفي ما سبق وأقرَّ به. ربما يكون ضعيفاً أو جباناً، لكنه لم يعتد أن يكون كاذباً. فشل طيلة حياته في التعامل مع المشكلات بمثل هذه الطريقة، رغم أنه رأى زملاءه يفعلون أغلب الوقت؛ يبتكرون كذبة هنا وأخرى هناك ويدفعون بأعذار مُختَلَقَة، ويعرضون معاونته على أن يفعل مثلهم ليتخطّى بعض المواقف الحرجة، ويتنصّل من المسئولية، لكنه لم يستطع أبداً.

فكر أن يصارحهما وليكن ما يكون. طرقتان على الباب قطعتا اضطراب أفكاره، دخلت صباح تحمل أكواب الشاي، فوجد نفسه يأمرها قبل أن تخرج من الغرفة، بأن تُحضِر الأشعة الخاصة

بالأستاذ يحيى من رئيسة التمريض. لم تكن تلك سوى مناورة ساذجة خطرت إلى باله دون ترتيب، رئيسة التمريض غائبة في إجازة طويلة، وغيابها يتيح فرصة معقولة لتأجيل الموضوع برمّته، المزيد من الوقت حتى يدبر نفسه، ويعيد ترتيب الأمور في ذهنه برويّة بعيداً عن الضغوط. إلحاح أماني يستثير الأعصاب، وأغلب الظن أنهما سيعاودان المجيء. يعلم في قرارة نفسه أهمية الأشعة بالنسبة ليحيى على المستويات كافّة، وهو لا يرغب في التخلّص منه بقدر ما يتطلّع إلى إيحاد حلّ لا يتسبّب في إيذاء أي طرف. ترى ما الذي يجب أن يصرّح به الآن على وجه التحديد، وما الذي يُفترَضُ أن يحذفه من على لسانه، ويخفيه دون أن يضطرّ إلى اصطناع كذبة مباشرة؟

سار الأمر سلساً إلى حد ما، عادت صباح وأعلنت عدم وجود رئيسة التمريض لخروجها في مأمورية. توتّرت أماني أكثر وزمّت شفتيها، بينما ظل وجه يحيى هادئاً وإن شابه قدر من الإحباط، أما طارق فقد بذل من جانبه جهداً كبيراً كي يأتي أداؤه مقنعًا بما يكفي فيظهر متفاجئاً مثلهما؛ أطلق صيحة معبّرة عن الأسف، ورسم على وجهه علامات توحي بخيبة الأمل، مع ذلك لم يدر إن كان قد نجح في محاولته تلك أم فشل كما هي العادة، الأكيد أنه شعر بعد قليل بالأسف الحقيقي.

ربما هي الكآبة التي حلت في الجوّ دون إرادة منهم أو هو التوتّر الذي هدّد باشتعال الحوار بينه وبين أماني مرّة أخرى، ربما هذا أو ذاك، لا يهمّ، فقد دفعه الموقف الذي انتهوا إليه، إلى إعادة التفكير

حتى اهتدى إلى مخرج رآه مثالياً. تذكر أن هناك صوراً من الأشعة والتحاليل يتم إرسالها تلقائياً مع أي مريض إلى مكان استكمال علاجه، إذا كان سوف ينتقل إلى أحد المستشفيات الميري، صحيح أن الحصول عليها من هناك أمر عسير، لكنه جدير بالمحاولة. طرقع أصابعه قائلاً إنه لا داعي لانتظار رئيسة التمريض، من الأفضل لهم أن يسرعوا، فسوف يجدون نسخة أصلية من الأشعة في مستشفى الأجواء، وعلى أسوأ الافتراضات، سوف تكون محفوظة في مكتب الملفّات الطبّية الخاصّة، الذي يسمع أنه موجود في القبو.

نفض يحيى أمارات اللامبالاة التي كانت تكسو ملامحه، ولاح عليه بعض الاهتمام. حدّق في طارق لبرهة: «القبو؟» أمال رأسه إلى الوراء، وأغمض عينيه. مرّ برأسه شريط زيارته الأولى إلى البوابة بصحبة ناجي، تلك الزيارة التي لم تتمّ بسبب جهلهما بترتيب الإجراءات، فقد كان عليه في ذاك الحين أن يتوجّه أولاً إلى المنفذ القريب، حيث يقوم بتسليم أوراقه هناك، والتأكّد من الموظّف أنها كاملة وسليمة، وتسلّم الإيصال المختوم، ثم العودة لحجز مكان في الطابور، وقد ترك ناجي وسار يتلمّس طريقه تبعاً للوصف حتى وصل، ووقف أمام شبّاك صغير مرتفع في بناية من بضعة طوابق لا تبدو مأهولة بالسكان. كانت هناك لافتة وحيدة صغيرة كتب عليها بخط مدبَّب «المنفذ»، وفي أقصى يسار اللوحة توقيع الخطّاط اللافت بغرابته: «عِبس».

اضطرّ أن يقف على أطراف أصابع قدميه رغم الصعوبة البالغة، حتى أحسّ بجنبه يتمزق إذ كان جرحه لا يزال طرياً، مدّ يده بالأوراق

من خلال القضبان الحديدية، وسأل الموظف إن كان سيحتفظ بها إلى أن تفتح البوابة. انقلبت ملامح الموظف بمجرّد أن تلفّظ بجملته، وسحب الأوارق في عنف، وطالعها في اهتمام ثم طالع وجه يحيى متمعّناً فيه دون أن يردّ. أعاد يحيى السؤال، فأشفق عليه رجل مسن وقف يملأ نموذجاً طويلاً غير واضح المعالم، وتطوّع ليهمس في أذنه متلفّتاً حولهما في حذر، بأن هذا المنفذ الذي يقفان أمامه، مرتبط بالبوابة من خلال نفق داخلي طويل، يمتد إلى القبو.

همّ يحيى لينهض من مقعده وسارعت أماني لمساعدته، بينما وقف طارق يتابعهما بفضول كما لو أنه يعيد تقييمه الطبي للحالة. كانت أكواب الشاي كاملة في أماكنها، شكراه على الوقت الذي منحه لهما، بينما طلبت منه أماني أن يخطرهما في جميع الأحوال فور حضور رئيسة التمريض، وأضافت أيضاً أنها ستعاود الاتّصال به إذا ما تغيّرت الظروف.

وجدا ناجي مسترخياً في المقعد مغمض العينين هزّت كتفه برفق ففتحهما دفعة واحدة ثم أغلقهما ثانية وقام متكاسلاً. وصلوا بعد عدة دقائق إلى موقف ميكروباص خاو. قطع ناجي الصمت مقترحاً على يحيى أن يبيت معه ليستريح قليلاً من عناء اليوم، فوافق على الفور، ممنّياً نفسه بليلة هادئة يتمكّن فيها من استعراض الاحتمالات التي صارت مطروحة أمامه. لم تسمعهما تقريباً، كان عقلها يعمل في اتجاه واحد، رفعت صوتها قائلة إنها سوف تذهب إلى مستشفى الأجواء، كي تتقدّم بطلب للحصول على الأشعّة. عارض يحيى على الفور، رافضاً بشدّة أن تذهب بمفردها إلى ذلك

المكان وقد صدمه الاقتراح حتى أنه رفض المناقشة من بابها. لم تكن تجربته مشجّعة بأي حال، وأماني ذاتها تعرف ما مرّ به هناك، لكن ناجي أيّد كلامها، ورجاه أن يتأنّى ويترك انفعالاته وعواطفه جانباً ليعقل الأمر، ففرصتها في عدم لفت الأنظار أكبر بكثير من فرصته هو، لأسباب يعلمها ثلاثتهم جيداً، وهي كذلك أكبر من فرصة يحيى بإصابته الواضحة التي يستحيل إخفاؤها.

* * *

عاد يحيى إلى البوابة في اليوم التالي مباشرة، فوجد مكانه مشغولاً جاء وافد جديد، وألحّ على إيناس أن تسمح له بالوقوف خلفها نظراً لظروفه الخاصة، كان شديد اللهفه على الانتهاء من مقصده، والإياب بأقصى سرعة إلى بلدته. قال لها في ثقة وورع وهو ينظر نحو السماء، إن المكان لو لم يكن من نصيبه، ما كبده الله مشقة السير من نهاية الطابور وصولاً إليها. لم تكن إيناس منزعجة من وجود يحيى وراءها في الأيام السابقة، لكنها كذلك لم تكن ممتنّة، في الحقيقة لم يكن أمره يعنيها كثيراً، لم يشترك مع أي شخص ـ عدا صاحبه ـ في أي شيء؛ لا نشاط ولا مجاملة ولا شجار، ولم يخاطبها ولو مرة واحدة، حتى أنه لم يُعلِمها بذهابه أو توقيت عودته، تردّدت قليلاً بدافع من ضميرها فقط، إذ لم تستسغ التفريط في المكان بمثل هذه السهولة، لكنها لم تلبث بعد قليل من التفكير أن لوّحت بيدها وهزّت كتفيها دون اكتراث. احتلّ شلبي مكان يحيى بناء على موافقتها الضمنية، وحرص على أن يطبع بصمة قدميه على الأرض، ثم وقف منتشياً بمهارته في الاقتناص،

وألقى نظرة مزهوة على الأفق المكتظّ بالناس من ورائه. كان الطابور يتمدد أكثر وأكثر كل يوم، واتّسعت المساحة التي يشغلها قاطنوه، وقد لوحظ أن بعض الواقفين، وهم قلة، يرحلون بغير رجوع، لكن أفواجاً جديدة كانت تأتي لتَحِلَّ محلّهم، وتصل بالطابور لمناطق جغرافية أبعد، حتى لقد سرت شائعة، تبيّن فيما بعد أنها غير صحيحة، بأنه عبر الحدود إلى محافظة مجاورة.

لم يعتب يحيى على إيناس مطلقاً فقد كان البادئ وهو الذي بادر بموقفه النافر منها، لم يستشعر كذلك أي فائدة تُرجى من مخاطبة شلبي، الذي وقف متنمّراً وسَدَّ المكان كعامود من الخرسانة. لم يكن الحظ حليفه منذ بداية الأمر كله. استدار مطأطئ الرأس، وحشر جسده ببطء في إحدى سيارات الخط العلوي للميكروباص الذي لم يركبه من قبل، وجدها فرصة للتجربة. أفهمه ناجي ذات مرة، أن هذا الخط العلوي ليس سوى واحد من الخطوط التي تم استحداثها في الفترة الأخيرة، وقد توافق الناس ضمنيّاً على أن يسير فوق الرصيف، لانشغال نهر الطريق بالواقفين. وصل بعد ثلث ساعة تقريباً إلى نهاية الطابور، واتخذ مكاناً جديداً في المؤخرة ثم ترك نفسه لنوبة طويلة من الشرود، أرسل مداد بصره إلى البوابة، فرآها تبدو من بعيد كجدار مُصمَت، تساءل قانطاً إن كان سينفتح أبداً.

بوابة العلل

ردت أماني على التليفون، وقد عادت إليه الشبكة بكامل قوتها بعد فترة الانقطاع. خرج صوتها مُتَمَوِّجًا مخنوقًا، حتى ظنّها ناجي مريضة، ثم فهم من بين كلماتها المتقطعة أنها على الطريق، متوجهة إلى المنطقة الثالثة القديمة، لمواساة أم مبروك في موت ابنتها الكبرى. توقّف قلبها بعد أن عجزت عن تغيير صماميه التالفين على مدار السنوات الماضية. فهم أن الوقت ليس مناسباً، فأغلق التليفون سريعاً على أن تعود للاتصال به بعد انقضاء العزاء. شهقت أماني وازداد بكاؤها وهي تقترب من المكان، وتتخيّل وفاة يحيى، وخروج الجنازة والمشيعين من طابور البوابة، ثم دفنه، دون استخراج الرصاصة، في مقبرة جماعية خاصّة بقتلى الأحداث المشينة.

وصلت إلى الحوش بعينين متورّمتين حمراوين ووجه شاحب ممصوص، بينما قبعت أم مبروك على باب المنزل، بقدمين حافيتين ومنديل أسود معقوص خلف رأسها، ومن حولها الجارات تؤدّين طقوس الحداد الواجبة. قامت تتسنّد عليهن حين رأتها قادمة من

بعيد ثم اندفعت نحوها؛ تبادلتا حُضناً طويلاً، ونهنهت أم مبروك تُشهْدِ الموجودات والموجودين على الظلم الذي يحيق بها من كل الجهات، ثم بدأت تطيّب خاطر أماني التي استبدّت بها الوحشة والخيالات المخيفة، فاستأنفت البكاء بحدّة أكبر. شكرتها أم مبروك على تكبّد مشقّة الحضور، وأردفت ممتنّة وقد ظنّتها أرهف من احتمال الموقف: «معلش يا ست أماني، ما تعمليش في نفسك كده، صحيح كانت بتعزّك مَعَزَّة كبيرة والنبي.. مشيئة ربنا وأدينا كلنا رايحين». مكثت أماني هناك حتى انفض العزاء، وعادت الجارات كلٌّ إلى بيتها، لم تجد في داخلها ميلاً للرحيل، وكأنها قد التصقت بالمقعد، لكنها اضطرّت لإلقاء التحية، وبعض كلمات المواساة حين صعدت أم مبروك السلم، ووراءها زوجها الذي ظهر في الساعة الأخيرة، داعياً إياها إلى قضاء الليلة معهم.

* * *

كان على أم مبروك أن تستثمر وفاة ابنتها علّها تفلح في إنقاذ الثانية قبل أن تلحق بها، فاستخرجت شهادة الوفاة وجمعت التقارير القديمة المتآكلة التي احتفظت بها منذ كانت البنت طفلة، ودارت على معارفها تطلب العون. لم تترك أحداً إلا وحكت له مأساتها والمأساة التالية التي تنتظرها، حتى بواب العمارة التي تسكنها أماني، صار على علم بأحوالها، فأخذ يطلب لها المساعدة من السكان والجيران. ورغم كل ذلك لم تدبّر المبلغ الكافي لإجراء العملية. طرقت باب مدير المستشفى أكثر من مرّة، ولما فشلت في العثور عليه ومقابلته، انتظرته بجانب العربة التي تقلّه في الذهاب

والإياب. حالما ظَهَر ذات مرة، انحنت تُقَبِّل يده، وتستعطفه أن يؤشّر بالموافقة على إعفائها من نصف التكاليف فقط، لكنه أشاح بيده متعففاً، وأرشدها إلى بوابة العِلَل، التي تختصّ بنظر مثل هذه الأمور.

استعادت أم مبروك ما تعرفه عن بوابة العلل التي شهدت بناءها منذ سنوات بعيدة. كانت لاتزال حينها طفلة، تصطحبها أمها معها إلى البيوت، وتجري بها حين تمرض إلى المستوصف القريب. تذكرت أم مبروك كيف حذر الطبيب أمها في أحد الأيام من تجاهل احتقان لوزتيها المزمن، فقررت أن تسلّمها له كي يزيلهما ويخلّصها من قرفهما. أشار عليها الطبيب في ذلك الوقت بأن تتوجه إلى المبنى الجديد الذي صار المستوصف تابعاً له وتسجّل اسمها هناك، فحملتها على ظهرها وذهبت. كان المكان نظيفاً مرتّباً، لم تكن أقدام كثيرة قد وطأته بعد، سجّلت الاسم، لكن دورها لم يأت أبداً. تنازل الطبيب عن جزء من أجره واستدانت هي الباقي ونزعت لها لوزتيها وانتهى الأمر ولم تدخل المكان مرة أخرى.

أُنشئت بوابة العلل منذ زمن ممتدّ، ربما قبل ظهور بوابة المبنى الشمالي بعقود. لا توجد بينهما أوجه مقارنة كثيرة؛ لا تتصرّف بوابة العلل سوى فيما يتعلق بصحة الناس وعلاجهم وما يشغلهم من أمراض، ولا تتعامل تقريباً إلا في حدود تلقي الشكاوى من المواطنين وتوزيعها على المشكو في حقّهم، ثم جمع الردود، وفي بعض الأحيان إيصالها إلى الشاكين، لكن لم يحدث من قبل أن جارت بوابة العلل على أي شخص، كانت تعطي الفرصة كاملة

لجميع الأطراف، سنة واثنتين وأحياناً أكثر، في غرفها القديمة المتهالكة أوراق لم يتمّ الانتهاء منها منذ عشرات السنين، بعضها يتابعه ورثة الشاكين وبعضها مازال محفوظاً باعتباره أمانة لا يجوز التخلص منها حتى وإن لم يسأل عنها أحد.

لم تكذب أم مبروك خبراً، سألت واستفهمت، وتأكدت أن بوابة العلل لاتزال قائمة في مكانها الذي تعرفه، ثم توجّهت إليها كما أرشدها مدير المستشفى. داخل أحد مكاتب الدور الأرضي ببوابة العِلَل، اطّلع الموظّف المسئول على الأوراق في لمحة سريعة، ثم مطّ شفتيه قائلاً إنها لن تنال التأشيرة لعلاج ابنتها الثانية إلا إذا غيّرت صياغة الطلب، وكذلك النصّ المكتوب في شهادة وفاة ابنتها الأولى، فتحت حافظة النقود لتريه أنها لا تملك من الدنيا سوى جنيهات قليلة، وأنها هي الأخرى مريضة تدبّر القوت بالكاد.

أتبعت توسّلاتها بالدعاء له بالستر وبصون أولاده وأهله من كل شرّ، وتعمّدت أن تبرز الخمسين جنيهاً التي تحملها عَلَّه يرضى بها، لكنه مط شفتيه ثانية، وأخبرها أن سبب الوفاة المكتوب في الطلب «غير لائق»؛ فالبنت ماتت لأن عمرها انتهى، ولو فعلت لها الأعاجيب ما استطاعت أن تغيّر المكتوب ولا أن تطيل حياتها ولو للحظة واحدة: «انتِ مش مؤمنة بالله يا حاجة وللا إيه؟»، لم تعارضه فاستطرد أنه لا داعي لأن تلقي باللوم على أحد، سألته النصيحة فلانت ملامحه، ودعاها للاستراحة على المقعد الخشبي المكسور أمام مكتبه، ومال على أذنها هامساً بأن حصولها على التأشيرة مرهون بكتابة طلب جديد، تثني فيه على الرعاية

التي تلقتها ابنتها المرحومة قبل نفاد أَجَلها، ثم الذهاب إلى بوابة المبنى الشمالي راجية تغيير سبب الوفاة بما يناسب الوضع الجديد الذي أفهمه لها، وأخيراً سحب الشكوى الأولى، التي أرفقت بها مستندات غير دقيقة تفيد تدهور حالة البنت، وحذفها من قوائم الانتظار، بسبب امتناعها عن دفع مقدَّم الجراحة.

أعطاها صيغة الطلب المُعَدَّة سلفاً، فنقشت اسمها أسفل الورقة دون حاجة إلى البصم، وأعادتها له ليحفظها في الملف، طمأنها بشأن شهادة الوفاة، وقال إن البوابة سوف تعطيها الشهادة الجديدة في اليوم ذاته، دون الحاجة إلى فحص وتدقيق. أسقطت الورقة النقدية الوحيدة في محفظتها على المكتب، مصطنعة الارتباك والعجلة، ثم مشت ناحية الباب دون أن تسمع صوته مرة أخرى.

* * *

تلقى يحيى أخباراً لا أول لها ولا آخر من مكانه الجديد، الذي لم يعد في المؤخرة كما كان، فقد انضم عشرات الأشخاص الجدد وراءه. أعلن إيهاب أن استطلاعاً هاماً للرأي قد أُجرِيَ عن طريق مركز الحرية والصلاح تحت رعاية البوابة، التي أرسلت عدداً من مندوبيها إليه، وأن هؤلاء كانوا يطرقون البيوت فجراً في مواعيد الصلاة، ويسألون أصحابها عن رأيهم في أسلوب إدارة البلاد، وفي الأحداث الأخيرة التي شهدتها، وأن النتائج قد ظهرت أخيراً وجاءت مطابقة لاستطلاع الرأي السابق، الذي أيّد فيه المواطنون الأساليب والقوانين والأحكام كلها، وأبدَوا توافقاً أصيلاً ومسؤولاً

مع القرارات العادلة التي تم إصدارها مؤخراً، وعلى هذا قرر القائمون على الاستطلاع عدم إجرائه مرة أخرى، والاكتفاء بإعلان النتائج السابقة في موعد سنوي ثابت.

وصل أيضاً منشور من شركة المحمول البنفسجية، أعلنت فيه عن هديّة كبرى للمواطنين، تُقَدَّر بألوف من الخطوط المجانية، ورصيد مفتوح ومدفوع القيمة لمدة عام كامل. ذكر المنشور أن الشركة سوف تجري سحباً كل أسبوعين لاختيار عشرة فائزين بهذه الخطوط، ثم ترسل إليهم على عناوينهم لاستلامها، ومعها أجهزة اتصال مجّانية مزوّدة بأحدث القدرات والخدمات، دون قيد أو شرط، وقد لاقى هذا الخبر على وجه الخصوص استحساناً من الواقفين جميعهم، إذ اعتبروه اعتذاراً عملياً مناسباً عن الأعطال الغريبة التي أصابت الشبكة في الفترة الماضية. انتشرت أيضاً بعض الشائعات التي لم يتأكّد أحد منها؛ فقد قيل إن الميكروباص بخطوطه العادية والعلوية سوف يمتنع عن نقل الركاب لعدة أيام، تغلَقُ خلالها المحطات، وذلك توفيراً للوقود الذي يستهلكه.

بعض العارفين فسّروا الأمرَ بأن هناك احتياجاً لكميات مضاعفة من السولار من أجل تنظيف الساحة، والشوارع المحيطة بها، من البقع والآثار التي خلّفتها الأحداث المشينة، كما قيل أيضاً إن جزءًا من الوقود سوف يُحَوَّلُ إلى مَصَبَّات الصرف الصحّي والبالوعات، في إطار خطة قومية شاملة، تهدف إلى القضاء على الحشرات التي انتشرت في البلد بكثافة، والتي تبيّن أنها تتوالد بشكل أساسي في

منطقة الطابور بسبب الازدحام وقلّة النظافة. سخر أغلب الناس من الشائعة الأخيرة، بيد أن التناقص الملحوظ في أعداد سيارات الميكروباص، جعل بعضهم يميل إلى تصديقها، لكنه وللحقّ، لم يحدث في أي وقت من الأوقات أن انقطع توافد الميكروباصات انقطاعاً كاملاً.

لم تتوقّف كذلك الأنباء المتواترة حول موعد فتح البوابة، وهي الأنباء التي حملت أكبر قدر من الفوضى والتضارب؛ تناقل الناس في مؤخرة الطابور خبراً يفيد أن البوابة قد انفتحت بالفعل، وقال الرابضون في المنتصف أن أمامها أسبوعاً على الأكثر، بينما سرت شائعة أخرى قوية لم يُعرَفُ مصدرها، بأن الناس الواقفين في مقدمة الطابور قد سمعوا أصواتاً تأتي من خلف البوابة؛ نداءات تقابلها ردود، وحفيف أوراق، واصطكاك أكواب وملاعق، وقد ادّعى المقيمون هناك، حين دارت الشائعة ووصلت إليهم، أنهم شاهدوا بالفعل خيالات لرجال ونساء تروح وتجيء، لكن البوابة لم تنفتح أبداً، ولم يظهر منها أي شخص.

وصلت أم مبروك إلى الطابور، وفي يدها جوال قماش كبير، يحوي ملاءة مهترئة، وحصيرة بلاستيكية صغيرة، ورغيفاً داخله بيضة بقشرتها الخارجية، وكذلك مجموعة من الأوراق التي تركها لها موظف المنفذ، دون أن يخبرها ماذا تفعل بها. شرعت للتو في إعداد المكان كي يصبح ملائماً للإقامة، إذ أدركت بحدسها القوي أنها قد تقضي فيه وقتاً يطول لأجل غير معلوم. أسرع ناجي للحاق بيحيى في الموقع الذي استقر به نهائياً، بعد أن قدم أوراقه إلى مكتب ترجمة ظل ينشر إعلاناً صغيراً مؤطراً في جريدة الحق

لأسابيع متتالية. لم يطلب الإعلان مهارات محددة، بل دعا جميع خريجي الكليات النظرية إلى التقدم دون اشتراط إجادة لغة.

استوقف العسكري الجديد الميكروباص العلوي، الذي ركبه متجهاً إلى الطابور، وأخبر السائق أن الدوران عند هذه الناصية أصبح ممنوعاً وأجبره على التراجع، فنزل ناجي واضطر إلى استكمال المسافة الباقية سائراً على قدميه. فهم من إيهاب حال وصوله أن طريق الطابور وكذلك الرصيف صارا بالفعل مغلقين أمام حركة السيارات في الاتجاهات جميعها، وأن قراراً بهذا الشأن صدر عن البوابة وأذيع في إحدى رسائلها التي توالت في الفترة الأخيرة بشكل مُربِك. أضاف إيهاب متحاشياً أن يسمعه آخرون، أن النيّة تتّجه إلى تعميم القرار على المارة أيضاً، بحيث تصبح حركة المشي باتجاه البوابة فقط دون عودة، وأنه بمجرد بدء استقبال البوابة للواقفين، فسوف يقتصر الخروج منها على الجهة المقابلة، التي لا يمكن رؤيتها من موقعهما ولا من جهة الطابور بأكملها، بحيث لا يضطرّ أحد المواطنين ممن سيتمكّنون من إنهاء أوراقهم والعودة بها، إلى السير في الاتجاه العكسي ومخالفة التعليمات.

تقدّمت أم مبروك في الطابور إلى موقع أمامي، بفعل الخدمات العديدة التي أسدتها إلى الواقفين، قامت بأعمال تنظيف، وملاعبة أطفال، وشراء مأكولات رخيصة، وفي أحيان متفرقة غسلت ملابس بعض المقيمين. استقرّت أخيراً بالقرب من إيناس بعد أن سرّها المكان، واندمجت دون مشاكل مع أغلب الموجودين فيه، وقد راحت تمارس أنشطتها المعتادة، وإن أصبحت أكثر اهتماماً

بالشائعات والأخبار المتناثرة التي كانت تصلها بين الحين والآخر. قالت ذات مرة إن الحشرات التي يتحدثون عنها والتي انتشرت هنا بينهم ما هي إلا «نِفْس» بكسر النون وتسكين الفاء، ولا علاقة لها بالنظافة. سألتها إيناس عما تقصده، فأوضحت لها أن هناك عيناً حسودة لا تريد الخير لهؤلاء المتجمعين أمام البوابة، وأنه لابد من درء شرّها، إذ كلما ازداد الناس وبدا عددهم كبيراً يسدّ عين الشمس، وكلما بدَوا قادرين على العيش وتسوية أمورهم دون مساعدة من أحد، كلما كان هذا دافعاً لأن يخاف منهم الآخرون وأن يحسدوهم ويدبّروا لهم المكائد. لا يرغبون بالطبع في رؤيتهم يداً واحدة أو جماعة مترابطة، قالت أم مبروك أيضاً إن مثل هذه الأمور تحدث كثيراً في الحارة التي تسكنها، ويكون لزاماً على الساكنين أن يعكسوا الحسد من حين لآخر لم تنطق إيناس، فأكد شلبي، الذي ظل محتفظاً بخيلائه منذ جاء، على رأيها في ثقة كبيرة.

شلبي

لم يكد شلبي يتسلل رويداً إلى أحاديثهم ويدلي ببعض التعليقات المقبولة دون أن تصدّه إحداهما، حتى التقط الخيط وأبى أن يتركه، وكأنما كان يتحيّن الفرصة ليقتحم إحدى الروابط المتينة التي انعقدت بين قدامى قاطني الطابور، والتي صار اختراقها عسيراً على الوافدين الجدد، فراحوا ينشئون بدورهم روابط جديدة متآلفة، لم يتمكّن شلبي من الالتحاق بإحداها رغم المحاولة.

وجد في أم مبروك وإيناس بدايةً جيدّة ليدشّن وجوده، ويطلق سراح لسانه الذي التصق بحلقه من طول السكات. قال إن أمه اعتادت استخدام بعض الأبخرة التي تطرد الحسد، وأنه هو شخصياً يفضل قراءة المعوَّذتين اللتين حفظهما في الخامسة من عمره، وقت أن لقّنه أبوه، هو وابن عمه محفوظ، بعض الأشياء الضرورية في الحياة. استدرك في حماسة، أنه لا حاجة شخصية له من البوابة، وأن محفوظ (رحمه الله) هو السبب في مجيئه من بلدته الريفية مرة أخرى، رغم القسم الذي قطعه على نفسه بألا يفعلها ثانية، فقد أنهى

الخدمة الإجبارية منذ شهور، وعاد إلى البلدة ليتزوج وينجب في دار أبيه، ويباشر مشاكل الأرض التي تصاعدت في غيابه.

كان محفوظ في مثل عمره تقريباً، تربّيَا وكبرا سوياً، وأصيبا بالحصبة معاً، وتركا المدرسة الابتدائية في نفس العام، ثم عملا في جمع المحاصيل حتى انقرضت الأراضي المزروعة من البلدة وتنازع المالك مع عائلتهما على الفدادين القليلة التي يستأجرونها ويتعيشون منها، فانتقلا إلى ورديات مخبز الفينو ثم إلى تركيب وصلات الدش، وأخيراً شبَّا والتحقا معاً بالخدمة، لكن شلبي اختير ليلازم عائلة قائد القطاع الأوسط؛ زوجته والأبناء، فانعتق من المهام الأخرى الثقيلة، وصار فرداً مختاراً من أفراد «الحرس الأمني الخادم»، أما محفوظ فكان من نصيبه الخدمة في الوحدة التي يطلقون عليها وحدة «الحرس الأمني القابض». كان عليه أن يحمي البلد ويصونها من الكفرة الشراميط الأنجاس، الذين يطمعون في كل شيء ويأكلون المال الحرام ويخطّطون للخراب.

لم يتخلّف محفوظ يوماً عن أي تكليف، كان جسده الضخم حافزاً يلهم القادة لتسكينه في المقدمة، وقد وقف في كل المعارك كما السد المنيع، ولم يستطع أحد خلال أي اشتباك أن يخترق حائطاً كان جسد محفوظ مرصوصًا فيه، هكذا حكى زملاؤه، لكنهم ذكروا أيضا أنه كان طيّباً ومطيعاً، لا يتشاجر أبداً، ولا يتذمّر من أي شيء، يسبّح بحمد القائد ليل نهار ولا ينطق لسانُه إلا بالموافقة. ينظّف العربات، ويطهو الطعام في المعسكر، ويصلح الكهرباء التي تمرّس في البلدة على معرفة أعطابها ومعالجتها. يتقدم حين يصدر

الأمر، ويضرب فور سماع الإشارة، ولا يلتفت لأية شائعات. فرد أمن نموذجي يمكن الاعتماد عليه دون خوف.

واصل شلبي تباهيه بابن عمه سارداً مزاياه وبطولاته، دون أن يبالي بالتعبيرات المتحفزة التي ارتسمت على وجه إيناس، ولا بقسمات أم مبروك التي تأرجحت بين خليط من الإعجاب والحسد من ناحية، والشك في صدق المواقف والأفعال التي يرويها من ناحية أخرى. اعتلت عينيه أخيراً مسحة من الحزن، ونظر إلى الأرض قائلاً: لكن محفوظ مات. هوى ذات يوم بعصاه فوق رأس واحد من الكفرة الشراميط الأنجاس فأسقطه أرضاً، لكن الكافر حاول القيام من سقطته وركبه العناد، فأطلق عليه محفوظ النار من سلاحه. خرجت روحه على الفور، وسالت دماؤه وصبغت أرض الساحة. طارده أصحاب القتيل لمسافة طويلة دون أن ينجده أحد الزملاء، فقد حَمَت المعركة واشتدّت. حاصروه عند الكوبري، ولما كان عددهم كبيراً جداً وهو وحيد، قفز في الماء خوفاً من أن يمسكوا به، فمات بدوره غرقاً.

لم يظهر اسم محفوظ في كشوف الحرس الصالحين التي أعلنتها البوابة، ويبدو أنه سقط سهواً، أما وقد كان باعتراف رؤسائه وقائده بطلاً، فقد أعلن شلبي لكلتا المرأتين ـ أم مبروك وإيناس ـ في فخر، أنه جاء يطلب تكريم اسمه، وإصدار تصريح بمعاش استثنائي لأهله الذين فطر الحزن قلوبهم، وتعويضهم بشكل مناسب؛ عقد تمليك للأرض التي يهددهم المالك بالطرد منها مثلاً. سكت شلبي

للحظات ثم قال فجأة إن ابن عمه حاز عن جدارة لقب شهيد، وهو اللقب الذي حازه أيضاً الشخص القتيل.

وسط حكاياته الكثيرة، لم يذكر شلبي للمرأتين، لدواعي الستر والحياء، وكذلك لعدم التشويش على الصورة المثالية التي رسمها مزهواً، أن محفوظاً قد أخطأ في بعض المرات، كان آخرها حين ساوم امرأة عليلة لها كبد ممرور، على قضاء الليل معه في المستشفى التي كُلِّفَ بحمايتها أثناء الهرج والمرج. استلمه القائد من مخزن الدواء، بعد أن صرخت المريضة في ذعر، وتجمّع الممرضون والأطباء المناوبون، فوجدوه على حافة فراشها يستعد لخلع ملابسه. أمسكوا به واقتادوه إلى الخارج وهو يقاوم، ويؤكد أنها تريده، وأنها هي التي نادت عليه من نافذة العنبر الخاوي، ولما لم يجدوا فائدة من تهدئته أوثقوه بالحبال، وأبلغوا الوحدة. لم يحك شلبي للمرأتين أيضاً، أن القائد أمر محفوظاً فخلع ملابسه ووقف عارياً كما وُلِد، ثم سَلَّطَ عليه خرطوم المياه وضربه بالحذاء والسوط لمخالفته التعليمات.

كان عليه وفقاً للأوامر التي تلقّاها قبل التحرك نحو المستشفى، أن يقف مثل زملائه فوق علامة رسمها القائد على الأرض، تبعد عن عنبر المريضة بمسافة متوسطة، وقد أفهموه ألا يبارحها لأي سبب وتحت أي ظرف، لكن شوقه للمرأة التي لا يعرفها غلبه، وهو بعد شابّ، ففعل ما فعل. شوهد محفوظ في ذاك اليوم مَحني الرأس، يلامس ذقنه البارز شعر صدره، كان يردّد على قائده في تذلّل: «يا باشا افعل بي ما تشاء أنا عند قدميك بإذن الله من المطيعين». كان

محفوظ محظوظاً، فلم يتطوّر الأمر إلى محاكمة ميري ولم يُستدعَ إلى البوابة. فضلت المرأة أن تحفظ سمعتها من القيل والقال، فتنازلت عن تقديم بلاغ رسمي. ابتسم شلبي وهو يتذكر كيف نجا محفوظ بعد تلك الواقعة بأسبوع واحد من حادث احتراق السيارة الشهير، بينما مات أحد عشر جندياً من زملائه، وكيف خرج من مبنى المعسكر المنهار فوق رؤوس الجميع دون خدش واحد، لكن الحظ خانه في المرة الأخيرة التي وقعت فيها الأحداث، فجرى ما جرى قبل أن يرقد كالحجر في القاع.

تحسرت أم مبروك على الشاب الذي ضاع، وواست شلبي وهي تربّت على كتفه وقد طفرت منها دمعة. اشتمّت بحاستها في ذاك الموقف المأساوي، مناسبة ملائمة كي تسرد هي الأخرى قصة ابنتها وتتلقّى بعض التعاطف، لكن إيناس اختطفت فرصتها واندفعت تعترض بشدة على اعتبار محفوظ بطلًا. وجدت لسانها ينفلت دون تفكير، انطلقت في الكلام منسلخة عن فضائل الصمت والحيطة والاحتراز، شيمها اللصيقة التي طالما ارتبطت بها، وقد بدت كما لو تركتها كلها على باب الفصل، ودلفت إلى حصة اللغة العربية حيث تصول وتجول؛ هو الذي بدأ بالاعتداء فهو إذن الملوم، وقد قَتَل قبل أن يُقتَل، ونال الجزاء العادل وحسب، ومن الخير أن يُعَاقَب مَن حثّه على القتل كذلك، فأرواح الناس لا يجب أن تُزهَقَ باستمرار دون سبب، ويكفي ما ينالهم كل يوم من الغمّ والقرف وقلق الانتظار.

حاولت أم مبروك إسكاتها متوجسة، فلا أحد يأمن حتى لأخيه

في هذه الأيام، فلما لم تفلح، ابتعدت قليلاً مؤثرة السلامة وأخذت تعبث ببعض أغراضها. واصلت إيناس خطبتها لبرهة، ثم توقّفت مندهشة من نفسها، ها هي تتكلم للمرة الأولى في حياتها أمام الناس باستفاضة، وفي غير موضوع الدرس والمنهج الدراسي المقرر على طالباتها، أُعجبَت بينها وبين نفسها بالعبارات التي لفظتها، أخذت تعيد الشريط وتراجعه كلمة كلمة، وتزن المعاني بدقة؛ لم تخطئ في شيء. استفزها شلبي، هذا الجاهل الذي يظن أنه الفاهم الوحيد بينهم، يتكلم كما لو كان قريبه فارساً مغواراً يحارب الأشرار، وليس شخصاً بائساً انتُزِعَ من أرضه ليخدم غصباً في وحدة أمن لا يعرف أحد ما تقوم به. مع ذلك فأم مبروك على حق، لو سمعها أحد أو كان شلبي واصلاً، لانتقل كلامها فوراً إلى المفتش والديوان، ولقاموا بفصلها وليس فقط بإعادة التقييم، وما كفتها في تلك الساعة شهادة الصلاحية التي أتت تبحث عنها.

رغم أن شلبي واجهها مستأسداً، حتى كاد أن يتهوّر ويضربها، إلا أن صدمته كانت بالغة، لدرجة أنه عجز عن استيعاب ما سمعه. لم يهاجم أحد من قبل سيرة محفوظ، البلدة كلها تذكره بفخر، وتحتسبه بطلاً عند الله ثم عند البوابة، حتى أمّه تغيّر اسمها وصارت تُنَادَى في كل مكان بأمّ الشهيد وأحياناً أمّ البطل. يحكي حكاية محفوظ في أي مناسبة، فيجد من يترحّم عليه، ومن يعرض مساعدة أهله، ومن يحزن لحزنه هو شخصياً على ابن عمه، ومن يُثَمِّنه ويمتدح شجاعته وإقدامه وتضحيته، أو حتى من يَسُبّ ويلعن الذين كانوا السبب، لكن هذه المرأة الواقفة أمامه لا تفهم الموضوع على حقيقته، هي جاهلة إلى هذه الدرجة، حتى تساوي بين مجرم

وشريف؟ وحتى لو أخطأ محفوظ في شيء بسيط، فهو لم يهدّد البلد ولا الناس، فدى بحياته أمثالها، وكان شجاعاً ربما أكثر من زملائه كلهم، كان رجلاً حقيقياً، أما هذا الذي قتله ـ ربما دون قصد ـ فلم ير منه أحد إلا التخريب وتخويف الناس وتعطيل مصالحهم. أوقف الحال، وأغلق هو ومن معه الشوارع، ففرّ منها كثيرون كانوا يتحصّلون على أرزاقهم يوماً بعد يوم. أولاد عم وأولاد خال ومعارف، عادوا جميعهم إلى البلدة وصاروا عاطلين عن العمل.

لو كان في مكان محفوظ لفعل مثله وأكثر، ولو كانت هي نفسها تدافع عن البلد بدلاً منه، لفهمت كيف تطيع الأوامر، ولرأت بنفسها أنه إذا صدر الأمر فلا سؤال ولا مناقشة ولا وقت سوى للتنفيذ، وحتى لو كان هناك وقت ما سمح القائد بإضاعته في الأسئلة البلهاء والاستفهامات، ولو سمع مثل كلامها من أحد أفراده لكدره وحبسه. لو كانت هذه المرأة مؤمنة لعرفت أن طاعة القائد من طاعة الرب، وأن المعصية تُحَمِّلُها ما لا يطيق بَشَرٌ تَحَمُّله، وقد توردها مورد التهلكة، لكنها أغلب الظن من الفسدة، لا أخلاق ولا دين، لا ترتدي حتى حجاباً محترماً، فهو يكاد يرى شعرها متدلياً من قطعة القماش الصغيرة التي تضعها على رأسها. نعم، هي حتماً واحدة من هؤلاء الذين حذّرهم القائد من مجرد الحديث معهم، قد تلعب برأسه وتجعله مثلها، وإلا فلماذا تدافع عنهم، وتهين ابن عمه، وتنشرح لاستشهاده، هي حتى لا تدعوه شهيداً ولا ترى له قيمة ولا ديّة. من المحتمل أيضاً أنها اشتركت في الأحداث المشينة، فقد سمع أن بين المخربين نساءً.

خدعة المحمول

اكتشف ناجي أن لدى إيهاب معرفة واسعة بخبايا الأمور بحكم عمله وصلاته بمختلف الناس، في حين تفاجأ إيهاب بأن لناجي باعاً طويلاً في المناوشات والمشاكسات منذ كان طالباً في الجامعة، وحتى بعد التخرج والتعيين. هكذا امتد بينهما حوار طويل سردا فيه بعضاً من تاريخهما المعروف وغير المعروف، وتبادلا الأفكار والآراء بشأن ما يدور في المنطقة، ثم ناقشا التدابير التي توقعا أن تتخذها البوابة خلال الفترات القادمة، متفقين على أنها سوف تفتح لا محالة، وأنها كذلك سوف تزداد تعسفاً ولن تزول في القريب، رغم هذا. ظل إيهاب محتفظاً بتفاؤله، بينما عكس ناجي ذلك الإحساس الطاغي باللاجدوى الذي صار يحمله معه أينما ذهب، وقد ذكر وسط ما ذكر الأزمة التي يمر بها يحيى، باح ببعض التفاصيل دون أن يذكر اسمه، وتجنب أن يمرّر أية معلومة قد تشي بوجوده الدائم في الطابور.

تصرّف إيهاب كما لو كان قد استنتج الأمر وحده، فأخذ يتابع يحيى ويطمئنّ عليه من وقت لآخر، ومع أنه قد دفعه بسلوكه هذا إلى

التشكّك فيه ومحاولة التملص منه كلما اقترب، لكنه في الوقت ذاته جعل ناجي يفصح له عن بقية التفاصيل، معتقداً أنهما قد يحتاجان إلى مساعدته بشكل ما. منذ اللحظة التي وقف فيها على الأمر كاملاً، لم يترك إيهاب ناجي، صار همّه الوحيد أن يعرف موعد ذهاب أماني إلى مستشفى الأجواء؛ يدرك جيداً مدى صعوبة مهمتها، ويشتمّ فيها رائحة قصّة صحفية تستحقّ المجازفة؛ الحصول على أي مستند من هذا المكان هو أشبه بمحاولة استخراج قطعة لحم من فم أسد جائع، واحتمالات الفشل التي ستواجهها تتضاعف أمام احتمالات النجاح، وفي كل الأحوال قد يعطيها وجوده كصحفي بعض القوة، وبعض الحماية، كما يمكنه أن يتصرف بحنكة أكبر عند اللزوم.

دار بينهما جدل متكافئ، استخدم إيهاب مهاراته الصحفية في الإقناع، ولجأ ناجي إلى ما استوعبه من مراجع الفلسفة التي كان يلتهمها. لم يكن راغباً في فضح الأمر، ولا في إضافة تعقيدات جديدة، كما أنه ليس واثقًا من ردّ فعلها تجاهه. رغم تأكيداته لإيهاب بعدم جدوى ذهابه هو أو أي صحفي آخر وراء أماني، ورغم اعترافه بكفاءتها وإقراره بأنها كفيلة وحدها بانتزاع الأشعة من فمّ أي شخص، لم يكف إيهاب عن الإلحاح حتى نال وعداً بمعرفة ما يستجد من خطوات.

* * *

افترشت أم مبروك الحصيرة وصارت تبيت فوقها أغلب الليالي، وتتلقى زيارات شبه يومية من ولدها مبروك الذي راقه الطابور بما يوفره له من إمكانات واسعة للعب، فبات يخرج من المدرسة ليمرّ

عليها، ثم تطور الأمر فصار يقضي عطلته الأسبوعية هناك، وقد تحسّنت صحّته قليلاً بابتعاده عن جو البيت الرطب، وازداد وزنه وخَفَّت عنه نوبات الكلى الشديدة. حمل إليها ذات يوم رسالة شفهية من أخته الكبرى التي لا تبارح البيت تقريباً، تستحلفها فيها أن تبعث معه بالتقرير الأخير الخاصّ بحالتها الصحية. قال مبروك إنها تحتاجه فوراً كي ترفقه بطلب شغل وظيفة في أحد المنافذ، إذ أخذت المصروفات تشكل عبئاً مضاعفاً، منذ أن تخلت أم مبروك عن الخدمة في البيتين الإضافيين، وقَسَّمَت الوقت بين البوابة والمؤسسة.

أخرجت من الجوال حزمة أوراق غير مرتبة، وحدّقت فيها ورقة تلو الأخرى، لكنها لم تتمكن من استخلاص التقرير المطلوب. فطن إيهاب إلى الحيرة التي وقعت فيها، فعرض المعاونة، وجلس بجانبها القرفصاء، يصنف الأوراق، ويفصل التقارير والشهادات المرضية في جانب، والفحوصات في جانب آخر، تبعاً للتواريخ المطبوعة عليها، حتى انتهى تقريباً، ومد يده إلى الوريقات الأخيرة، وقرأ عنوان أولها، ثم اعتدل فجأة على ركبتيه وانكفأ إلى الأمام، وقد اتّسعت عيناه، وارتعشت الورقة في يده التي طفحت بالعرق. عثر في تلك الورقة الصفراء، التي لا تشبه ما قبلها، على نصّ حوار قصير، بدا له مألوفاً أول الأمر دون أن يدرك أين رآه أو سمعه، ثم لم تلبث الذاكرة أن أسعفته، وطابقته مع مكالمة تليفونية أجراها منذ أيام، قاصداً أحد زملاء الجريدة. «سعيد، الأمور هنا بقت غريبة، الناس بتزيد، والبوابة مقفولة، عندي قصص وحكايات فيها العجب، نتقابل السبت الجاي أكون لحقت أكتبها كلها».

في الركن الأيسر من الورقة، قرأ كلمتين فقط بخط أحمر سميك: «هامّ للمتابعة»، أدار الورقة فطالعته بياناته الشخصية في المنتصف تماماً، مفصلة وواضحة. في الورقات التالية كانت هناك عدة حوارات ومحادثات، لكنها لأشخاص آخرين، وعلى ظهر كل ورقة كُتِبَت بيانات صاحبها.

لاحظت أم مبروك ما طرأ على وجهه فانزعجت، سألته إن كانت التقارير شديدة السوء، وإن كانت البنت الثانية ستموت سريعاً كما ماتت أختها، فلم يجبها. لبث ساكناً واللون الأحمر يكسو رأسه وعنقه، ثم خرج صوته ملبّداً وهو يسألها عن المكان الذي أتت بالورق منه. لم يفهم مما قالته شيئاً؛ مستشفيات لا حصر لها ومعامل تحاليل وأشعات، وأطباء في عيادات ومراكز، وتأمين صحي، أخبرته أن هناك أوراقاً أخرى لكن الموظف أخذها منها في المنفذ، قبل أن تجيء إلى الطابور مباشرة، ثم أقسمت عليه أن يخبرها بالحقيقة وبحالة البنت التي أرعبته هكذا.

ناولها التقرير المطلوب مؤكداً أن الأمر لا علاقة له بالبنت، وأن ثمة أوراقاً قد اصطحبتها معها بطريق الخطأ، وأنه سوف يأخذها كي يعيدها لأصحابها، تشبّثت أم مبروك بالأوراق تتوسّل إليه ألا يكذب عليها. قالت إنها تحمّلت الكثير ولا تريد إلا الصراحة، بينما شرع مبروك في البكاء. لم تتركه إلا حينما أمسك بالتقرير وقرأه وشرح ما فيه وبسّطه لها كي تفهم، ثم أقسم ألا يقول لها إلا الحق، وأنها يجب أن تستكمل مشوارها لإنقاذ البنت بإجراء العملية الجراحية، وأعطاها كذلك مبلغاً من المال. حمل الأوراق الصفراء ويده

لازالت تهتز، ثناها في حرص ثم وضعها في جيبه تاركاً أم مبروك تلاحقه بما تذكّرت من دعوات. اتجه إلى ركن خفي به بقايا هياكل سيارات وجذوع أشجار، اعتاد أن يقصده كلما أراد الكتابة، ثم أخرج الأوراق وراح يقرأها في تؤدة وأناة، متوقفاً عند كل كلمة.

تجمعت لديه ورقتان لشخصين إحداهما الأستاذة إيناس، وثلاث ورقات أخرى لا يعرف أسماء أصحابها، ولا إذا ما كانوا من قاطني الطابور أو غرباء عنه. عاد فأبصر إيناس في مكانها من بعيد، بينما أم مبروك تفترش الحصيرة يجاورها شلبي، وأمامهما صحنا فول وورقة مطبوعة عليها حفنة من المخللات. دعته أم مبروك إلى الطعام وهي تُعَرِّفه على شلبي، فأومأ برأسه شاكراً وتجاوزهما إلى إيناس. قدم نفسه إليها فقالت إنه ليس بحاجة للتقديم، فهو شخص مشهور في المنطقة، تعرفه جيداً وإن كانا لم يتحادثا مِن قبل.

طلب منها أن تسمح له بعشر دقائق فقط للاستفسار عن أمر مهم، بعيداً عن قلب الطابور. ابتعدا قليلاً عن الحصيرة وإن ظلت عيناها على المكان خوفاً من أن يستولى عليه أحد المتطفلين. أخرج إيهاب الورقة، ورجاها الهدوء، ثم سألها أن تقرأ ما فيها، تناولت الورقة في فضول، كان الحوار طويلاً، لكنها أطبقت فمها بعد أن طالعت الجملتين الأوليين، وبدت على وشك البكاء: «أنا آسفه جدا، آسفه والله، ما قصدتش حاجة، دول كلمتين غصب عني....»، قاطعها قائلاً إنه لا معنى للأسف، فهو نفسه مثلها تماماً، عثر على تسجيل لإحدى مكالماته التليفونية في ورقة أخرى، كفت إيناس عن لحن البكاء الذي شرعت فيه، وفتحت فمها تلك المرة دون أن يخرج منه

صوت، ثم لم تلبث أن نطقت في دهشة: «لكن أنا ما اتكلمتش في التليفون النهارده ولا حتى امبارح، أنا كنت باكلم شلبي اللي واقف ورايا،.. يا أستاذ شلبي، ممكن من فضلك دقيقة؟»

لم يفهم شلبي في البداية ما قالاه، اتهمته إيناس بنقل كلامها، ثم تراجعت بعدما استطاع إيهاب أن يشرح الموقف لها. قال في النهاية إن شلبي لم يستمع حتماً لمكالمته التليفونية حتى ينقلها هي الأخرى، أما شلبي نفسه فقد أكد كلام إيناس، وقال إنها لم تستعمل المحمول على الإطلاق، ولم تَغِب عن عينيه منذ تحادثا، وأردف أن شهادته تلك شهادة حق، لا علاقة لها بغلطها فيه وفي ابن عمه الشهيد. تدخلت أم مبروك في الحديث، وأضافت في حميّة وإخلاص، أن إيناس مدرّسة محترمة جداً، وعندها أخلاق وطلبة يتعلمون منها، وأنها لم تقل شيئاً من وراء شلبي.

الأحداث المشينة 2

أغلق حمُّود المقهى بالضَبَّة والمفتاح، وصرخ في محموله، الذي لم يكفّ عن الرنين منذ أن انقطع للمرة الثانية عن موافاة الطابور بالطلبات، بأنه لن يعمل حتى تهدأ الدنيا، وتَنفَضّ الاشتباكات الدائرة من حوله. تسربت الأخبار شيئاً فشيئا وأخذت في الانتشار، عرف الواقفون كلهم في غضون ساعات من مكالمة حَمُّود، أن الأحداث تجددت مرة أخرى واشتعل الوضع، وقد راح سائقو الميكروباص منذ ذلك الحين، ينقلون تباعاً آخر المستجدات التي تقع، والتي تصلهم تلقائياً أثناء تحركاتهم اليومية. لم يكن الأمر يسيراً بأية حال، فقد كان على كل سائق أن يترك سيارته بجوار الناصية التي يقف العسكري عندها، تجنّباً لتوقيع المخالفات، ثم السير على أقدامه بطول الرصيف حتى يصل إلى مركز الطابور.

فعل معظم السائقين هذا الأمر طيلة الأيام التي استغرقتها الأحـداث، ودون أي مقابل، فقط مراعاة لحق الخبز والملح والعِشرة التي لا تهون، فقد نشأت بينهم وبين الواقفين، مع مرور الوقت، علاقات صداقة راسخة، كلّلتها بعض المنافع المتبادلة. لم

يتوقّعوا في الحقيقة أن يستمر الوضع على هذا المنوال، بل إنهم راهنوا بعضهم البعض على عودة سريعة إلى سابق العهد، بحيث يتمكّنون من الدخول بالميكروباصات مرة أخرى إلى الرصيف، بعد أن يألف العسكري وجودهم ويصير واحداً منهم، لكنهم لسوء الحظ خسروا الرهان في طرفة عين، فقد ظهرت علبة كبيرة من الصفيح ذات فتحتين مربعتين وسط الناصية تماماً، وسدّت مدخل الطريق بحيث يستحيل على أصغر سيارة من السيارات تفاديها، وقد استقر بداخلها العسكري، وأمامه وضعت لافتة نُقِشَت عليها العبارة الشهيرة: «ممنوع دخول السيارات» وإمضاء: «عِبس».

وصفوا فيما وصفوا، قتالاً دائراً على حدود الساحة الكبرى، بين فِرَق من الناس، ليست لها أزياء موحدة ولا علامات كما كانت في المرات السابقة، لا يجيب أحدهم على أي سؤال، ولا يلتفت إلى الآخرين. اختلف شهود العيان على عدد المصابين والقتلى، وسُمِعَت أصوات عربات الإسعاف المدوية، لكنها لم تُر وهي تنقل أي شخص، كذلك لوحظت دماء هنا وهناك، تصنع في بعض المناطق بركاً عميقة واسعة، دون أن يظهر أصحابها إلا فيما ندر، وقد أقسم سائق أشيب الشعر نابت الذقن أمام جمع من الواقفين، أنه رأى بعينيه شاباً حافياً تكاد ساقه أن تنفصل عنه لكثرة ما لحق بها من جروح، يحمل في يده جوالاً نصف شفّاف ويقبض عليه بشدّة، وأنه ميّز في الجوال كرات صغيرة فضية اللون مغمورة في سائل أحمر داكن. قال السائق إن رجلاً آخر متوسط البنية عرض شراء الجوال بما يحويه، لكن الشابّ رفض بحدّة وتصميم، وقام بينهما عراك عنيف، انتهى بأن خطف الثاني الكيس، وانطلق يعدو به ثم

اختفى من الأفق، بينما حاول الشابّ أن يطارده لكن ساقه خذلته فجلس يبكي.

بكت مذيعة محطّة الشباب بدورها تأثراً بما يـدور في الساحة، كان صوتها الممدود ينطلق عبر جهاز راديو، من داخل أحد الميكروباصات المنتظرة، وقد تجمّع حوله بعض قاطني مؤخرة الطابور. استضافت عالم نفس معروف له باع في البرامج والندوات، فشرح الموقف وحلّله، وأكّد على وجود أسباب كثيرة وراء ما يجري، ذكر من ضمنها؛ حرارة الجو التي تؤدي إلى سهولة الاستثارة والغضب، وانفلات السلوك. انقطع الحوار لقراءة نشرة الأخبار، التي جاء فيها أن بعض المسئولين يدرسون جدياً إقامة مجموعة مِن المظلات بالقرب من أماكن الازدحام، لتهدئة أعصاب المواطنين والتخفيف عنهم.

لم يعرف أحد سبب احتدام الأمور هذه المرة، لكن أماني التي تقطع الساحة كل يوم تقريباً متّجهة إلى المؤسسة، رأت في الصبيحة الأولى للاقتتال بعض الأشخاص، يحاولون التسلل عن طريق المنطقة المحظورة إلى الشارع الخلفي، وهو الشارع الذي يقود إلى أحد حوائط البوابة الثمانية الكبرى: حائط المبنى الشمالي. أُغلِقَ هذا الشارع منذ فترة طويلة بحواجز حديد، وتحوّل إلى مساحة جرداء، حُظِرَ الاقتراب منها على الجميع، حتى الحيوانات الضالة امتنعت عن التجوّل هناك. لم توضع على الشارع أية علامات أو إرشادات أو محاذير، لكنه علا تدريجياً عن مستوى سطح الأرض الكائنة حوله، ثم أُحيط بسور حجري هائل الحجم لا يحوي منافذ

على الإطلاق، ولا يمكن تسلّقه بالطرق العادية، فصار محجوباً بما فيه عن المارة.

لم يعد مسموحاً منذ فترة بالمرور في المنطقة كلها، إلا لحاملي البطاقة البنفسجية الخاصة بالبوّابة، ويعرف الجميع، خاصة كبار السن الذين شهدوا المكان قبل أن تطرأ عليه تلك التغييرات، أن حائط المبنى الشمالي، قرمزيّ اللون، يقع في المنتصف من الشارع تقريباً، وأن نهاية الشارع ذاته تُفضي إلى نفق قصير، يخرج منه سالكه مباشرة أمام المنفذ. سمعت أماني أيضاً وهي توشك على الخروج من الساحة، أصواتاً مكتومة، لأشياء ثقيلة تسقط خلفها وترتطم بالأرض، لكنها لم تلتفت إلى الوراء كي تراها، شعرت أن الوضع يتأزم بأكثر مما تصورت، وأن الأمور تقترب من الانفجار، فكان عليها أن تعدو لتبتعد عن المكان كله.

* * *

لم تُثن الأحداث أم مبروك عن البدء في مشروع صغير، قدّرت أنه سيعينها على تحَمُّل تكاليف الإقامة في الطابور، أو أنه سوف يعوّضها على الأقل، عن المكاسب الجانبية التي كانت تتحصل عليها من العمل في البيوت. تذكرت بعد فترة التقاعد تلك، أنه لم يمض عليها يوم، إلا ونفحتها إحدى السيدات اللاتي خدمتهن بعض الأغراض المُستَهلَكَة، مستغنية عنها دون مقابل على اعتبار أن أم مبروك أولى وأحقّ من الغرباء، وعن نفسها كانت تقبل كل ما يأتيها، وتعيد تشكيله بما يتناسب مع حاجتها، أما الآن فلا أحد من الواقفين يتنازل عن أي شيء. استخدمت الحيّز الذي تشغله

بجسمها العريض وكتفيها المكتنزتين كبداية، وأوصت بعض السائقين الذين توطّدت علاقتها بهم، بإحضار عبوات الشاي والبن والسكر وكذلك مسحوق اللبن، على أن تتسلّمها منهم دورياً، وتسدّد ثمنها في نهاية كل أسبوع. جاء لها مبروك من البيت بوابور قديم، وأكواب بيضاء خفيفة ورخيصة الثمن، ابتاعها من سلسلة المحلات الشاملة التي افتتحت عدة أفرع في منطقتهم بين عشية وضحاها، والتي استمرت جميعها تعمل دون توقف، حتى أثناء الأحداث.

كانت تعود من عملها الصباحي في المؤسسة لتستقرّ أمام الوابور وتسقي أغلب الواقفين حولها، ثم اتّسع نطاق زبائنها قليلاً، ومع توقف المقهى عن العمل واختفاء حَمُّود، صارت تقدم المشروبات لعدد لا بأس به من المقيمين والواردين، وقد اعتبرت إيهاب وأصحابه أهم المتردّدين عليها، فلم يكن يترك يومًا واحدًا يمر دون أن يستضيف شخصاً على الأقل، وكذلك إيناس التي اعتادت منذ كانت منتظمة في عملها، شرب كوبَي شاي خلال النهار، كوباً في موعد الحصة الأولى، والآخر في موعد الفسحة، ثم كوباً أخيراً في المساء. يضاف إليهما الرجل ذو الجلباب الذي لم يكف منذ بدأت في تقديم أنواع جديدة من المشروبات، عن تناول القرفة بالزنجبيل والينسون. أضافت أم مبروك بعد قليل خدمة جديدة إلى القائمة، فقد سمحت للمحتاجين باستخدام تليفونها المحمول بمقابل زهيد جداً، يوازي نصف ما يدفعونه للاتصال بذويهم من تليفوناتهم، أو من خارج الطابور، وتمكّنت خلال فترة قصيرة من توفير حقيبة مدرسية غير مستعملة لولدها، ثم أرسلت معه مبلغاً ضئيلاً من المال

لأخته التي لم توفّق في الحصول على الوظيفة، حتى بعد إرفاقها الشهادات الصحية، وكافة المستندات التي تثبت حالتها.

ارتبكت الحياة في المناطق المحيطة بالطابور، وتأثّرت إلى حد كبير بما يجري داخل الساحة، بينما سار المشروع على ما يرام لفترة، حتى وقعت الحادثة الأخيرة فتعثر هو الآخر بشكل واضح. قام بعض «المقاطيع» ـ كما استقرت أم مبروك على تسميتهم في رواياتها ـ باقتحام الطابور، وفصل جزء منه، واحتجاز المئات من قاطنيه خلف حواجز طاردة، أمكن لهم إقامتها من المخلفات والبقايا الصلبة التي تراكمت في المكان، وقد أتيح للواقفين في المقدمة أن يروا أخيراً وحدة الحرس الأمني المانع التي يفترض بها حماية البوابة، وقد ظهر أفرادها بدروع جديدة، وانتشروا بمحاذاة السور، لكنهم لم يتدخلوا.

استاء المُحتَجَزُون من هؤلاء «المقاطيع» بعدما أدركوا أنهم يحاولون تعطيل فتح البوابة، خاصة مع ما قيل عن انتهاء استعداداتها، واقترابها من بدء العمل، في الوقت ذاته ظهرت أدلة متعددة تدين «المقاطيع» وتؤكّد ضلوعهم في أفعال مشينة، وقد ذاعت تلك الاتهامات عبر الرسائل التي بثها التلفزيون، ونالت منهم في جميع الأنحاء، كما أضيف إليها اتهام جلل بمعاداة البوّابة، وآخر بمحاولة تقسيم الطابور ثم فَضّه، الأمر الذي دعا المحتجزين إلى الثورة عليهم، ووصْمِ تصرفاتهم بالعبث والصبيانية وانعدام المسئولية، ومطالبتهم بالرحيل فوراً.

دافع «المقاطيع» عن أنفسهم بشدة، وانبرى منهم مَن يقول إن

شهوراً قد مرت دون أدنى تغيير، ولا بد للناس جميعاً من اتخاذ موقف موحّد، كالانصراف والبحث عن مكان آخر للوقوف فيه، لكن أغلب الواقفين ـ محتجزين وأحراراً ـ تشبّثوا بالأمل، لم يكن لدى أحد استعداد للرحيل من الطابور دون البتّ في موضوعه، ثم إن نوعاً من النظام والاستقرار كانا قد سادا المكان، وأصبحت هناك قواعد وحدود مرتضاة، يقرّها الجميع ويتّبعونها.

الشخص الوحيد الذي خالف هذا الإجماع كان ناجي. لم يفصح عما دار في عقله لأحد من الواقفين إلا ليحيى، كان يفكر فيما حدا بالناس إلى أن يصبحوا هكذا ملتصقين بحياتهم الجديدة التي تدور في فلك الطابور ولا تملك أن تتخطّاه. لم يكن هؤلاء الواقفون بلداء قبل أن يجيئوا بطلباتهم إلى البوابة، بينهم مهنيون وعمال، شباب وكبار، نساء ورجال؛ لا توجد فئة واحدة غائبة عن الطابور، حتى أفقر الفقراء موجودين لا يفصلهم عن الأثرياء جدار أو حاجز، مع ذلك فالكل متشابه، النظرات نفسها والمشية المتباطئة التي لا تتغير من شخص لآخر، لا تظهر الاختلافات الطبيعية على تصرفاتهم، وكأنهم صاروا نسخاً مصنوعة في قالب واحد.

توقع أن يظهر للقاعدة استثناء، أن يخرج مِن بينهم مَن يؤيد «المقاطيع»، أو حتى من يتعاطف مع دعوتهم للثورة على هذا الوضع العجيب، لكن هذا لم يحدث، يحوي هذا الطابور في قلبه شيئاً كما المغناطيس، يجتذب الناس ويأسرهم في دوائر مغلقة، ثم ينزع عنهم الشعور بأنهم قد سُلِبوا أي شيء. هو نفسه تأثر ولا شك، ولو كان لا يزال محتفظاً بسماته السابقة المتمردة، لدعا

الواقفين للتحرك إلى الأمام، خطوة واحدة فقط من كل شخص في هذا الاتجاه، خطوة واحدة كفيلة بأن تهدم أسوار البوابة وأن تكسر الجمود، لكنه هذا المغناطيس، الذي يجعله يشعر كأنه أسير. ربما يتوهم أنه إنما يساعد يحيى، لكنه في الحقيقة لا يتمكن من مفارقة الطابور، يروح بجسده ويجيء لكن إرادته حبيسة هنا.

وصلت الأمور إلى منتهاها، بعد أن تجمّد كل شيء، وتعطّلت الحياة اليومية في الطابور، وتضرّر الكثيرون ممن ارتبطت معيشتهم بوجوده، ومن بينهم أم مبروك التي أُجبِرَت على جمع أغراضها كلها، وتوقّفت عن غَلْي المياه وشطف الأكواب التي تعيد تدويرها، خوفاً من أن يتم الاعتداء عليها، فقد نالها هي الأخرى من «المقاطيع» اتهامٌ لم تتأكد أنها استوعبته تماماً، بالمساعدة على استمرار الوضع الذي يرفضونه، والتربّح من إبقائه على ما هو عليه.

جرت عدة مناوشات ومفاوضات، وأقام الرجل ذو الجلباب صلاة لتفريج الكرب شارك فيها المحتجزون من أماكنهم، وتطوع بعض الواقفين بطرح حلول وسطى، كأن يتمّ عقد هدنة تسقط من تلقاء نفسها إذا لم تنفتح البوابة خلال شهر واحد، أو أن يُقَدِّمَ المنتظرون تعهّدات مكتوبة بالانصراف الفوري لكل من تتجاوز مدة انتظاره ـ بما فيها الانقطاعات عن الوقوف في الطابور ـ ثلاثة أشهر، لكن تلك المحاولات الهادفة إلى إيجاد حلول للموقف ظلّت دون نتائج حقيقية. لم يلبث «المقاطيع» أن انسحبوا انسحاباً غامضاً، فقد أصبح نهار من بين النهارات وهم غير موجودين، نما إلى علمهم أن ثمّة ترتيبات واتفاقات تُعقَدُ ضدّهم في الخفاء، يشارك فيها قسم من

المحتَجَزين وعدد كبير من سائقي الميكروباص، الذين استشعروا الخطر بعد أن امتنع الناس عن التَنَقُّل مِن وإلى الطابور، فجمعوا أنفسهم ليلاً وغادروا في صمت بعدما أيقنوا أنهم لا محالة مطرودون.

انتهت الأزمة لكنها تركت أثرها على الواقفين، خاصة هؤلاء الذين تعرّضوا للتهديد بشكل مباشر، وقد أضاعت وقتاً طويلاً وثميناً من أم مبروك، لكنها، وهو الأهم، أدّت إلى استعادتها الثقة في سوء الطالع الذي يلازمها أينما حلّت.عاد السائقون من جديد يوافون الطابور بكل ما يصل إليهم من أنباء، لكنها صارت قليلة التواتر ومبهمة، اختفت الفرق المقتتلة وإن بقيت آثارها في المكان، وتضاءل عدد سيارات الإسعاف وإن ظلت الصافرات مسموعة، ثم لاح أخيراً بعض الهدوء، وتطلع المتابعون إلى معرفة الخسائر وحجم ونوعية الإصابات.

راح يحيى يتتبع إيهاب، يمر عليه كل يوم تقريباً ويسأله عن آخر المعلومات التي وصلته، لكن ملاحقته تلك لم تجن أية ثمار، فلم تكن في جعبة الجريدة أخبار مختلفة عن التي يسمعها الجميع، لم يُعلَن أي شيء، ولم تصدر إحصاءات أو رسائل رسمية على الإطلاق. تراجع عدد الميكروباصات التي تصل إلى الناصية، ثم توقفت حركتها تماماً لعدة أيام، ففهم الناس أن محطات الوقود أغلقت مرة أخرى، إذ أصبح من الضروري توجيه كل كميات السولار المتاحة لعمليات التنظيف الشاقة. جاءت فيما بعد عربات كثيرة لجمع المُخَلَّفات، ودخلت باتجاه الطابور حتى مسّت بمقدماتها العريضة علبة الصفيح دون أن ينهرها العسكري

أو يسجل أرقامها، تناوبت العمل لعدة أيام متواصلة، ثم توالت زياراتها الأسبوعية في ساعات مختلفة من الليل. ظلّت العربات تقوم بعملها دون تراخٍ، رفعت الحجارة والأجسام الصلبة، وجذوع الأشجار الساقطة وكذلك الحَيَّة، وأحياناً كانت تلتقط على سبيل الخطأ، بعض النائمين في الظلام، لكنهم كانوا يعودون في اليوم التالي مباشرة، دون أن تلحق بهم أضرار جسيمة.

مرت فترة زمنية طويلة قارب الناس فيها على نسيان الموضوع، ثم بُثَّت أخيراً رسالة من البوابة؛ جاء فيها أن الساحة آمنة ومفتوحة أمام المارة، وأن الأحداث المشينة الأولى قد انتهت إلى غير رجعة في حينها، ولم يكن لها امتداد ولا تكرّرت بأي صورة كما ادّعى البعض، وحثّت المواطنين من هذا المنطلق على عدم الانسياق وراء مايرونه، مهما كانوا واثقين من سلامة أبصارهم. جاء في الرسالة أيضاً تنبيه هام؛ حيث تمّ إغلاق وحدات وأقسام الأشعة والتحاليل في المستشفيات والمستوصفات، والعيادات الخاصة، ومصادرة كافّة الأجهزة التي تحويها، وضمّها إلى مستشفى الأجواء التابعة للبوابة، وقد صدر هذا القرار الإصلاحي الشامل كما ذكرت الرسالة؛ حرصاً على السلامة الجسدية والنفسية للمواطنين، بعدما تبيّن بمتابعة بعض المصابين والمرضى، أن هناك أجهزة كثيرة تُصدِرُ نتائج خاطئة تُعْوزها الدقة، وتطبع صوراً مشوشة ومُضَلِّلة، وأن تلك الأجهزة موجودة في أغلب الأماكن الوارد ذكرها، دون مراعاة للمبادئ الأخلاقية والطبية، مما يوقعها تحت المساءلة والعقاب. دعت الرسالة في النهاية كل من لديه صورة أشعة، أو نتائج تحليل، إلى أن يقدّمها إلى المنفذ فوراً، من أجل الفحص والتثبّت من صحة

محتواها، وأكّدت أن تلك الخدمة مجانية، لا يتمّ تحصيل أية رسوم عليها.

وصل نصّ الرسالة إلى الجريدة التي يعمل بها إيهاب، فأبلغ به ناجي وهو بعد في المقر. توجه يحيى إلى أم مبروك منذهلاً، وظل يكرّر نمرة طارق مرة بعد الأخرى محاولاً العثور عليه. إذا كانت الرسالة حقيقية كما سمع منهم، فالمعنى ببساطة أنه لم يعد في استطاعته إجراء أشعة جديدة في أي مكان، حتى ولو قرّر اللجوء إلى الحيل والمراوغات. لم يفده طارق بأي معلومات على الهاتف، وإن أظهر اهتماماً أكبر من المعتاد، فسأله بالتفصيل عن الحركات والأوضاع التي يصاحبها تقلص شديد، أو غَزٌّ كفعل السكين، أو ألم حادّ مُرجِف، سأله عن لون بوله وكميته، كما سأله أيضاً عن أماني، لكن اهتمامه هذا لم يفِ بالغرض ولم يشفع له عند يحيى، الذي لم يستوعب سوى شيء واحد؛ أن رئيسة التمريض لازالت غائبة، وفي حوزتها الأشعة، وأن طارق ذاته يخفي سبب غيابها.

تبرّعت أم مبروك بثمن المكالمة، وأصرت على رفض نقود يحيى تعاطفاً مع إصابته: «يا بني هابقى أنا والزمن عليك؟ ما كفايه اللي انت فيه». انصرف ورأسه يكاد ينفجر إلى قطع صغيرة، ذكريات ترد إليه وتتلاشى وتترك له خليطاً من المشاعر المتناقضة كثيراً من الكآبة والملل، وبعضاً من اليأس والرغبة في الكمون، ثم توقًا إلى الخلاص واستعادة الحياة كما كانت بدقائقها المحزنة والسخيفة والمفرحة. لم يكن في حالة ذهنية تسمح له بمجادلتها، كما كان يعرف أيضاً أنها لا تسدّد ثمن المكالمات التي تجريها، إذ

فازت ضمن كثير من الأشخاص، الذين أهدتهم الشركة البنفسجية خطوطاً ورصيداً مفتوحاً دون مقابل.

فور انتهاء المكالمة التي مكث ينصت إليها في تَحَفُّز، استأذن ناجي وغادر الطابور دون وجهة محدّدة، طاف بالمناطق المحيطة مستطلعاً الأحوال، ومفكراً في إمكانية مقابلة طارق على انفراد. رجع بعد ساعات منشرحاً ورافعاً إصبعيه علامة النصر، فقد استطاع أن يستدرج صباح ببعض الملاطفة والتودّد، وعرف أن رئيسة التمريض قد حصلت على إجازة طويلة دون راتب. جمعت متعلّقاتها، وسلّمت عهدتها، وذهبت كي تنهي بعض الأمور الخاصة بها، وتجنبت بإصرار مناقشة قرارها الغريب مع أيّ شخص في المستشفى. بلغ بها الحرص مبلغه فكتّمت سرّها حتى غادرت بالفعل، ولم ينجح أحد في معرفة ما أصابها رغم المحاولات المستميتة التي بذلتها الزميلات والصديقات المقربات. أخبرته صباح أيضاً، أنها توصلت بأساليبها الخاصة إلى جزء من هذا السر؛ فقد انضمّت رئيسة التمريض منذ أسبوع أو يزيد إلى طابور البوابة، وصار هناك احتمال باستقدام رئيسة أخرى تحلّ محلّها في العمل، حتى يتبيّن المدير موقفها بشكل دقيق.

ألفـــت

عادت المياه إلى مجاريها في نطاق الطابور، وسرعان ما استؤنِفَت الأنشطة اليومية على المنوال ذاته بقيادة أم مبروك، التي ابتاعت أكواباً زجاجية جديدة احتفالاً برحيل «المقاطيع»، وتخلّصت من الأخرى الرخيصة. مسحت يديها وجهاً وظهراً في الرداء، ثم ناولته كوباً من الينسون به فتلتان بدلاً من فَتْلَة واحدة: «ربنا يجعل لك فيه الشفا والصحة». غمغم الرجل ذو الجلباب ببضع كلمات مضغمة وهو يأخذ الرشفة الأولى متجاهلاً ابتسامتها، فلاحقته بإصرار: «ما عندكش دُعا ولا ذكر يا حاج يخفف عني الغلب والشقا دا شوية؟» لم تتلقّ منه أية إشارة تدل على أنه أنصت لما قالت أو أنه سوف يرد عليها، لم يَحِد حتى بنظره عن الكوب. ضاقت ابتسامتها قليلاً وتراجعت وقد مسّها الخجل: «والنبي ده مش سامع، بعد ما تخلّص بقى». انتهى تماماً من الينسون، ورمقها بنظرة جانبية سريعة ماسحاً على لحيته، وحَدَّقَ في الأدوات البسيطة التي تحيط بها، ثم أخرج المسبحة ونصحها وهو يزيح الحبّات الذهبيّة واحدة وراء الأخرى، بحضور الدروس التي يلقيها أسبوعياً بالقرب من المقدمة، تلك

الدروس التي ينضمّ إليها الكثير من الصالحين، ويأتي إليها البعض خصيصاً من خارج الطابور: أول الأسبوع القادم بمشيئة الله عز وجل، ينالك خيرٌ كثيرٌ.

مضى يحيى باحثاً عن رئيسة التمريض، لكن المسافة الشاسعة لم تسمح له بأن يقوم بعملية مسح مقبولة، أكمل بالكاد مربعاً صغيراً جداً، لا يمثل قشّة مقارنة بحجم الطابور. لم يكن من الصواب كما رأى، أن يقصر بحثه على المؤخرة فقط، فما أدراه أن المرأة سوف تلتزم بدورها وتقنع بالبقاء هناك، يعرف أن تبديل الأماكن صار مألوفاً وبسيطًا، وقد تجاوزه هو شخصياً كثيرون، وصلوا إلى الطابور بعده بأسابيع، ومنهم من صار الآن في المقدمة، كُلٌّ بطريقته ومهارته، وقدرته على المساومة وعقد الاتفاقات. تفاهم مع ناجي على تقسيم الطابور بينهما، بحيث ينطلقان من نقطة واحدة، ويسيران في اتجاهين متعاكسين.

كان عليه أن يسأل عنها شفهياً كل بضعة أمتار، ما من وسيلة أخرى أمامه، فالصورة الوحيدة المتاحة لها كانت مستقرة في رأس ناجي، إذ قادته صباح خلال زيارته الأخيرة لها إلى مكتب التمريض، وهناك إشارت بفخر إلى إطار كبير الحجم، يضمّ صوراً فوتوجرافية متنوعة، لأطباء وتمرجية وعاملين بالمستشفى. اقتربت من الإطار، ووضعت إصبعها على عنق امرأة متوسطة العمر وقدمتها إليه: مدام ألفت رئيسة التمريض، وبجانبها أنا. لم تبدُ الدهشة على الواقفين من سؤال يحيى، فقد اعتادوا أن يبحث الناس عن بعضهم البعض، وأن يتبرع آخرون بإرشادهم، بل وفي بعض الأحيان

كانت تُوَزَّع صورٌ لأشخاص، كبار وأطفال، تائهين وسط الطابور بسبب الازدحام، وبخاصة في مواعيد تناول الطعام، حيث تتوارى الأنباء والشائعات وتتضاءل مشاعر الترقب، وينتبه كل شخص لمن يُفتَرَض أن يشاركوه الأكل. تَعَرَّفَ خلال البحث على ممرضتين، وتمرجي، وطبيبة عيون تصاحبها أختها الصغرى، لكن مدام ألفت لم تكن بينهم، ولم يذكر أحد أنه يعرفها، وقد تطوعت أم مبروك بسؤال زبائنها، وأوصتهم هم كذلك بالسؤال عنها: «ريّسة تمريض قدّ الدنيا، قريبة الأستاذ يحيى من بعيد.

التقيا مرة أخرى عند نقطة البدء دون أن يفلحا في العثور عليها، كانا منهكين تماماً، ومقتنعين باستحالة المضي في التفتيش عنها دون خيط يمسكانه، وقد قدّرا أن الأمر سوف يستهلك قرابة الشهرين إذ ما سار على نفس الوتيرة. جلسا أرضاً وراحا يبحثان عن حل يُمَكِّنهما من اختصار الزمن الذي أضاعا منه بالفعل الكثير. اقترح ناجي أن يُشرِكَا إيهاب معهما، فرفض يحيى رفضاً قاطعاً رغبة منه في استبقاء الموضوع داخل أضيق نطاق ممكن، لكنه تذكّر أن هذا الصحفي المزعج الذي أعرض عن صداقته منذ البداية، مصرّاً على جعل علاقته به شبه رسمية، بات يعرف عنه الكثير من المعلومات، التي أفشاها ناجي بحسن نية، ولم يعد أمره خافياً بأية حال. لا يمكنه أن ينكر في الوقت نفسه أن إيهاب ومن على شاكلته من الصحافيين، يملكون خبرات وأساليب فعّالة في مسائل البحث والتقصي، ربما تفضي بهم في النهاية إلى تحقيق الهدف، والكشف عن موقع رئيسة التمريض.

أدرك بوضوح أنه ما من داعٍ للانقياد وراء مشاعره السلبية، ولا للمزيد من التصلّب والممانعة؛ ناجي يثق في إيهاب، وهو بدوره يثق في ناجي، والوقت يمر بسرعة ومثله تتعاقب التطورات. لم يعد في الإمكان التكهّن بما يحمله الغد، ولا معرفة ما سوف يأتي ليقلبه رأساً على عقب. طلب ناجي كوباً من القهوة الثقيلة، حمله في يده وذهب للبحث عن إيهاب، بينما شعر يحيى بحاجته الشديدة للتبوّل. سار بصعوبة مائلاً إلى الأمام ومتكئاً بباطن يده على فخذه، كان يتصبّب عرقاً؛ تسيل المياه المالحة بين تقطيبات وجهه وتغزو أنفه وفمه، وتُضَاعِف شعوره بالصهد الشديد المنبعث من وجهه وكأنما صار رأسه شمساً صغيرة.

أخذ يتوقف بعد كل خطوتين أو ثلاث لالتقاط أنفاسه وتجفيف جبهته، والناس يتحركون من حوله، يعرض بعضهم المساعدة، ويتجاهله هؤلاء الذين اعتادوا منه الإمساك عن الحديث والنفور من الثرثرة ودفقات النميمة الاعتيادية. لوّحت له السيدة ذات الشعر القصير والجونلة السوداء، فأومأ برأسه، وتقاعس عن رفع ذراعه ردّاً على تحيتها. مدّت خطواتها لتلحق به، ثم وقفت أمامه لاهثة تطمئن على صحته، وقدمت إليه منديلاً قطنياً نظيفاً، رفضت أن تستردّه فيما بعد، ثم لم تلبث أن سألته عن الحقيبة مَحَلّ المشادة التي نشبت منذ فترة، بينها وبين الرجل ذي الجلباب. لم تكن متأكدة تماماً من موقف يحيى، لكنها على كُلٍّ خمّنت أنه يقف إلى جانبها، كما كانت تدرك من بعيد أن هناك علاقة تربطه بذلك الصحافي الشاب، الذي تدخّل لينقذ إيناس من عثرتها، والذي صار بما اقترحه طرفاً أساسياً في الموضوع.

دفعه السؤال إلى أن يفرد ظهره محدّقاً فيها، نسي الموضوع برمته، تراكمت عليه المتاعب والأحداث وأصبح يتذكّر بالكاد ما جرى، بضع كلمات ولقطات ناقصة، أما هي فيبدو أن لديها متسعاً من الوقت وأنها من ذلك النوع الذي ما إن يدسّ أنفه في شيء، حتى يظلّ ينبش فيه ويسير وراءه، حتى يصل به إلى النهاية التي يتصورها صواباً. وعدها أنه سوف يسأل إيهاب، وأشار بأسارير منبسطة إلى مكانه المعتاد في الطابور. استمر وجهه منفرجاً لدقائق، دهمه الغمّ في نهايتها، إذ لاحظ حين وصل بالقرب من اللافتة الصفراء، وعبر إلى الجانب المقابل وأفرغ مثانته.

وجود قطرات من الدماء الداكنة تصبغ ملابسه الداخلية، تزامنت مع اشتداد قضمات الوجع. لم يكن يأمل أن يتّخذ الأمر هذا المسار، فيقفز به من سيء إلى أسوأ. مِن بين الاحتمالات التي عرضها طارق في لقائهما الأول، أن تَكِنَّ الرصاصة وتستكين في مكان آمن، وتحاصرها أليافٌ، يصنعها الجسد مُهتاجاً حول المواد الغريبة التي تقتحم خلوته، وأن تتّحد بعد ذلك العناصر كلّها؛ الرصاصة والألياف والإفرازات المختلفة التي لا يعرفها، في كتلة مسالمة تبقى معه طيلة العمر دون مشاكل، أما والأمر هكذا فقد اختارت الرصاصة أن تتبع احتمالاً آخر؛ تتحرك وتَغُزُّ الأحشاء، وتثقبها وقد تسمّم دماءه عمّا قريب.

حاول مطاردة الأفكار الثقيلة المستوحشة التي تدافعت إلى رأسه، بأخرى أكثر خفّة؛ أماني تذهب إلى المستشفى وتقتحم القبو وتضرب من يعترضها وتأتي بالأشعة، ناجي يُقَيِّدُ طارق ثم يرغِمُه

على إجراء الجراحة، «كوشة» كبيرة في مقدمة الطابور وفي خلفيّتها البوّابة، وصورة ذات حجم هائل تحل محلّ لافتة ممنوع الدخول الواقفة عند الناصية، ثم حضن دافئ طويل وعامر الالتصاق، يعوّضهما ـ هو وأماني ـ عن السلام الجافّ، الذي صار إحدى قواعد اللقاء السخيفة منذ إصابته. فرد ظهره بقدر ما سمح له الألم، ظانّاً أنه سوف يذهب بنفسه إلى إيهاب.

الفصل الرابع

الورقة الرابعة

التاريخ المرضي السابق

«أمضى المريض يحيى جاد الرب سعيد فترتي طفولة ومراهقة عاديتين، لم يصب خلالهما بأمراض ذات أهمية تذكر، كما لم تجر له عمليات جراحية في السابق، ولا توجد في عائلته أمراض وراثية معروفة. عانى من نوبات ضيق وتوتر دفعته إلى ارتكاب بعض الأفعال التي وصفت بكونها متمردة في السنوات الأخيرة من دراسته الجامعية، وقد لاحظها المشرفون وأوصوا بمتابعته. عاودته تلك النوبات مرة أخرى بعد تخرجه من الجامعة بعدة أشهر وحصوله على وظيفة مقبولة، ولم يتم اكتشاف سبب تكرارها، ومن المرجح أن يكون لها تأثير على بعض تصرفاته، خاصة في الآونة الأخيرة، حيث شوهد في الساحة أكثر من مرة، ودون داع. وقد تم تدوين كل ما يتعلق بهذا الأمر في ملف العمل.

* * *

بعد طلب سجلات الكلية والمؤسسة والاطلاع على التفاصيل التي سجّلت بها، وُجِد أن الأعراض المرصودة لديه غير مكتملة وهو ما أعاق الجزم بتشخيص محدد، وتتمثل تلك الأعراض إضافة إلى الضيق والتوتر، في وجود شعور غير منطقي بالقدرة على تغيير الواقع، تصاحبه ميول واضحة لاتخاذ مبادرات غير صحية وغير مقبولة من المجتمع، بالإضافة إلى بعض الحدة في التعامل مع الآخرين».

المرة الأولى التي طالع فيها طارق تلك الورقة، اضطر إلى اللجوء لبعض المراجع المتخصصة، كي يتمكن من فهم الأعراض بصورة أكثر وضوحاً، إذ لم تكن تنتمي إلى مجال تخصصه على الإطلاق. بعد قراءتين أو ثلاث، انتبه إلى أن جميع النوبات التي تم تسجيلها في الورقة الرابعة والتي قيل إنها داهمت يحيى أكثر من مرة، قد واكبت أحداثاً بعينها، وقع بعضها في الفترة الزمنية التي سبقت ظهور البوابة، والبعض الآخر تلى ظهورها بفترة وجيزة. يعرف طارق على الأقل ما جرى أثناء الأحداث المشينة الأولى ليحيى، يدرك أن نوبات قاسية من الألم تصيبه فتعوقه عن الحركة، لكنه لم يلحظ عليه شيئاً له علاقة بهذه النوبات الانفعالية وأعراضها الغريبة.

لم يعتد طارق الاهتمام بما ليس من شأنه، والأمر الذي قد يجعل جراحاً مثله مهتماً بتلك الورقة، أن يكون يحيى قد خضع لعمليات جراحية أخرى سابقة، أو أن يكون مصاباً بمرض عضوي يمنع جراحة لاحقة، مع ذلك وجد نفسه ينادي صباح ويسألها إن كانت قد شاهدت على يحيى أي علامات أو أفعال غير طبيعية أثناء

وجوده في المستشفى، أو إن كان تعامل معها بعصبية واضحة إلى درجة أخافتها، لكنها نفت دون تردد وهي مندهشة من السؤال.

عاد إلى الفقرة الأخيرة من الورقة، باحثاً عن أي كلمة قد تقوده إلى افتراض تشخيص ما، لكنه لم يجد. تأمل الأعراض الثلاثة المذكورة، وانشغل بمحاولة تطبيقها على نفسه. لم يكن الأمر صعباً؛ قام طارق ببعض المبادرات التي اعتبرها زملاؤه غير مقبولة بل ووصموه ساعتها بالجنون، فقد اعترف ذات مرة أمام مديره بالوقوع في خطأ مهني، أثناء جراحة صعبة شارك فيها، وقد لازمه في فترة من فترات شبابه إحساس قوي بقدرته على إقناع الأطباء الآخرين بالحفاظ على مواعيد العمل مثله، لكنه الشهور الماضية. وجد أنه على طريق يحيى، وأنه قد يستحق في يوم من الأيام ورقة مثل ورقته تماماً، قلبها على ظهرها ودفعها بين الورقات الأخرى وأبعد الملف إلى ركن مكتبه.

الطريق إلى المقهى

شدّ إيهاب على يد يحيى مرحّباً ومُشَجِّعاً، أفرد له مساحة من الودّ والتضامن ووضع نفسه تحت تصرّفه، وأعلن استعداده الكامل للقيام بأية مهمّة يطلبها منه، مهما كانت وفي أي وقت، ما عليه إلا أن يصل به سواء كان موجوداً في الطابور أو في مقرّ الجريدة. أعطاه رقم هاتفه، ثم مضى وتركه في صحبة ناجي، مفضلاً ألا يستطرد كثيراً في الحديث، ومؤكداً أنه سوف يعثر على مدام ألفت أينما كانت. يحيى هو أهمّ الواقفين الذين تعرف عليهم على الإطلاق، ولو كان على استعداد لنشر قصته لأثار بها ضجّة واسعة، فهو برصاصته تلك دليل حيّ لم يتمّ دفنه حتى الآن، وإذا نجح في الحصول على التصريح فسوف تكون سابقة مدهشة، فمنذ ظهرت البوابة لم يصدر عنها أبداً مثل هذا التصريح، أما إذا فشل فإن حياته هي الثمن المباشر والوحيد. لا فصال ولا مفاوضات. لم يكذب أو يبالغ، هو بالفعل على أتمّ استعداد لتقديم أي شيء، في سبيل أن يظل يحيى صامداً حتى تنفتح البوابة؛ يمكنه هو وناجي أن يهتمّا بالترتيبات التي لن يستطيع القيام بها وحده، وأن ينجزا المهام

الصعبة التي قد تُعَجِّل بتدهور حالته، اثنان مثلهما قادران بلا شكّ على التحرّك أسرع منه، لكنه لا يكف عن الذهاب والإياب، ولا عن المعافرة في كل شيء، وإنهاك جسده المعلول رغم حاجته الشديدة إلى الراحة. يثير يحيى فضوله بهذا العبوس الذي يحتلّ قسمات وجهه منذ رآه. يجد أن ذلك العبوس لا يتلاءم مع روح يحيى القتالية التي تستحقّ الإعجاب. لا يذكر أنه صادفه مبتسماً منذ قابله في الطابور.

اتصلت أماني بناجي من الشركة، في لهفة وتحفز، حتى أنها قد سألته عن حاله دون أن تنتظر سماع الرد، قفزت تسأله مباشرة:

ـ سمعتِ الرسالة؟

ـ سمعتها.

ـ ويحيى؟

ـ ويحيى كمان سمعها، وبندور على رئيسة التمريض. على فكرة الظاهر إننا غلطنا،، اتحركنا متأخر جداً، وكان المفروض يحيى يطلب الأشعة من بدري.

ـ كانت هاتقابلنا نفس المشاكل أو مشاكل تانية من نفس العينة، مش وقت لوم يا أماني.

ـ طيب.. عموماً أنا خدت أجازة يومين، بالكتير بكرة أو بعده هاطلع على مستشفى الأجواء. اتصلي يا أماني قبل المشوار ده.. ضروري، أو حتى نتقابل في أي مكان قرب الطابور.

ـ اتفقنا.. سلم لي على يحيى لغاية ما نتقابل، واشترِي له تليفون محمول.. أنا بصراحه زهقت.. مش عارفه اتصل بيه، سلام.

طابت نفس يحيى بعض الشيء من ناحية إيهاب، ليس شديد الفضول كما تصوّره. من المحتمل أنه أخطأ في ظنّه به وربما بالغ بعض الشيء في الانزعاج من صخبه، أو ربما هو ذاك الطنين المستمرّ في جانبه، المنقار الذي سوف يثقبه ويخرج منه، والذي يجعله مستثاراً لأقل همسة أو إشارة. لم يظهر إيهاب حتى ظهيرة اليوم التالي، لكن يحيى لم يستشعر القلق، اعتراه مزاج غريب؛ تضاءلت الأشياء كلها أمامه بمجرد أن استيقظ وأصبحت غير ذات قيمة.

داعبته رغبة أثيرة في أن يتحرّر ولو قليلاً؛ أن ينبذ ما اعتاد فعله على نحو آلي، ويكسر ملل أسابيع طويلة لم يعد مكترثاً بأن يحصي عددها. وضع علامة على الأرض في مكانه، وأوصى الواقفين بها، وقرر أن يكون هذا الطقس الذي تمرّس عليه في الطابور هو آخر عمل تقليديّ يقوم به خلال نهاره. أيقظ ناجي من نومته، وأفضى إليه بحنينه إلى التجول في وسط المدينة لبعض الوقت. انتصب ناجي واقفاً من وضع الانبعاج، مسح وجهه بذراع القميص الذي يرتديه ومرر أصابعه في شعره، وبدا على أهبة الاستعداد، لم يصدق أن يحيى سيعاود الخروج ثانية بعد رحلته الوحيدة التي وضع نهايتها الخائبة طارق. سارا متجاورين، وأحياناً يتأبّط أحدهما ذراع الآخر، واتجها دون سابق اتّفاق صوب المقهى القديم. هذا المقهى الذي دأبا على التلاقي فيه حين كانا يرتادان الجامعة للدراسة؛ لم يزوراه

منذ سنوات مضت، وإن وصفته الأنباء المتطايرة مؤخراً بأنه صار يشبه الأطلال، لكثرة ما حَطَّ عليه مِن هجمات.

كانت رائحة الهواء الدافئ القادم في وجوههما من ناحية المقهى مشبعة بنكهة لاذعة، تجلب إلى الأنوف مخاطاً سائلاً، أما المشاهد فقد تشابهت مع ما رأياه في الطريق إلى منزل أماني، عدا بعض الاختلافات الطفيفة. ظهرت الأرض مدكوكة ومهروسة في مواضع شتى، بينما الشروخ العميقة سارحة في الإسفلت، تصنع وحدها شوارع أخرى، كما وقعت أعينهما على أحجار كثيرة، لا تبدو بألوانها الكرنفالية منتمية إلى هذا المكان لكن لا دليل على مصدرها.

في المساحات بين الأحجار، عبوات صفيحية فارغة، متناثرة بطول المسافة إلى المقهى. لا شيء مما يحفظانه في الذاكرة موجود في مكانه سليماً متناسقاً، إلا السيدة المتسوّلة التي يعرفانها معرفة وثيقة منذ أيام الجامعة. حين اقتربا لمحاها هناك في مكانها المعتاد، أسفل اللافتة البنفسجية لا تزال، لكن أشياءها التي كانت ثابتة تغيّرت وتحوّرت قليلاً، صار أمامها نوط ذهبي مُعَلَّقٌ في شريط داكن الزرقة، وبجانبه أكياس المناديل الورقية، وموقد الجاز القديم وكوب من الشاي.

فكّر ناجي أنها قد نالت النوط التشريفي لرفضها مغادرة الموقع أثناء عمليات غمر الشارع بالروائح والغازات، شاهدها الناس وهي متربعة في مكانها لا تتحرك شبراً واحداً ولا تحاول الاختباء؛ تضع على رأسها خوذة وتتدلى من عنقها كمامة سوداء، ومن حولها

يجري بشر كثيرون، وقد بلغت بسالتها مبلغاً عظيماً، حيث ظلّت تمدّ يدها أمامها طيلة الوقت، في إشارة تَسَوُّلية ذات دلالة واضحة، فالعمل لا ينبغي أن يتوقف مهما كانت الظروف والتضحيات. كانت لاشكّ تدرك أن الاقتصاد عصب الحياة وأن عجلة الإنتاج والبناء لاينبغي أن تتوقّف عن الدوران حتى في أحلك الأوقات. ابتسم لخواطره ساخراً، لو لم يكن قد اتخّذ قراره العنتري ـ الغبي كما يعترف أحياناً ـ بالاستقالة من التدريس في الجامعة، حيث لا يحضر الطلاب بكامل عددهم إلا في فيما ندر، ولا يُرجى من المحاضرين الكثير، لقدّمها إلى النجباء منهم كنموذج قَيِّم، ولطلب منهم إجراء دراسات حول فلسفة الزمان والمكان، والوجود المادّي، ثم كتابة ورقة مختصرة يختار لها عنواناً موحياً ولطيفاً: «سيدة الكمامة».

إعلان البوابة

منذ أن وَعَيا لوجوده، لم يكن جهاز التلفزيون المرفوع على رفّ خشبي سميك داخل المقهى، سوى إذاعة مستمرة لمحطّة واحدة، لا يمكنه التقاط غيرها، هكذا أعلن الصبي مراراً، أو ربما كان حمُّود يدّعي طيلة الوقت أن الجهاز خَرِبٌ، حتى يستبقي تلك المحطّة، دون أن يعطي ساكني المقاعد الحق في طلب تغييرها. ثنى يحيى مفصل ركبته اليمنى ببطء تدرّب عليه، ومال ناحيتها بجذعه، ثم أسند طرف مؤخرته النحيفة إلى طرف الكرسي الخشبي، وترك الوجع يبلغ مداه للحظات، حتى اطمأنّ إلى قدرته على التحمّل دون تأوّه أو صراخ، فألصق مؤخرته كاملة بالقاعدة الخشبية غير مشذبة الحواف، وفرد قدمه اليسرى قليلاً. لم تكن خسائر المقهى جسيمة، تصدّع بعض الزجاج، وفقدت بعض الكراسي قدماً أو أكثر، وسقطت لوحة فنية عتيقة، أو اثنتان، من مكانهما على الحوائط. أطلّ ناجي برأسه داخل المقهى فلم يلمح حمُّود، لم يكن هناك سوى عدد محدود من الزبائن يُحَدِّق في الشاشة، بينما استقرّت صناديق الطاولة وأقراص الدومينو دون لاعبين. أرسل بصره محقّقاً في الصورة، ثم وضع يده

على كتف يحيى مُنبِّهاً؛ كانت البوابة شاخصة بكامل زينتها في جهاز التلفزيون، والصوت الإعلاني يصدح في حماسة وبِشر:

«أيها المواطنون الأحباء، تسهيلاً على الراغبين، سوف تقدم لكم البوابة خدماتها المتميزة طيلة أيام الأسبوع، يومياً من الساعة السابعة صباحاً وحتى الرابعة مساءً، يرجى استكمال الأوراق قبل حجز المكان، وتسليمها في المنفذ، والحرص على الاحتفاظ بالإيصال الموقع من الموظف المسئول لإثبات الجدية. بالنسبة إلى المتقدمين للحصول على شهادات الصلاحية، يُرفَق الطلب بخطاب رسمي مُوَثَّق من مَحَلّ العمل أو الدراسة، يفيد الغرض من طلب المستند واسم الجهة التي سوف يرسل إليها، وكذلك إقرار باستحقاق الحصول عليه.
لا ترددوا في الاستفسار والاستعلام على الأرقام التالية (...)..

استغرق الإعلان حتى نهايته سبع دقائق كاملة، حسبها ناجي على ساعة يده متنمّراً، وقد ذُيِّلَت الشاشة في الختام بعبارة واحدة لم يسمعها أحد من الجالسين، إذ لم تكن على الشريط الصوتي للإعلان: «مع تحيات: لواء سابق زكي عبد العال حامد رئيس المبنى الشمالي».

ابتسم ناجي مشيحاً بوجهه إلى الجهة الأخرى. ابتدعت البوابة تلك الإعلانات بعد ظهورها بفترة بسيطة، وسوَّقتها على عدة قنوات. لم تلبث أن أنشأت قناة خاصة راحت تبثّ جميع الأخبار المتعلّقة بها، وكذلك بعض الفتاوى المرتبطة بتلك الأخبار، وأعقبتها بتسجيل مجموعة من الرسائل الموجّهة إلى المواطنين

مباشرة. بعد ذلك أخذت القناة تذيع القوانين والقرارات الجديدة التي تصدر عن البوابة تباعاً، ومنعتها عن القنوات الأخرى، ثم قرّرت أن تعرض على شاشتها أيضاً أسماء أصحاب الطلبات والتصريحات المقبولة في نهاية كل أسبوع، فجذبت نسبة كبيرة من المشاهدين، الذين وجدوا تسلية كبرى في معرفة المحظوظين منهم، والمرفوضين، وقد أصدرت البوابة بعد ذلك قراراً بمنع أية إعلانات أخرى على شاشتها عدا إعلاناتها، وفرضت على القنوات الأخرى إذاعتها، كما أجبرتها على إعادة بث الرسائل التي تم تكثيفها في الآونة الأخيرة وخاصة بعد وقوع الأحداث المشينة. أذعنت بعض القنوات ورفضت أخرى، وفضلت أن تنسحب وتغلق مكاتبها. لم تفعل البوابة المثل مع قنوات الراديو فقد تكفّل القائمون على محطّاته، والمواطنون والمواطنات المداومون على الاتصال ببرامجه، بتحقيق مقاصدها.

ظهر حمُّود بعد نصف ساعة تقريباً، يحمل صينية المشروبات، توقّف أمامهما مندهشاً بحقّ، لم يتوقع أبداً أن يجدهما أمامه بعيداً عن البوابة. لامه ناجي على الاختفاء المفاجئ، والتخلّي عن قاطني الطابور دون إنذار أو تلميح، لكن حَمُّود الذي اعتذر بانضمامه في تلك الفترة إلى عمّال التركيبات، وبسوء الأحوال وخطورتها، أعلن لهما هو الآخر عن قرفه ممّا آلت إليه الأوضاع، وخَصَّ بالاستياء تصرّفات أم مبروك التي اغتصبت حقّاً ليس لها: «مالها هي ومال الشاي والقهوة، هي مش واقفه زي كلّ الواقفين في الطابور، تقطّع علينا بأمارة إيه؟» اتّهمهما بالمشاركة معها في المؤامرة التي أوقعت به وبصاحب المقهى ظلماً فادحاً، إذ فقدا في فترة قصيرة، عدداً

كبيراً ومؤثّراً من الزبائن المستديمين لصالح أم مبروك، وقد كان في الإمكان أن يصبر الناس بعض الشيء حتى تعود الأمور إلى وضعها الطبيعي، وتهدأ المنطقة، ويفتح المقهى أبوابه مرة أخرى، لكن الكلّ التزم الصمت ولم يفكّر أحد في ردع أم مبروك، بل شجّعها أغلبهم على التوسّع والتمادي. انفعل حَمُّود حتى كاد غضبه أن يدفعه إلى التعدي عليهما وربما طردهما، لكنهما نجحا بفضل أريحيّة يحيى في امتصاص ثورته، ثم أحالا الأمر إلى وصلة من المزاح ردّا بها الهجوم إليه، وشاكلاه بأنكى مما فعل؛ فقد تطرّق ناجي إلى عبوات الشاي ذات الأسماء المعروفة، التي تغيّر مذاقها على يديه، والتي اكتشفوا بمحض الصدفة أنه يمزجها بمسحوق أسود مجهول المصدر والمحتوى، وأنه يفعل المثل في غالبية المشاريب. قالا له متغامزين إن هذا هو السبب الحقيقي وراء دعمهما لأم مبروك. لان حَمُود ضحك دون أن يُعَلِّق أو ينفي، ثم ذهب لإحضار طلباتهم: قهوة مضبوطة في أكواب زجاجية، بدلاً من الفناجين التي اشتهر بها المقهى في المنطقة.

مر بهما رجل يرتدي جلباباً تقليدياً ذي خطوط طولية، ويلف حول جذعه رباطاً جلديّاً عريضاً، عَلِقَت فيه كومة كبيرة من الصحف. كان مظهره مثل قدامى البائعين، لكنه لم ينادِ على بضاعته كعادتهم الأصيلة. مضى بليداً، وكأنما نفدت منه العناوين المثيرة التي تجتذب الناس للشراء. رفع ناجي يده زاعقاً على الرجل الذي لم يبدُ مهتماً بوجود زبائن، استدار في بطء وعاد إلى حيث يجلسان على مضض وكأنما ودّ لو لم يسمع النداء. سأله يحيى عن مجلة اقتصادية شحيحة الوجود، لا يَصدُر منها إلا في عدد قليل جداً من

النسخ، بينما طلب ناجي عدداً واحداً من كل صنف من الجرائد والدوريات التي يحملها معه، لكن الرجل اعتذر لهما بملل إذ لم يكن يبيع إلا جريدة «الحقّ» فقط.

ألقى ناجي الجريدة على المنضدة الحافلة ببرك صغيرة من المياه، فبدأت الحواف تتشربها وتلين وتشفّ الصفحات المختبئة. وصلت القهوة، فدفعها جانباً ليفسح مكاناً للكوبين، بينما أفلتت من حَمُّود نصف ابتسامة خبيثة وهو يراها مبتلّة مهندمة، وملتصقة ببعضها، دون أن تظهر عليها علامات القراءة المألوفة. كان العنوان الرئيسي في الصفحة الأولى «تعديلات جديدة على القرارات والقوانين»، ثم عدة سطور مختصرة عن الخبر، وإشارة إلى وجود النصّ كاملاً بالداخل. وقعت عينا ناجي في منتصف الجريدة تماماً على عنوان مألوف: «التصريح باستخراج ونزع رصاصة»، أدرك أن المادة 4(أ) قد اختيرت ضمن المواد التي خضعت للتعديلات. لم يتم تغيير نصّها الأصلي وإنما زيد عليه نصٌّ آخر. اعتدل في جلسته وقرأها باحتراس لكنه لم يفُه بشيء، والحقيقة أنه لم يشأ أن يفسد على يحيى اعتدال المزاج النسبي الذي طرأ عليه، فطوى الجريدة، وأزاحها إلى مقعد بعيد، وصَفَّقَ لحَمُّود: «واحد قهوة كمان وشاي بالنعناع.

عاد الصوت الإعلاني مرة أخرى بعد أن تركا المقهى بأقل من ساعة، لكنه صار أكثر جدية وصرامة، وظهر صاحبه في سترة أنيقة وربطة عنق رمادية بها خطوط مائلة، وقد علت وجهه علامات الوقار. نَوَّه من خلال الفقرة الإخبارية عن ورود عدد من القرارات

الهامة التي تم اعتمادها مؤخراً من البوابة، قام بإذاعتها على التوالي، وأفرد للمادة 4 (أ) مساحة خاصة في نهاية قراءته، حيث أكد أن البند المستحدث 4 (أ) مكرر، وهو بالمناسبة بند مُلزِم بمجرد صدوره، يأتي متماشياً مع الروح الجديدة التي تُعلي من شأن المبادئ الأخلاقية ورقابة الضمير، وأن إضافته جاءت كاستجابة مباشرة للتطورات التي شهدتها البلاد في الفترة الماضية:

«لا يتمّ منح التصريح باستخراج ونزع رصاصة، إلا إلى كل من ثبت بحقّه دون ريب، وبالأدلة القاطعة، الالتزام التام بالأخلاق والسلوكيات القويمة، وصدرت له شهادة رسمية بصفته مواطنًا صالحًا، أو كحد أدنى مواطنًا حقيقيًّا، ولا يُعترَفُ مطلقاً بالشهادات التي لا تحمل توقيع المَنفَذ وخِتم البوّابة».

مضى الصوت يتلو الحيثيات والضوابط، ثم استعرض بقية الأنباء التي لم يكن فيها أي جديد، بينما مسح حَمُّود المنضدة وجففها ببضعة أوراق انتزعها من الجريدة التي تركاها وراءهما. رفع صوت التلفزيون قليلاً وعدّل من الصورة. كان يدعم الجنيهات التي يتسلمها من صاحب المقهى، بجنيهات أخرى أكثر عدداً، مقابل الاحتفاظ بتلك القناة لأطول وقت ممكن.

* * *

تشاور ناجي مع إيهاب في مسألة التعديل الأخير دون أن يخبرا يحيى، لا ينقصه إحباط فوق ما لديه، ولا فائدة تُرجى من إعادته إلى حالة الكآبة والقنوط، التي خفتت قليلاً في الأيام الماضية. صار عليه الآن أن يضيف إلى أوراقه ورقة ثانية قبل أن يُنظَرَ في أمر

إعطائه التصريح؛ بات الأمر أكثر تعقيداً وصعوبة، وسوف يستغرق بالتأكيد وقتاً أطول. اقترب يحيى منهما فكفّا عن الكلام.

ـ ألفت لسه مش ظاهره يا إيهاب؟

ـ ما تقلقش أنا مش ناسي الموضوع.. لو هي حقيقي في الطابور هاعرف لك مكانها، كلفت مجموعة من معارفي يدوروا عليها، وأكيد هايوصلوا لها.

هزّ يحيى رأسه راضياً، ثم أخرج من جيبه ورقة باهتة مربّعة تشبه أوراق الإيصالات الميري وحكى أنهم أخذوا منه البطاقة الخاصّة بعمله في المؤسسة رغم انتهاء تاريخها، وأن الموظف قد صَوّرَه مرّتين وقال إن الخطوة الوحيدة المتبقية هي إجراء المقابلة الشخصية في البوابة. فإذا وافقت على منحه شهادة الصلاحية، فسيتم ضمّها تلقائياً إلى الملفّ الموجود لديهم، إلى جانب بقيّة الأوراق والمستندات، ثم يبدأ بعد ذلك النظر في طلب الحصول على التصريح.

بُهِتَ ناجي وضحك إيهاب مُعجَباً، لم يُخَيِّب يحيى ظنّه، فرغم القتامة التي تغمره حتى أطراف أصابع قدميه، يتحرّك يحيى دائماً في الاتجاه الصحيح، لا يتردّد ولا ينتظر المساعدة أو حتى المشورة ممن حوله. عرف بأمر التعديل واتخذ قراره بالمضيّ في الإجراءات، ونفّذ دون أن يدري أحد، بينما هما لايزالان يتناقشان. عجيب يحيى هذا، مَنْ كان يراه منذ يومين مُنحَنِياً في مشيته، شاحباً تعيساً، يتصور أنه سوف يتخلى عن الأمر بأكمله ويستسلم كما استسلم الكثيرون، وضعفوا أمام الخوف والألم، وفيض الوعود والضغوط، وفوق هذا

كله أمام غواية البقاء على قيد الحياة، والنجاة من الأزمة. خضعوا للعمليات الجراحية بمستشفى الأجواء، وخرجوا منها كما كانوا قبل تاريخ وقوع الأحداث المشينة، بأجساد نظيفه من كل أثر، بلا طلقات ولا شظايا وربما بلا جروح أيضاً، لكن يحيى ليس مثلهم، هو شخص من نوع آخر، رجلٌ صلبٌ وعنيدٌ، وهو حتماً يدرك أهمية الرصاصة الميري التي صارت مسجونة في جسده. ربما لم يتبقّ سواه متشبثاً بإثبات ما جرى، حاملاً داخله الدليل الوحيد. نفض إيهاب خواطره بعيداً وعاجلهما بعباراته وأسئلته السريعة:

- خير ما فعلت يا يحيى.. السرعة مطلوبة في الأحوال الملخبطة اللي احنا فيها دي.. علق يحيى مبتسماً:

- المهم البوابة تفتح، كل حاجة دلوقت بقت متوقفه عليها.

سأل إيهاب:

- يا ناجي كلمت أماني ولا إيه؟.. أنا مُصِرّ أكون معاها وهي رايحة المستشفى.

- اتصلت بيا، واتفقنا أقابلها أنا ويحيى بكرة الضهر في الكافيتريا اللي جنب القهوة.

- جميل، اوعي تنسي تقوليلي رايحة المستشفى إمتى عشان أحضر نفسي..

تركهما إيهاب ومضى يستكمل جولاته، بينما جلسا سوياً ينشدان قسطاً من الراحة قبل العودة إلى مكانهما. كان الطابور في هذا المحيط دوناً عن غيره يتشعّب ويتّسع، بحيث لم يعد أحدٌ مهتماً

بالتكهّن بحجمه أو طوله؛ عائلات بأكملها تأتي لزيارة الأقرباء الواقفين فيه، وأطفال يلعبون على الرصيف ويقذفون العسكري القابع في علبته الصفيح ببقايا الطعام، وقد عادت سيارات الميكروباص إلى معدل تواترها الطبيعي، وفتحت محطات الوقود أبوابها بعد انتهاء عمليات الغسل والإذابة، كما أنّ الحشرات لم تختفِ.

* * *

عندما عادا إلى مكانهما وجدا الشاب الأسمر الذي حمل الجنوبية العجوز. كان قد ظهر و أكّد أن أمّه بخير لكنها راقدة في المنزل، وطلب بمنتهى التهذيب أن يحلّ محلّها في الطابور، مُتَقَصّياً بدقّة عن الموقع الذي تركته. وافقت إيناس على الفور وسمحت له بالوقوف أمامها. مالت عليه تسأله فور أن رصَّ حاجياته واستقرّ، عن مدى اعتلال صحّة العجوز وسبب الغيبوبة التي تعرّضت لها، لكنه لم يكن ثرثاراً كشلبي، فلم يفصح سوى ببعض الردود المقتضبة وإن لم تخلُ من ذوق وكياسة، مما جعل إيناس تعيد أسئلتها مرّة بعد أخرى، محاولة - دون جدوى - الحصول على معلومات تُشبع فضولها. توالت زيارات الرجل ذي الجلباب إلى تلك المنطقة وتكرّر وقوفه فيها دون سبب واضح، وقد أعلن عن تأفّفه غير ذات مرة من الاختلاط المكروه في الطابور، ثم لم يلبث أن وجّه كلامه مباشرة إلى إيناس طالباً منها أن تستقيم في مكانها، وأن تمتنع عن التقدم والانحناء إلى الأمام بشكل متكرّر، وكذلك أن تُكثِرَ من الذكر، حتى يستجيب الله لها ويقضي حاجتها من البوابة.

صادف إيهاب المرأة ذات الشعر القصير خلال لقاء صحفي عقده بالقرب من أم مبروك. حيّاها بلطف وتودّد وقد تذكّر لقاءهما الأول، ثم بادرها مازحاً بأن الحقيبة التائهة لازالت أغلب الظن تائهة؛ فقد بقيت في حوزة الرجل ذي الجلباب، بعد أن اتفق الجميع على ذلك. أتبع جملته بضحكة كبيرة متوقعاً أن تشاركه فيها، لكن المرأة لم تقبل المزاح، ولاح عليها عدم الرضا. كانت تأخذ الأمر على محمل الجد، وقد أحسّت أنه خذلها ولم يتصرف بما يليق بصحافي حقيقي ذي مبادئ ومهارة، رغم أنها كانت تتوسّم فيه الكثير. تزايد الجمع حولهما، منقسماً ما بين شاربين وآكلين في جانب، ومضطجعين في انتظار أدوارهم لدى أم مبروك في جانب آخر. أعرضت ذات الشعر القصير عن مجادلته في الأمر، وهزّت رأسها محبطة، ثم ألقت نظرة على ساعة يدها، وحملت الراديو الصغير الذي لا تفارقه، مستأذنة في العودة إلى مكانها.

* * *

قضى إيهاب ليلتين خارج الطابور، ثم عاد في الصباح الباكر، وفي يده نسخ من الجريدة التي يكتب لها، وقد نشرت له تحقيقاً هاماً حول القرارات والقوانين التي خضعت للتعديلات سواء بالحذف أو الإضافة. أجرى عدة مقابلات وحوارات مع المهتمين بالأمر، وذكر أنه رغم الصياغات الدقيقة التي روعيت أثناء كتابة المواد والبنود المعدلة، إلا أن منها ما دفع بعض الناس إلى الاستياء، وواجه اعتراضات قوية. أورد البند 4(أ) مكرّر كنموذج واضح، وقال إنه أثار لغطاً شديداً، خاصة من جانب الجماعات التي تتبنى

أفكاراً متعلقة بحقوق الناس ومعيشتهم. أشارت تلك الجماعات إلى ما أسمته بالتعنّت والتعقيد، وقالت إن هناك مصاعب كثيرة تقف أمام تطبيق هذا البند على أرض الواقع، منها على سبيل المثال لا الحصر؛ تلك الحالات الحرجة التي لن يتمكّن أصحابها، وهم يعانون من وجود مقذوفات نارية في أجسامهم، من تقديم طلب وانتظار تقييم سلوكهم وإثباته، ثم استكمال الأوراق للحصول على تصريح بإجراء الجراحة.

انتهزت مجموعات أخرى الفرصة، ووجهت انتقاداً واضحاً للمادة 4 (أ) برمتها، أي قبل التعديل وبعده، وهو انتقاد يبدو موضوعياً لا تحيّز فيه، فقد أشارت إلى أن مستشفى الأجواء، وهو المستشفى الوحيد المستثنى من شرط التصاريح، به عدد محدود من الأسرّة، وفي حال تجدّد الأحداث المشينة أو وقوع اضطرابات أخرى، قد لا يتمكّن من استقبال المصابين كلهم، فيضطرّ بعضهم إلى التسلّل وطلب العلاج في مستشفيات أخرى مجهولة وغير آمنة، لتبدأ سلسلة أخرى من المشاكل. أورد إيهاب في نهاية التحقيق مُقترَحاً أُرسِل له على مقر الجريدة، يناشد صاحبه البوابة أن تفتتح أفرعاً معتمدة لها وللمنفذ، داخل عدد من المستشفيات المنتقاه، بحيث تصبح الإجراءات أكثر يسراً وسهولة، وبالتالي توقف المتزيدين عند حدودهم وتغلق الأبواب أمام القيل والقال، ويحتفظ القتلى والمصابون بحقوقهم كاملة مصونة.

* * *

اكتشفت أم مبروك شيئاً فشيئاً أنه إلى جانب المأكولات الخفيفة

والمشروبات وتليفونها المحمول، الذي كان يجتذب في بعض الأحيان طوابير فرعية من الواقفين، فإن وجود المرأة ذات الشعر القصير في منطقتها كان يجلب دائماً زبائن أكثر. بقيت تراقبها عن كثب، فتبين لها أن توافد الناس وتكالبهم لا علاقة له بوجودها في حد ذاته، إنما بذلك الراديو الذي يصنع جواً لطيفاً و مثيراً في بعض الأوقات من حولها، بل إنها قدرت أيضاً أن وجود الراديو يحث الواقفين على تناول مشروبات أكثر، وأحيانا على شراء البسكويت والبطاطس المعبأة. بناءً على ملاحظتها أخذت تستقبل المرأة كلما أتت بود بالغ، وتحاول استبقاءها بشتى الوسائل والحيل، وأخيراً قدمت لها عرضاً سخياً رجتها أن تقبله على سبيل التجربة؛ قالت أم مبروك إنها سوف تقدم لها أكواب الشاي المجانية طيلة الوقت الذي تقضيه معها شريطة أن تحوّل محطة الراديو تبعاً لما يفضله أغلب الواقفين، لا وفق ما ترغب هي في سماعه.

حملة المقاطعة

سرت حملة واسعة النطاق لمقاطعة شبكة المحمول البنفسجية بعد أن انكشف أمرها، فقد تبين للواقفين في الطابور أن تليفوناتهم المغلقة صارت تنقل الأحاديث الدائرة بينهم، دون أن تُستَخدَم، إلى جهاز استقبال موجود في المنفذ بتقنية ما. أكد إيهاب وفقاً لمعلومات فائقة السرية تم تسريبها إليه، أن الموظف القابع هناك يقوم بإرسال الحوارات التي يظن أنها تحمل درجة من الخطورة إلى القبو مباشرة، حيث تخضع لعملية دراسة دقيقة ثم تُصَنَّف وتُضَمُّ إلى ملفات أصحابها، كما تُتَّخَذُ حيال بعضها إجراءات وتدابير فورية. أوضح إيهاب أيضاً أن فترة انقطاع الإرسال والاستقبال عن الأجهزة جميعها، كانت فيما يبدو مجرد فترة اختبار جرّبت الشركة أثناءها إدخال وتشغيل خاصية التنصت على جميع المشتركين، لكنها عملت بشكل وقتي لا يصلح فنياً للاستمرار. بعد ذلك انتقت الشركة، بمساعدة متخصصة أهم الحوارات المسجلة وأكثرها غموضاً وإثارة للشكوك، وكذلك تلك التي ورد فيها ما يمس أمن البوابة، وقررت أن تُخضِعَ أصحابها إلى خاصية التنصّت المستمر، وأن توزع على البعض منهم خطوطاً وأجهزة مجانية.

أيّدت إيناس كل ما ذهب إليه إيهاب بالدليل القاطع، وحكت ما تعرضت له هي شخصياً، وقد أسرّت للمرأة ذات الشعر القصير، وهي تشرب شاي الظهيرة، بالحديث الذي دار بينها وبين شلبي والذي فوجئت به مكتوباً بالكلمة والحرف، واستشهدت بأم مبروك التي أكدت الواقعة، بينما أخرج إيهاب الأوراق التي احتفظ بها، والتي حوت نصوص الحوارات وعليها ختم المنفذ وتأشيرة الموظف، ودعا من يرغب للاطلاع عليها. استتبع هذا الكشف وما تلاه من دلائل أخرى، أن كفّ الواقفون عن استخدام تليفوناتهم وكذلك تليفون أم مبروك، إلا فيما ندر، فأعلنت بدورها عن انضمامها للمقاطعة، ونزع لها مبروك بطارية التليفون وحملها معه إلى المنزل، وقد أعجبها الموقف وتحمست له، وراقها أن تشارك فيه إيهاب وأصحابه، فراحت تحكي الجزء الذي حضرته بنفسها لزبائنها الجدد، وتضيف إليه بعض المشوّقات.

اكتشف الناس تدريجيّاً أن هذه الخاصية انتشرت، ليس في الطابور فقط بل في عدة مناطق أخرى، ولم يعد معروفاً إن كانت لاتزال سارية على الجميع منذ انقطاع الشبكة وعودتها، أم أنها اقتصرت على الخطوط المجانية، أو على هؤلاء الذين نُقِلَت حواراتهم إلى القبو. في غضون أيام أصدرت شركة المحمول البنفسجية، التي دأبت على تقديم الهدايا للعملاء، بياناً نشرته كل الصحف، تبشر فيه المواطنين بتلك الخاصية الجديدة المتفوقة التي ستجعل زبائنها أكثر تَمَيُّزاً، والتي سوف يتم الإعلان عنها في مهرجان قريب. حذرت الشركة في بيانها أيضاً من معلومات كاذبة يرِّوج لها منافسوها الأقل حظاً، ولا تستهدف سوى الإساءة إلى

سمعتها، وحرمان شريحة كبيرة من أصحاب المرتبات المنخفضة والفقراء من الانتفاع بخدماتها المجانية. انتشرت في ذلك الوقت شائعات قوية عن اختفاء بعض المواطنين الذين سُجِّلَت حواراتهم، وقيل إنهم قد استدعوا إلى القبو، وإنهم لم يعودوا من هناك ثانية. خلفت الشائعات توتراً ملحوظاً على الجميع، وتداول الواقفون أسماء الأشخاص الذين اختفوا ومواقيت اختفائهم، ووُزِّعَت منشورات تحمل صورهم ومناشدات لإعادتهم سالمين. رغم أن جميع المختفين كانوا من خارج الطابور، لكن الأمر كان مربكاً إلى الحد الذي أفقد معه إيناس تأييدها الجارف للمقاطعة، خاصة وقد كانت أحد أبطال الاكتشاف، ومن أوائل فاضحيه. انكمشت على نفسها، وكفّت عن شرب الشاي لدى أم مبروك، وبدأت تتكلم في تحفظ شديد.

قادت ذات الشعر القصير حملة المقاطعة بنجاح واضح، دون أن تفت في عضدها المعوقات. انضم إليها الطابور بأغلبية لا بأس بها، وساعد المتحمسون على جذب آخرين من أماكن بعيدة نسبياً، حتى أنها فكرت في مد الدعوة إلى مناطق خارجية. مع ذلك ورغم تنامي الحملة، لم تحو الجرائد التي كانت تصل هناك إشارة واحدة عن أية خسائر منيت بها الشركة، وقد تصدَّر اسمها ورمزها البنفسجي اللامع عدداً من الصفحات الإعلانية الكاملة، كما ظهر خبر كبير الحجم في جريدة «الحق» احتل نصف الصفحة الأولى تقريباً، عن احتفال السيد/ زكي عبد العال حامد رئيس الشركة، بتجاوز عدد عملائها نسبة الثلاثين بالمائة من تعداد السكان، وهي النسبة التي خولتها احتلال المركز الأول بين شركات الاتصالات

بتفوق ملحوظ، إذ لم تتجاوز أقرب الشركات إليها نسبة الخمسة بالمائة فقط.

احتوت الصحف اليومية والمجلات على أخبار كثيرة جداً، وحماسية، عن مقاطعة أخرى دعت إليها لجنة الإفتاء والتبرير، حيث تبين لها أن مصنعاً من مصانع الحلويات، له سلسلة محلات ذائعة الصيت في العديد من المناطق، ينتج أقراص «مشَبِّك»، يمكن أن تُقرأ فيها بقليل من الجهد والتركيز كلمة تشبه لفظ الجلالة، وقد قالت اللجنة في بيانها الداعي لمقاطعة المصنع، أن تعريض اسم الجلالة لعملية الأكل والهضم، هو منتهى الافتئات على مكانة الدين، مما يستأهل حملة كبرى في أرجاء البلاد.

انضم إلى تلك المقاطعة شلبي، الذي تَعَرَّف على اسم المصنع فوق قرص حلوى أتى به مع بعض التسالي من دكان صغير في بلدته، وقد قام على الفور بالتخلص من الحلوى، وإحراق غلافها مستغفراً ومتعوَّذاً وسط صيحات التكبير، والتهاني، التي تلقاها لتحقيقه أول انتصار على صاحب المصنع. سبقه إلى المقاطعة الرجل ذو الجلباب، وانضمت إليهما أيضاً أم مبروك التي طلبت من عِبس أن يكتب لها على لافتة من الورق المقوى: «لا نبيع منتجات مصنع الأمل»، ثم وضعتها بين حجرين أمام البسكويت. تبعتهم لاحقاً مدام ألفت رئيسة التمريض، التي ظهرت أخيراً في مقدمة الطابور.

* * *

أصرّ يحيى على قطع مسافة كبيرة حتى موقع مدام ألفت. حاول

ناجي أن يذهب بدلاً منه حين وصل الخبر، لكنه لم يفلح، رفض يحيى ومضى في طريقه فور أن تأكد من ظهورها، مؤثراً أن يلتقيها ويتعرف عليها بنفسه. وصف له إيهاب امرأة خمسينية قصيرة، متوسطة الامتلاء لكنها عريضة الكتفين، ترتدي غطاء شعر رقيق مكوَّن من طبقة واحدة، ولا تضع على وجهها أية مساحيق سوى خطّ سميك من الكحل يرسم عينيها. قال له أيضاً إنها ترتدي بنطالاً واسعاً وسترة طويلة رمادية اللون تصل إلى ركبتيها، وحذاء كاوتشوك على غير عادة النساء.

لم يكن التعرف عليها صعباً، وجدها واقفة بالقرب من المقدمة بالفعل، لا تشارك في الأحاديث الدائرة لكنها تنصت في انتباه واضح لكل ما يقال، وقد لاح عليها الترقب وعدم الارتياح للجو العام. وقف يحيى لدقائق يتابعها من بعيد، بدت له شخصية صارمة شديدة الحزم على الرغم من جمال ملامحها وصفائها. تُرى ما الذي قد يدفع بامرأة مثلها إلى ترك العمل بعد أن وصلت إلى تلك المرتبة المتميزة؟ ما الذي يمكن أن يحرضها على مغادرة مكتبها، وبيتها، لتقف مثله في الطابور؟ راودته أفكار واحتمالات كثيرة لكن إحساسه لم ينسجم مع أي منها، حاول أن يستشف ردّ فعلها تجاه زيارته المفاجئة، لكنه مَلَّ الاستنتاجات الفاشلة، ثم لم يلبث أن شعر بسخافة الانتظار دون هدف، فسحب نفساً عميقاً أحس بصداه في جانبه العليل، وتوجّه إليها.

ـ مساء الخير.

ـ مساء النور.. أفندم؟.

ـ اسمي يحيى جاد الرب، كنت نزيل في المستشفى اللي حضرتك بتشتغلي فيها.

ـ أهلاً وسهلاً، أي خدمة؟

ـ في الحقيقة دكتور طارق كان عايز الأشعة اللي عملهالي في المستشفى، لكن حضرتك أخذت إجازة.

قاطعته مدام ألفت:

ـ أشعة خاصّة بإيه بالضبط؟

ـ أشعة على الحوض.

ـ تاريخها يا أستاذ يحيى؟

ـ 18 يونيو.

فضل يحيى أن يترك الأمر لذاكرتها، وأن يتجنب ذكر أي لفظ ربما يكون مستفزاً أو مؤرّقاً، لكن المرأة قاطعته للمرة الثانية في لهجة حاسمة: آه، ده يوم «الأحداث المشينة»، يا أستاذ يحيى ما حصلش إن أنا استلمت أي أوارق أو أشعات في اليوم ده، لا بتاعتك ولا بتاعة أي مصاب تاني على الإطلاق، حتى الناس اللي اتوفوا اتنقلوا بسرعه على مستشفى الأجواء، أكيد حضرتك عارف الكلام ده.

اندهش يحيى للإجابة القاطعة، التي لم تترك أمامه مجالاً كبيراً للأخذ والردّ:

لكن دكتور طارق عمل لي أشعة، وشفتها بنفسي، وقال لي من فترة قصيرة إنها في عهدة حضرتك.

ـ مش حقيقي يا أستاذ، أنصحك إنك تقابله مرة ثانية.

شكرها منصرفاً، لم يجد في نفسه ميلاً للجدل ولا لإعادة الكلام أو التشكيك فيه، كأنه يعرف ردّها منذ البداية.. أُقفلت سِكّة طارق إذن بالضبة والمفتاح.

* * *

تأجل لقاء أماني بيحيى وناجي عدة أيام، بسبب الأحداث المتعاقبة التي لم تترك وقتاً لأي شيء، انشغل ناجي كذلك بحصر النقاشات التي اشترك فيها مؤخراً، كي يتبين موقفه من عملية التنصّت ومدى تورّطه في المناقشات، فلا يتفاجأ بما هو قادم. اتفقوا أخيراً على تناول الغداء في الكافيتيريا الواسعة المواجهة للمقهى.

بجانب النافذة الزجاجية الكبيرة، جلست أماني تطلّ من الطابق الأول على الشارع الضيّق، الذي بدا إلى حدٍّ ما نظيفاً. لم تتغيّر الكافيتريا كثيراً منذ المرة الأخيرة التي زارتها فيها؛ رائحة الفينيك، المقاعد الخضراء الداكنة، البلاطات الصغيرة التي لا تستعيد بياضها الحقيقي أبداً، وأواني الزرع الفخارية التي ذابت حوافّها من كثرة ما تلقّت من مياه، حتى عدد الزبائن يكاد يكون ثابتاً، هي نفسها اختارت المائدة التي اعتادت أن تشغلها. صرفت الجرسون مرتين في انتظار رفيقيها اللذين تأخرا عن الموعد، وقضت وقتاً تتابع حركة المارة النشطة وهي تتخيّلهما يتسكّعان كالعادة. استهلك يحيى وقتاً طويلاً في محاولة صعود درجات السلم، مستنداً إلى الدرابزين ومحمولاً بثقل جسده على كتف ناجي. ما تَصَوَّرَ نفسه

يوماً وهو يصعد السلم بهذه الطريقة، ولم يزل بعدُ في سنوات الشباب. مع الدرجة الأخيرة اشتدّ ألمه فتسمّر في مكانه للحظات ثم حرّر ذراعيه، ووضعهما جانبه وابتسم محاولاً أن يجعل تنفسه منتظماً، واتجه إلى مكان أماني دون أن يبحث عنها، وقف خلف مقعدها يربّت بيديه على كتفيها، ودافناً شفتيه بين خصلات شعرها في قبلة طويلة. عاد الجرسون إلى المائدة للمرة الثالثة بمجرد أن اتخذا مقعديهما وقد نفد صبره، كادت أماني أن تصرخ فيه مغتاظة، لكن ناجي الذي لحظ زمة شفتيها المميزة، والمُنذِرَة باستعدادها للشجار، طلب على الفور أطباق الفول والباذنجان والعجّة قاطعاً عليها الفرصة، بينما جلس يحيى ممسكاً بيدها وهو لا يزال يلهث.

طغت التطورات الأخيرة على الحديث، وقد تجمّعت لديهما حصيلة معتبرة من الأنباء الطريفة التي تقع في محيط الطابور، فأخذا يتبادلان سردها؛ اكتسبت السيدة ذات الشعر القصير عداوة صاحب الجلباب أكثر من ذي قبل، بسبب مواقفها المتتالية التي لم ترُق له، والتي استفزّه بعضها حتى تمنى إبعادها من المنطقة كلها، وأعلنت إيناس صراحة عدم قناعتها بمقاطعة الشركة البنفسجية، دون أن تذكر أسباباً محدّدة، بيد أن الكل رآها تبكي أكثر من مرة بعد استفحال الشائعات عن المختفين.

عاود ذو الجلباب الظهور بالقرب منها في أوقات مختلفة، وشوهد وهو يتحدث إليها طويلاً، لكن حديثه لم يكن مسموعاً لأحد. فقط كان بكاؤها يشتدّ في وجوده بعض المرات، وينحسر في مرات أخرى، وقد ظل هو الصوت الوحيد المسموع. لم تكن لدى

أماني أخبار جديدة عن المؤسسة سوى الغياب المتكرر لأم مبروك، الذي فسّره ناجي برواج حالها وانتعاش مشروعها في الطابور، لكنه توقع أيضاً أن تعود إلى المواظبة على مواعيد المؤسسة والالتزام بشروطها، نظراً للظروف الحالية التي أدت إلى تخلّصها من الهاتف، ومن ثم تراجع إيراداتها إلى حد كبير. استمرّوا يتناقلون الأخبار فيما بينهم دون توقف، كانوا فقط يصمتون في راحة عابرة ثم يستأنفون الحكايات، وقد عاقبهم الجرسون على التأخير في الوصول فتأخّر بدوره عن إحضار الطعام.

أجّل يحيى الإفصاح عما دار بينه وبين ألفت حتى النهاية، ثم لم يجد مفراً من البوح بعد أن سألاه مباشرةً إن كان هناك ما يخفيه. لم تصدّق أماني ما ذكرته رئيسة التمريض ليحيى، ووصفتها بأنها حرباء، بينما أصر ناجي على اتهام طارق بالكذب. لم يرجّح يحيى كفّة أحدهما على الأخرى، لكنه رفض بصورة قاطعة اقتراحاً بالعودة من جديد لمواجهة طارق بالمستشفى؛ لو كانت ألفت أو طارق أي نيّة لإعطائه الأشعّة لفعل، أمّا وهما ينكران أنها في حوزتهما، وما من إثبات يفيد وجودها، فالمواجهة كعدمها وربما تزيد الوضع سوءاً. تلاشى المرح الذي بدأوا به اللقاء، وضع كل منهم رأسه في مواجهة صحون الطعام التي جاءت وراح يفكر بمعزل عن الآخرين.

بعد أن استكملت الأكل ببطء، أعلنت أماني واجمة أنها استقرّت على الذهاب إلى مستشفى الأجواء في الصباح الباكر. أراد يحيى أن يُثنيها عن الفكرة للمرة الثانية، لكنها أنهت النقاش بحدّة، لم تكن في حاجة إلى تثبيط همتها تلك اللحظة، ويكفيها ما اعتراها من

الضيق والتوتر بعد ما سمعته من يحيى عن ضياع الأشعة بين طارق وألفت، حتى أنها احتفظت بنفسها على المقعد بصعوبة، وأخذت تتحرك إلى الأمام وإلى الخلف، وتتململ في جلستها وتفرك يديها وشعرها، ولولا أن موعد انصراف الموظفين قد مضى لتركتهما في التو إلى المستشفى وحسمت الأمر.

ساد الوجوم وغرق يحيى في أفكار متلاطمة. يعرف أنه لا حلول أخرى، لكنه دخل هذا المكان مرة واحدة في حياته، وهو يدرك جيداً أن ذهابها وحدها في هذه الفترة على وجه التحديد غير آمن. أصبحت الأوضاع أكثر عسفاً وتقييداً، وقد لا تتيسّر لهما الظروف، ومن المحتمل أيضاً أن تلفت الانتباه لأمره أكثر وأكثر بزيارتها، فتختفي الأشعة من هناك كذلك. تتضاءل الاختيارات أمامه، ويفقدها واحداً تلو الآخر. ضرب جبهته بباطن يده، وقد ذكّره موضوع مستشفى الأجواء بذاك الطبيب ذي الزي الرسميّ، الذي سأل عنه منذ فترة في المؤسسة، لم تكن لديها في الحقيقة أية معلومات أكثر مما أوردت في الرسالة، جاء غامضاً ورحل في دقائق قليلة، ولم يترك بطاقة ولا رقم هاتف، لا شيء سوى هيئته التي لازالت محفورة في ذهنها جيداً.

بدا ناجي تلقائياً إلى حدّ ما وهو يخبرها بتصميم إيهاب على اللحاق بها إلى مستشفى الأجـواء. كان مثل يحيى يخشى من غضباتها العنيفة التي تفور وتتأجّج سريعاً، لكنها خذلت توقعاته ولم تغضب وإن بقيت على توتّرها. هي الأخرى تخشى إفساد الفرصة وقد أصبحت أمل يحيى الوحيد، بعد أن سُدَّت المنافذ

الأخرى كلها. تعلم أن النجاح يتعلق بقدرتها على تسيير الأمر بشكل روتيني وتقليدي إلى أبعد الحدود، مجرّد طلب عادي، يشعر الموظف من أسلوبها في تقديمه أنه غير هام وألا خطورة من ورائه، وأن كثيرين مثلها سبقوا إلى إنهائه بلا عقبات. أكّدت فقط على أن يظلّ إيهاب بعيداً عنها طالما لم تكن هناك مشاكل وألا يتدخل إلا عند الحاجة القصوى، فرجاها يحيى بدوره وقد استعادت الجلسة بعض الهدوء والليونة أن تتجنّب ذلك الطبيب، الذي من الأكيد أنه يعرف وجهها هو الآخر. دفعت أماني الحساب متغلّبة عليهما بسهولة، هي الوحيدة وسطهم التي لا تزال تملك وظيفة ثابتة وراتباً شهرياً. وقف ناجي متأملاً المقهى من النافذة، بينما اتّجه يحيى إلى دورة المياه، تبوّل ثم تأمّل ملابسه، وأعادها إلى وضعها بعد أن أحصى دوائر الدماء المتداخلة، فوجدها قد ازدادت دائرتين عن العدد السابق، وضع رأسه تحت ماء الصنبور، ثم لحق بهما أمام الباب.

* * *

مع كل خبر جديد عن اختفاء أحد المواطنين، كانت إيناس تزداد هلعاً. لم تعد تتحرك من مكانها ولو لخطوات قليلة، تجمّدت قدماها على الأرض حتى أنّ أم مبروك صارت تبعث إليها بالفطور مع مبروك حتى لا تسقط جوعاً. لم تتصوّر أبداً أن يهاجمها هذا القدر من الخوف، وهي التي طالما اعتبرت نفسها على قمة الشجاعة والجلد؛ سكنت البيت الكبير وحدها منذ زمن، دخلت الجامعة وأنهت الدراسة في سلام دون أن تجد من يعتني بها ويتابعها، ثم

تقدمت للحصول على عمل فكانت أول من تم قبوله، وقد تخطّت، لمهارتها، زميلات الدفعة في التعيين والتثبيت والعلاوات، وعُرِفَت بسمعتها النقية في المدرسة وبمحبّة التلميذات، وإعجاب أولياء الأمور بالجهد المخلص الذي تقدّمه.

رغم هذا التاريخ الناصع، صارت تحمل بين عشية وضحاها سابقتين مفجعتين؛ أولاهما أتت بها إلى البوابة كُرهاً، ولا تدري أين ستذهب بها الثانية. لكنها قد تصبح عما قريب رقماً هامشياً في كتلة العاطلين. باتت تحلم في اليقظة بصورتها ذات الحجاب الفيروزي، مطبوعة على أحد المنشورات، توزعها أمّها في الطابور، ويتناقلها الواقفون متحسرين.

لو أصبحت السبب المباشر في عودة والديها من الخليج وخسارتهما للمنصب والراتب الرياليّ الممتاز، لما سامحاها في حياتهما. ربما تُطَلَّقُ أختها أيضاً، وتأتي بأطفالها ليعيشوا معها في البيت الكبير، وسوف تلومها بكل تأكيد على ما ارتكبت، رغم أنها لم تقصد ولو في خيالها، أن تصل الأمور إلى ما وصلت إليه، ولم تتعمّد أبداً أن تتقول على شلبي أو ابن عمه أو وحدة الحرس التي ينتميان إليها، ولو عرفت أن حديثها سينتقل إلى مكان آخر تقشعرّ لذكر اسمه، ما نطقت من الأصل وما تجاهلت نصائح أم مبروك.

الشيخ الأعلى

تلقت حملة مقاطعة الشركة البنفسجية ضربة قوية على يد الشيخ الأعلى، الذي أصدر فتوى هامة بعدم جواز الإضرار بالمصالح الاقتصادية للبلاد والعباد، وأورد فيها صراحة تأثيمه للمقاطعات التي تمسّ أعمالاً خدمية أو تجارة رائجة، يملكها أشخاص مؤمنون يتّقون الله في أفعالهم، لكنه أكد في الوقت ذاته على جواز مقاطعة كل من يسيء إلى الدين أو العقيدة بأي صورة، بل وجعل المقاطعة في هذه الحالة فرضاً واجباً. جاء في الفتوى كذلك، أن تواصل المؤمن مع أخيه المؤمن صدقة، خاصة إذا تحمّل في سبيله مشقّة أو خطراً.

كان الرجل ذو الجلباب هو أول من احتفي بفتوى الشيخ الأعلى، أحضر مُكَبِّراً للصوت، وخرج ليقف بمحاذاة الطابور وبدأ في قراءة البيان المطبوع الذي حمله في يده، وقد أغلق تليفونه المحمول ووضعه في جيب الصديرية الداخلي، حتى لا يلفت الانتباه، إذ اتهمته ذات الشعر القصير أمام الجميع، بأنه مشترك في شبكة تليفون أخرى، وبأنه يهاجم حملة المقاطعة، لأنه لم يتضرّر

قيد أنملة مما ارتكبته الشركة البنفسجية، ولأنه ـ وهذا هو الأخطر ـ يملك فيها أسهماً كثيرة.

أعلن في حماسة بعد أن انتهى من القراءة المتأنّية، أنه سوف يخصص درسه الأسبوعي التالي بمشيئة الله، لتعريف الناس بالفتوى وشرح أهميتها بالتفصيل، ثم حَثَّ الواقفين الذين شاركوا في حملة مقاطعة المحمول، على الحضور في الموعد المقرر، للاستماع والاستفادة، عسى أن يجعله الله سبباً في رجوعهم عن الغيّ واهتدائهم إلى الحق.

لم يسمع إيهاب الفتوى لكن النص وصله في ورقة باهتة ممزّقة الأطراف:

«لجنة الإفتاء والتبرير، الخامس من الشهر المبجّل..

تعلن اللجنة بعد اجتماعها اليوم.. أنها تتوجه إلى سائر الأمة بتلك الفتوى، حرصاً على سلامة البلاد واتقاءً للفتن وشرورها، وعصمةً للمؤمنين من الوقوع في معصية الله عز وجَلَّ، على المؤمن التأكد من الأنباء قبل تصديقها، وعلى من ادعى أن يأتي بالبينة، وإلا كان مفسداً... وأنه لا يجوز لمؤمن أن يقاطع أخيه ولا أن يتسبب في إيذائه مادياً أو معنوياً، ولا أن يدعو أحداً لمثل هذا الفعل،... إثم من الكبريات، إلا إذا كان من قبيل نصرة الدين. وَصْلُ المؤمن...، وهو أضعف الإيمان، من وجد أمامه... ولم يصل القربى كان عليه ذنباً يسأل عنه يوم القيامة،... إما بالصوم أو بسبع اتصالات متتالية لا يفصل بينها أكثر من شهر. هذا كتابنا ينطق عليكم بالحق، وفقنا الله وإياكم للصلاح والرشد، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

(توقيع الشيخ الأعلى وتاريخ غير واضح)».

طواها ووضعها في دفتره، ثم دوّن موعد الدرس في الصفحة الأخيرة، المليئة بمجموعة من الأرقام والتواريخ والأسماء، ومضى بنيّة الحضور وتسجيل ما سوف يتفضل به ذو الجلباب على مريديه، وما سيجيب به عن أسئلتهم وأسئلته هو، التي أخذ يكتبها أيضاً في الدفتر، ويضع أسفل ما يراه مهمّاً عدة خطوط.

* * *

أطال الرجل ذو الجلباب واستفاض بعد أن استعاذ من الشيطان ودسائسه، ودعا على أعوانه بالهلاك. انطلق في حديث شيّق عن ضرورة التحقّق والتثبّت من كل كلمة تقال، وأبان أن قرار المؤمن وسلوكه لا يُبنى على شك. لم يذكر كلمة واحدة إلا وأتبعها بالأدلة والأحاديث، وقد استمال قلوب القسم الأكبر من الناس، خاصة هؤلاء الذين قدموا من خارج الطابور للمرة الأولى. سالت دموع الكثيرين خلال الدرس ومنهم أم مبروك، إذ بدأت تدرك أن جزءاً من مشاكلها وعسر حظها ليس غضباً من الله عليها شخصياً، وإنما على الناس جميعاً بسبب هؤلاء الذين تخلوا عن تعاليم الدين واستسلموا لوسوسة الشيطان، وقد ازداد بكاؤها مع تلاوته نصّاً من الكتاب الأكمل يحذر من الافتئات على الآخرين بنقل أخبار كاذبة، ثم أحسّت مع الشرح أن الخطاب موجّه إليها مباشرة، فأضافت وصلات متتابعة من الدموع، وأقسمت في نفسها نادمة أن تتراجع عن مقاطعة المحمول، وأن تكتفي بحظر التعامل مع مصنع الحلويّات الذي رأت عليه الدليل الدامغ مع شلبي. أسبغ الرجل على الفتوى بعضاً من اجتهاداته الشخصية، فقال إن من حق

الأب ومن في منزلته ومركزه الاطمئنان على الأبناء بكل الوسائل المتاحة، وأن ذلك الأمر لا يعتبر تعدّياً على خصوصيّاتهم، واختتم الحديث بأنه لا يجوز للمواطن الصالح أن يُخفي عَن أولياء أمره شيئاً.

ظهرت إيناس في نهاية الدرس، وقد ارتدت غطاء رأس واسعًا أبيض اللون، يحجب صدرها ونصف بطنها، وحاولت بعد انفضاض الناس عن المقدّمة وتكالبهم على الرجل، أن تقدّم النصيحة إلى المرأة ذات الشعر القصير التي وقفت تتفرج من على بعد، آملة أن تثنيها عن المُضِي في حملتها، لكنها لم تصب أي قدر من النجاح. كثّفت الأخيرة من جهدها وطبعت في اليوم التالي منشورات مضادّة، تردّ فيها مزاعم ذي الجلباب وتؤكد استمرار الحملة، وقد ساعدها إيهاب في عملية الصياغة بأن صدّر المنشور بنصّ آخر من الكتاب الأكمل يحثّ على احترام الخصوصيّات وصونها وأَعَدَّ كذلك موضوعاً شيقاً عن الحملة وأسبابها وتداعياتها، وأعداد المنضمين إليها أسبوعياً، لكن الجريدة لم تنشر الموضوع، ووجهت له إنذاراً شفهياً لافتعاله أخبارًا غير صحيحة، كما نبّهه رئيس التحرير إلى ضرورة أن يتوخى الدقّة والصراحة فيما يكتب، وأن يحذر بشدة طمعه الذي قد يُزَيِّن له في وقت من الأوقات إحراز تقدم مهني أو مادي على حساب أخلاقيات الصحافة ومبادئها.

كثّف الرجل ذو الجلباب من دروسه في المقابل، وزاد من الوقت المحدّد لكل درس، وقد سمعه بعض الواقفين يتحدث في هاتفه المحمول ذات يوم، فيما يعبث في أصابع قدمه اليمنى، ويردّد

أنه يبذل أقصى جهد، وقد أفصح لمحدّثه على الجانب الآخر عن رغبته في شراء حصان يجوب به الطابور شمالاً وجنوباً، كي يتمكّن من إعطاء عدة دروس خلال اليوم الواحد، فيُعَمِّم الفتوى ويُخَفَّف من أثر ذات الشعر القصير على الناس، وينال ثواباً أعظم. سمعوه أيضاً يؤكّد بما لديه من معلومات أن الحظر سوف يظل سارياً على دخول السيارات إلى الطريق لشهور وربما سنين أخرى، وأن قدميه لا تسعفانه بالسير لمسافات طويلة.

الفصل الخامس

الورقة الخامسة

رأي البوابة

تعثّر طارق في النوم لفترات متواصلة، جرّب خلالها أنواعاً وأصنافاً من المهدئات، حتى عَلَّقَ زملاؤه على خطورة الكميات التي يطلبها من الصيدلية، لكنه تجاهلهم إذ ظلّ يفكّر في مصير يحيى دون توقّف، حتى بعد أن ابتلع في إحدى المرات نصف شريط من الأقراص. التقطت صباح، وقد تولّت مؤقتاً تسيير العمل بمكتب التمريض، مظاهر الأزمة التي يمر بها، فأخذت على عاتقها مهمّة إبعاد المرضى عنه، خاصّة في الأيام التي كان يأتي فيها إلى المستشفى بعينين ذابلتين يحيط بهما السواد. ألمحت له في أكثر من موقف، بأنها تذكر تلك الزيارة الميري الغريبة، التي تلقّاها صبيحة اليوم التالي للأحداث المشينة؛ أوحت له في خبث بأنها تعرف الكثير عن قصة المريض المدعو يحيى جاد الرب، وأنها مع ما تعرفه كله اختارت دور كاتم الأسرار الأمين، هكذا تفوز بنقطة، وإن شك فيها لأي سبب بعد ذلك فلن يجرؤ على البوح. من مصلحتهما المشتركة الآن، أن يطمس الواحد منهما ما فعله الآخر.

استغلّت صباح التساهل الذي بدأ طارق يبديه ناحيتها، واستأذنت في الخروج مبكراً من المستشفى، بينما توجه هو إلى الكنبة الليّنة

التي تحتل الزاوية البعيدة من مكتبه، واستلقى مغمضاً عينيه، كان يخوض صراعاً مُهلِكاً كي ينام، ألصق ظهره بظهر الكنبة ثم استدار وجعل وجهه ناحيتها، وثنى ركبتيه متخذاً وضعاً يشبه وضع الجنين، ثم اعتدل على ظهره محدقاً في السقف، ماداً ساقيه فوق المسند، فلما أصابه الفشل كما يحدث كل مرة، انتصب واقفاً، وجلس إلى مكتبه ومد يده بالمفتاح إلى الدرج الأخير ملتقطاً الملف الذي اهترأت أوراقه وتآكلت من كثرة ما أمسك بها.

لم تكن الورقة الخامسة في حقيقة الأمر سوى خانة واحدة كبيرة، بطول وعرض الصفحة، صفراء كما كل الأوراق، لكنها لا تحوي حرفاً واحداً، ظلّت ملساء خاوية، رغم أنه تمنى في كثير من المرات أن يفتح الملف ذات يوم، فيجدها وقد انطبعت بجملة أو اثنتين مثلما يحدث في بقية الأوراق التي يعاود قراءتها باستمرار. يعلم أنها سوف تظل هكذا، في انتظار حصول يحيى إما على تصريح باستخراج الرصاصة، وهو أمر ميئوس منه تقريباً، أو على رفض رسمي، يُغلَقُ على أساسه الملف وتُطَوَّقُ حوافه بشريط أحمر إلى الأبد.

تماهت تلك الخانة في عقله مع البوابة. تشبهها شبهاً كبيراً. غامضة وواسعة مثلها وقادرة على احتواء الكثير. ربما أن كل ما يمكنه تخيله في تلك اللحظة هو رهن بالبوابة ورهينة لها؛ مستقبله وحياة يحيى وأصحابه وربما آخرين. نومه وصحيانه ومزاجه رائقاً أو تعيساً، وعمله الذي تأثر بإغلاق وحدة الأشعة، وصباح التي تبتزه وتضطره إلى مسايرتها، وغير ذلك الكثير. لاجدال في أن الحياة

باتت أكثر تعقيداً، رغم أنهم قالوا العكس تماماً حين بشروا الناس بظهورها. قالوا إن البوابة ستجعل الأمور أكثر يسراً، وأنها سوف تضمن الأمان والهدوء والسعادة للمواطنين. هو مواطن بالطبع، وصالح أيضاً، لكنه لم ير بفضلها إلا النقيض. رأى فراغ الورقة يتسع أمامه ويحتويه كأنما سوف يبتلعه ويسجنه فيها، مال عنقه إلى أسفل وبدأ جفناه يسقطان، فقلب الصفحة سريعاً، دون أن يعرف لماذا فعل، ثم غطس برأسه بين ذراعيه وغفا.

مستشفى الأجواء

صحت أماني مبكراً، اختارت بنطلون جينز عادي وسترة لا تلفت النظر، لكنها حرصت في الوقت ذاته على ألا تبدو في هيئة فقيرة أو رقيقة الحال، لا يحب الموظفون خدمة فقراء مثلهم، حتى في مستشفى مثل الأجواء حيث يُفْتَرَضُ أن يختلف الأمر. استعانت أمام المرآة بخبرتها في التعامل مع زبائن المؤسسة، شَكَّلَت نبرات صوتها بحيث تترك أثراً طيباً في أذن الموظف، وحاولت أن تضع ابتسامة صغيرة قريبة على شفتيها الرفيعتين، ثم اطمأنت إلى مظهرها العام، ونزلت من البيت.

استوقفها أحد أفراد وحدة الحراسة الحاجبة على باب المستشفى، وطلب الاطلاع على بطاقة تعريف هويتها، ثم أشار إلى مكتب الاستقصاء والتعليمات، فتوجهت إليه وتركت البطاقة هناك وتسلمت أخرى. مضت إلى حيث اللوحة التي تحوي شجرة الأسهم والعناوين، ومنها سارت إلى قسم الجراحة متتبعة العلامات الإرشادية، التي أوصلتها إلى طرقة طويلة تتفرع منها على الجانبين مخارج لأقسام طبية متنوعة.

كانت الأرضية مغطاة بما يشبه المطاط، داكنة لكنها دون لون محدد، أما الحوائط فعالية رصاصية، تعكس ظلال الفائتين فتبدو أحجامهم هائلة ومخيفة، لمست في الهواء برودة أصابتها بقشعريرة غريبة لا تتناسب وحبات العرق المتولدة عند منابت شعرها. تخطاها عدد من الأطباء يرتدون معاطفهم البيضاء ذات الشعار المميز ويتهامسون، لكنها لم تلمح فيهم صاحب الزيارة الغامضة فخالجها بعض الاطمئنان. نظرت إلى الخلف، لم يكن بالطرقة شخص غيرها. أشارت العلامة الأخيرة إلى قسم الجراحة الذي تنشده، فدارت معها حتى وصلت إلى حجرة السكرتارية، وقد احتشدت أعصابها تمام الاحتشاد.

وقفت أمام الموظف دون أن تفتح فمها، كان مشغولاً في دفتر عريض مفتوح على مصراعيه، عبرت عيناها السطور المدونة داخل الخانات، محاولة ان تعثر على أي كلمة تخص يحيى، لكنها لم تكن معتادة على القراءة بشكل معكوس، ثم إن الموظف انتبه إلى محاولتها فأقفل الدفتر مستاءً ومذعوراً، وعلا صوته وهو يشيح بيده ويسألها عما تريد بوقفتها تلك. لم يكن للابتسامة التي وضعتها في سرعة، أي تأثير عليه.

ـ صباح الخير، حضرتك أنا محتاجة صورة أشعة كانت هنا من شهرين تقريباً.

ـ اسمك إيه؟

ـ الحقيقة هي مش باسمي أنا، هي باسم يحيى جاد الرب سعيد.

ـ يقرب لك إيه؟

ـ ابن خالتي.

ـ معاكِ إذن تسليم؟

ـ لأ والله.. ضاع مني.

ـ مش ممكن أي حد يستلم أشعة حتى لو بتاعته هو شخصياً بدون إذن التسليم.

ـ بس هو فعلاً محتاجها، الدكتور طلبها منه ضروري، وبأقصى سرعة، وبصراحه صعب جداً ينتظر دوره عشان يعمل واحدة تانية، قدامه ناس كتير، يمكن شهر كمان على ما يعملها، أرجوك تساعدني في الحكاية دي.. أنا مستعدة أعمل أي حاجة عشان آخدها.

نظر إليها في ملل، ثم فتح الدفتر مرة أخرى، وراجع الأسماء. سألها أن تحاول تحديد تاريخ الدخول في نطاق أسبوع أو اثنين على الأكثر، ففعلت، لكنه انتبه وهو يعاود البحث، إلى أن الفترة التي ذكرتها تضم أربعة أيام، لم يتم تقييدها في دفتره. ضاقت عينيه في خبث ثم قام ومد يده إلى درج عملاق، وجذب منه بصعوبة ملفاً متوسط الحجم انحشر وسط حافظات أوراق ضخمة، ثم مر بإصبعه على قائمة الأسماء التي تصدرت الواجهة:

ـ الاسم موجود يا أستاذة، ده مصاب في الأحداث المشينة.. كان المفروض تقولي كده من الأول.

ـ بصراحة ما اعرفش ايه الموضوع بالضبط، أنا جيت أستلم

الأشعة وبس، لكن ما عنديش علم بالتفاصيل دي.. أقدر آخدها من فضلك؟.

ـ طبعاً لا..، أولاً؛ لأن في الحالة دي بالذات، لابد يكون معاكِ نموذج مخصوص، يمضي عليه الدكتور اللي عالجه هنا، وبعد كده تجيبي إذن استلام من المدير شخصياً، وعليه ختمه وختم المستشفى؛ وثانياً يا مدام؛ الأشعة دي مش عندي، دي تلاقيها في مكتب الملفات في الدور الخامس، ولِعلمك مش مسموح لأي بني آدم يطلع هناك.

أربدّ وجهها، انكشف الموقف وعرف الموظف حقيقة إصابة يحيى، وخسرت محاولتها الأولى لادعاء السذاجة، لكنها على كل حال تمالكت نفسها؛ أجلت الإحباط، وقررت المواصلة حتى النهاية. سألته عن اسم الطبيب المسئول والمكان الذي يمكنها أن تجده فيه هذه الساعة، فمد يده بقطعة ورقية صغيرة مثنية، بترها من طرف لفافة ملقاة جانبه بإهمال، وصوب إليها عينيه ساخراً: مع السلامة. تعجلت الهروب من أمامه، لم تفتح الورقة إلا حينما أصبحت على بُعد كاف من شباك الحجرة، وتأكدت أنها لم تعد في مرمى نظراته المستهزئة التي شعرت بها تخترقها: «د.صفوت كامل عبد العظيم ـ الدور الرابع، الحالات المخصوصة». وضعت الورقة في جيب حقيبتها الداخلي وأخرجت منه الهاتف، رأت على شاشته اتصالات عديدة من رقم واحد متكرر، أعادت طلبه فجاءها صوت لا تعرفه: آنسة أماني؟ أنا إيهاب، صاحب يحيى وناجي.. أنت بخير؟.

ـ بخير، اتصلت في الوقت المناسب، أنت في المستشفى؟

ـ قدامها، محتاجة مساعدة؟

ـ أظن كده..

ـ طيب، أقابلك ناحية المدخل حالاً، أنا لابس قميص أزرق سماوي ونظارة شمس، وفي إيدي نسخة من الجرنال.

أسرعت أماني عائدة من الطرقة نفسها إلى البهو، وقد أحسّت بالراحة لمجرد أنها لم تعد عالقة وحدها في هذا الموقف. بقيت تراقب المكان من بعيد، متظاهرة بالحديث في الهاتف، كي لا يسألها أحد العاملين عما تفعله أو يعرض إرشادها إلى الطريق الذي تبدو وقد ضلّته. دقائق وظهر إيهاب على المدخل ثم عبره إلى مكتب الاستقصاء مُبرِزاً بطاقته، لكنه مكث أمام الموظف فترة طويلة، وقد تجهم وبدا عليه الاحتداد في الحوار. استبدّ القلق بأماني، وسرعان ما تحول إلى انقباضة صدر وضربات قلب سريعة، فقد شاهدت إيهاب يشتبك بالأيدي مع الرجل، ومع زميليه المتحفزين خلف الحاجز.

رأت عدة حراس يهرعون إليهم، ويكيلون اللكمات لإيهاب، ويقتادونه، أو هم للدقة يحملونه من يديه وقدميه، إلى باب المستشفى ويلقون به خارجها. تصاعد في الردهة نداء معدني، أخذ الميكروفون الداخلي يذيعه ويكرره، طالباً منها - أماني السيد ابراهيم- التوجه إلى مكتب الاستقصاء والتعليمات بأقصى سرعة للأهمية. ها هي الآن تعود إلى نقطة الصفر أو ما قبلها، نقطة سالبة

تحتاج منها إلى تصرف جريء وحاسم، لو استجابت للنداء فسوف يقوم أفراد الحرس الأمني الحاجب المدربون على تتبع المتطفلين بإلقائها هي الأخرى خارج المكان، وهذا هو الاحتمال الأكبر، أما الاحتمال الثاني الذي خطر لها، والذي بدا مثالياً لكنه شبه منعدم على أفضل تقدير، فهو أن الموظف الذي قابلته للتوّ، قرر إعطاءها الأشعة تعاطفاً منه أو تواطؤاً، لا يهمّ كثيراً أيهما أقرب إليه.

لم تكن تملك رفاهية استطلاع الاحتمالات وتجربتها، فالنتائج غير مأمونة، وقد استبعدت فكرة عودة إيهاب، كما نفضت ظنّها المثالي بالموظف بعيداً عن رأسها. نظرت حولها فلما لم تجد أحداً يتابعها، سارت نحو لافتة «المصعد»، بينما تكرر النداء للمرة العاشرة. ضغطت الزر ليتوقف بها في الدور الخامس؛ خرجت متريثة حين انفتح الباب ودارت عيناها تجوب المكان المتسع، الذي بدا وقد خضع لعملية تفريغ من كل شيء. لا ناس ولا مقاعد، ولا حتى لافتات كتلك التي تتبعتها قادمة من بين العنابر، والمكاتب، والموظفين في الدور الأرضي. لا شيء البته في الردهة التي وقفت فيها. تأملت السقف العالي بينما تحرك باب المصعد وانغلق من خلفها. كان هناك مدخل وحيد متصل بتلك الردهة، تسلّلت منه في حرص وتجوّلت بين الممرّات الفرعية الأقل اتساعاً، ثم ميزت أخيراً حجرة مغلقة، استنتجت أنها الهدف؛ فبجانب أحد الأبواب المتناثرة، كانت هناك لافتة وردية مصنوعة من معدن لامع غريب وقد نقشت عليها عبارة: «مكتب الملفات الرصاصية الحرجة». أمسكت بالمقبض المعدني البارد لكن الوقت لم يسعفها لإدارته، إذ انفتح المصعد من جديد، وتدافعت أصوات كثيرة متشابكة

وغاضبة، لم تفهم منها شيئاً، فقط تعرفت من بين المتصايحين أمامها، على الوجه الوحيد الذي لم تأمل في رؤيته أبداً تلك اللحظة.

* * *

حاول إيهاب العودة إلى الأجواء لكن الأمر كان مستحيلاً، إذ وُضِعَت صورة بطاقته المُكَبَّرَة على المدخل، ووُزِّعَت على وحدة الحرس الأمني الحاجب. انطلق إلى مقر الجريدة حيث التقى محرر الصفحة التي يكتب فيها، وأملاه خبراً مفصلاً عما جرى، ثم توجه إلى الطابور باحثاً عن ناجي. لم يرغب في إحاطة يحيى بما آل إليه الموقف، حتى لا يرتعب بشأن أماني، خاصة وأنه لا توجد أية تفاصيل مطمئنة منذ أن تعارك في البهو وأُجْبِرَ على الخروج، كما أن تليفون أماني ذاتها لم يكن متاحاً للاتصال. تحركا سوياً من الطابور دون أن يراهما يحيى، واتجها إلى بيتها. بقيا قرابة ربع ساعة كاملة يطرقان الباب دون إجابة، حتى صعد إليهما البواب مؤكداً أنه لم يرها منذ الصباح، وأنها في الغالب لم تصل بعد من عملها، ودعاهما لانتظارها معه أمام البناية ريثما تعود.

طالت جلستهما معه، فأتى البواب الكهل بأكواب الشاي، وأخرج من جيبه عدة سجائر وضعها أمامهما. بدأ يحكي عن هذه البناية التي يحرسها منذ شبابه. كانت المنطقة شاسعة مترامية الأطراف، لا مباني أخرى فيها ولا ناس، فقط تلك العمارة بسكانها، ومن بعدهم الصحراء. أقرب منطقة عامرة إليهم تقع على بعد عدة كيلومترات من الطريق السريع، لكن هذا الوصف الذي يسرده على مسامعهم اختفى في غضون سنوات معدودات، صعدت بنايات

أخرى عالية، وزحف أناس كثيرون جداً إلى المكان فعمروه، وفتحوا الأسواق، ولم يعد هناك مكان لقدم جديدة. تنهدّ متحسّراً ثم أشار بيده المعروقة إلى بعيد، قائلاً إن قطعة أرض وحيدة على الجانب الآخر ظلت غير مستخدمة، رغم مساحتها الهائلة. صاح إيهاب منفعلاً أنه يعرف تلك القطعة تمام المعرفة، فقد أصبحت اليوم جزءًا موصولاً بالبوابة. ضحك الكهل وسعل فخرج الدخان من كل فتحات رأسه، أضاف أن الناس عزفوا عن شرائها لسنين متعاقبة لما لها من تاريخ، ذلك أنها عُرفت بينهم بما كانت عليه في زمن مضى؛ محبساً لا يخرج منه الداخلون ولو بعد عقود.

قال الكهل أيضاً إن المنطقة اختلفت كثيراً بظهور البوابة، خاصة قبل أن تغلق ويتكوّن في محيطها الطابور، حيث كانت ساعة النهار التي تفتح فيها صاخبة تعلو خلالها الأصوات، أما وقت انتهاء عملها فكان على النقيض غاية في الهدوء، وكأن أحداً لم يدخل المكان، لا أشخاص يغادرون، ولا صوت يُسمع، وقد لاحظ بعض الناس بمرور الوقت أن الطقس أصبح خانقاً باستمرار في محيطها، وأن الشمس كانت في بعض المرات تشرق وتغرب من ناحية المبنى الشمالي ربما تبعاً لما يدور في المنطقة، وقد أخذ المارة حذرهم شيئاً فشيء، ولم يعودوا يتصرفون على سجيتهم بالقرب منها، وخاصة بعد وقوع الأحداث المشينة.

مال إلى الأمام قليلاً وقد اطمأن إليهما، وهمس بصوت مبحوح بأن الست أماني ذهبت اليوم إلى مستشفى الأجواء، وأن مستشفى الأجواء تابع للبوابة، وأن لديه شكوكاً حول عملها وحول اشتراكها

في الأحداث التي يحكون عنها، فلم تعد يوم وقوعها إلا في منتصف الليل على غير العادة، ثم إن أناساً لهم هيئات غير مألوفة في المنطقة، سألوه عنها أكثر من مرة لكنهم لم يطلبوا مقابلتها.

اختفت أماني. غابت لثلاثة أيام كاملة بعد زيارتها لمستشفى الأجواء، ثم عادت ولبثت في منزلها أسبوعاً، لم تذهب خلاله إلى المؤسسة مطلقاً، ولم تردّ على أية اتصالات. بادرت أم مبروك بتوزيع منشور، قام عِبْس بتصميمه مقابل بعض العصائر والبسكويت والمكالمات المجانية؛ ذَيَّلَهُ بتوقيعه كالعادة، ثم نَسَخَه على ماكينة تصوير قريبة تربطه بصاحبها بعض المصالح، وأعطاها مئات النسخ. تصدرت إحدى صور أماني القديمة المنشور، إذ لم يكن لدى أم مبروك صورة حديثة لها، وقد خَطَّ عِبْس الاسم الثلاثي بعناية فائقة، وأتبعه بالصياغة التقليدية المتعارف عليها في تلك الحالات، والتي تشتمل على مناشدة للبوابة بالتدخل لمعرفة مكان الشخص المختفي، وكشف الظروف الملتبسة التي أحاطت بالاختفاء. وضعت أم مبروك المنشورات بجانب بضاعتها، وراحت تولول وتنعي حظّها، وتشرح، حتى في غياب الزبائن، كم كانت أماني بمثابة ابنة ثالثة لها، وكيف لازمتها في يوم دفنة البنت الكبرى، فقطعت مسافة بعيدة، وبكت كما لم يبك أحد، ولم ترحل إلا بعد انتهاء العزاء وإطفاء الأنوار.

لا شيء

بعد الأسئلة التقليدية عن الاسم والسن والحالة الاجتماعية والتعليمية والمهنة ومحل السكن، والتي يعرف السائل في تلك الأحوال إجابتها جيداً، استفسر الرجل ذو الملامح الحجرية، المضطجع وراء المكتب، عن سبب وجودها في الطابق الخامس، رغم علمها بأنه من الأماكن التي يُحظَرُ الولوج إليها. حاولت أن تكون هادئة ومهذبة بقدر الاستطاعة، فاعتذرت بأنها غريبة عن المكان، ولا تريد سوى استلام الأشعة الخاصة بقريب لها، وأنها قد تأخرت جداً على موعد لقائهما عند الطبيب، ولابد أنه سوف يأتي بحثاً عنها، وسوف يبلغ عائلتها التي ولا شك أصابها القلق لعدم اتصالها. كانت أماني لاتزال واقفة في قلب الحجرة ذات اللافتة الوردية التي اقتادوها إليها، لا تكاد ترى الجدارن من هول كمية الملفات المرصوصة أمامها، يداخلها خوف مبهم لا قرار له، وشعور بأنها في المكان الذي لا ينبغي أن تكون فيه، مع ذلك ظل في وسعها نسج بعض الحيل البسيطة. لم يُعَلِّق بشيء، جاء شخص آخر من خلفها لم تتمكن من رؤيته، وتوقف على مسافة

من صاحب الملامح الحجرية، ثم وجه إليه الحديث بفيض من الاحترام: صفوت باشا؛ لا توجد أي ملفات باسم يحيى جاد الرب سعيد لدينا.

ـ أظن لحد كده كفاية ، ما فيش ملفات بالاسم ده عندنا، وما تتعبيش نفسك وتتعبيني معَاكي بقه.

ـ لكن أنا متأكدة أنه اتنقل على هنا، على مستشفى الأجواء، وإنه خرج بعد يومين.

ـ جميل، يعني ما كانش عنده حاجه ولا كان فيه سبب لقعاده ولا احتاج أي علاج. أجابت بصوت عال وقد استفزها ردّه، وغلبها الغيظ حين أدركت أنه يمارس معها لعبة ماكرةً لا أكثر: لا، كان عنده حاجات كتير، كان فيه رصاصه في حوضه، انضربت عليه يوم الأحداث المشينة.

نهض من اضطجاعته فظهر طويلاً وعريضاً، هوى براحة يده على المكتب محدثاً قرقعة قوية، اهتزت بسببها الملفات فوق الرفوف وسقط بعضها على الأرض، صاح بصوت جهوري شرس أرعبها: ما فيش حد اتصاب بالرصاص في اليوم ده ولا اليوم اللي بعده ولا أي يوم تاني في الفترة دي كلها، فهمتِ؟

ارتعدت متراجعة خطوة إلى الوراء، وصرخت بدورها وقد انفلتت أعصابها وتهاوت قدرتها على التحكم فيها: كدب، الجرح موجود، والرصاصة في جسمه لحد دلوقتِ، وأول ما يعمل العملية وتبقى في إيده هايقدّم بلاغ في اللي ضربوها عليه، وهاتكون هي الدليل.

ساد الصمت لفترة، لم تسمع فيها سوى صوت انتفاضات قلبها وهو يكاد يقفز بعيداً عنها، كانت العروق نافرة على جانبي جبهتها، وفي ذراعيها ارتعاشات وانقباضات سريعة، وقد علا صوت تنفسها وكأنها تتحفز لصد هجوم وشيك.

* * *

لا شيء على الإطلاق.. لا شيء أبداً، لا لم يتم تعصيب عينيها، لكنها لم تعد ترى سوى اللون الأسود، أبعدت كفيها عن رأسها. لم تسمع صوتاً، ولم تجد ما تلمسه بيديها؛ لا جدران.. لا أعمدة.. لا قضبان.. لا شيء، فقط أرض تقف أو تجلس أو تنام عليها أو ربما هي ليست بأرض أيضاً. كانت تسير في كل الاتجاهات، لكنها لم تصطدم بأي شيء.. لم يقابلها سوى فراغ، جربت أن تصرخ، وأن تصمت وتنصت، وأن تسبّ وتلعن وتذكر كل الأسماء التي يجب أن تعَاقَب على التهجم عليها، أو حتى لمجرد ذكرها. البوابة وأصحابها، والشركة البنفسجية التي...، والشيخ الأعلى الذي... ثم كانت تعود وتطلب الصفح والغفران، تتمرّد ثم تتوسّل، تعتريها شجاعة عنترية، ثم ينتابها النشيج، لكن الموقف ظل كما هو: لا شيء.

لم تعرف حتى كيف انتقلت إلى هذا العدم.. كيف يمرّ الوقت أو هل يمرّ من الأصل؟.. حاولت أكثر من مرة أن تستغرق في النوم علها تستيقظ من هذا اللا شيء، أو على أي شيء، أو حتى ترى حلماً ملوناً، نقطة واحدة من النور، لكن الأحلام خذلتها، حتى أحلام اليقظة.. حتى خيالها فقد الألوان ثم فقد الضوء، وصار أسود، بدأت

تنسى تدريجياً الوجوه؛ أمها ويحيى ومديرها، غامت التفاصيل التي تعرفها ثم صارت كلها بلا ملامح.. هل يمكن أن تُسرَق منها الذاكرة، والقدرة على استدعاء ما تملكه من صور مختزنة فيها منذ القديم؟ ليس لديها إلا جسدها كي تلمسه، وصوتها كي تسمعه، وتلك الأرض العجيبة، لا برودة رخامية، لا اصطكاك لقدميها بخشب، لا وبر لسجاد أو غيره، انحنت ودنت وقربت منها أنفها؛ لا رائحة أيضاً، اكتشفت أنها لا تستنشق أية رائحة، لا تشمّ شيئاً ولا حتى عرقها، أو ملابسها.. ملابسها؟ أدركت الآن أنها دون الجينز والسترة ودون حقيبتها. هل أخرجوها من الكوكب كله إلى الفضاء، وتركوها عارية على كوكب مظلم غير مأهول؟ وماذا أيضاً.. ماذا جرى لها قبل أن تدرك وجودها هنا؟ فتحت جفنيها عن آخرهما، ثم استخدمت يديها لتفتحهما أكثر، تحسّست فخذيها وساقيها وصدرها، صرخت مرّات ومرّات، أقسمت أنها لن تزعجهم ثانية، اعتذرت، ثم قالت إنها لن ترى يحيى، واعترفت أنها كذبت، وأنه ليس قريبها، وأنه لم يكن ينتظرها، ولن يبلغ أحداً من عائلتها، وأنها في الحقيقة ليس لها عائلة.. مع كل ذلك لا شيء.

تمنّت أن يضربوها.. قالت إنها مستعدة للتعذيب، وصفعت وجهها بيديها الاثنتين حتى زحف الخدر منها على عظام الوجنة.. عضت شفتيها إلى أن شعرت بسائل على جانب فمها، دماء، لكنها لم تشعر بأي بمذاق.. لا شيء، مرة أخرى لا شيء. ربما هي بالفعل لا شيء، ولم تكن موجودة أبداً من قبل.. سوف تذوب هنا.. تتحلّل في بطء حتى تنتهي وتصبح عدماً.. تصبح لا شيء. بداية الاختفاء المادي؛ فشلت في إخراج الدموع من عينيها.. اعتصرتهما بلا طائل،

فكّرت في موتها علّها تبكي ثانية، لكن الدموع اختفت.. تبّخرت.. أول قطعة منها تتلاشى. جلست في مكانها ولفّت ذراعيها حولها في انتظار الاختفاء الكامل.

* * *

قضى يحيى أياماً عصيبة لا تُحتَمَل، كان يقطع الشوارع من الطابور إلى بيت أماني مرتين في الصباح والليل، ويمكث لساعات مفتشاً عنها بين المارة، صافقاً بألمه عرض الحائط. منعه ناجي بإصرار من الذهاب إلى الأجواء، أقنعه ألا فائدة من الذهاب وأنه إن ذهب فسوف يختفي هو الآخر، وإن اختفى اختفت الرصاصة، وضاع كل ما تَحَمَّلَه في الأشهر الماضية. كان يعرف أن أماني قوية، وأنها سوف تشاكس وتصمد، لكنه يعرف أيضاً أن جرأتها غير المحسوبة، وتهوّرها الذي يبلغ أوجه عند الغضب، سوف يجلبان حتماً المزيد من المتاعب. صدر الخبر في جريدة إيهاب وقد تم اختصار أغلب تفاصيله، ونَفَدَت منشورات أم مبروك في بضع ساعات لا أكثر، بينما تطوع شلبي بسؤال زملائه القدامى في وحدة الحرس الأمني الخادم، عن مصير المختفين خلال الفترة الماضية، لكنه لم يحصل على إجابات مفهومة يمكن أن تساعدهم.

* * *

خرجت في صباح باكر، أو هي لم تخرج بالضبط، بل وجدت نفسها هناك في النفق، سارت إلى آخره حتى وصلت إلى المنفذ ومنه إلى الشارع الرئيسي، حيث ركبت ميكروباص. نزلت بعيداً عن البيت، صعدت درجات السلم على أطراف أصابعها وهمّها الوحيد

ألا يراها البواب. لم يتغير أي شيء؛ ملابسها في مكانها، الأحذية ملقاة على الأرض كما تركتها، الأواني في الحوض، وسندوتش البيض الذي لم تكمله تَخَشَّبَ على المائدة. حواسها تعمل، لكنها تحتاج إلى تأكيد، فتحت الثلاجة وشمّت خليط الروائح التي سادها الثوم المقشور، ضغطت كل المفاتيح الكهربائية وأضاءت الأنوار، وحدّقت في السجّادة الصوف الملوّنة، ثم قصدت المرآة الكبيرة في دورة المياه وهي وَجِلَةٌ مترددة. وقفت على بعد خطوة، تخشى أن تنظر فيها فلا ترى إلا شبحاً أسود، أعادت النظر إلى كفّيها وقلبتهما وفركت أصابعها، وكذلك صنعت بقدميها، ثم اندفعت مرة واحدة كما لو كانت تقفز إلى البحر. رأت وجهها منهكاً قاتماً لكنه سليم، عيناها وأنفها وفمها، وشعرها، هي كما هي.

في حقيبة يدها التي عادت معها إلى البيت، كانت هناك مجموعة من الصور الفوتوجرافية، صورتها وهي تعدو اتجاه يحيى حال إصابته وسقوطه، وصورتها في الاقتتال الثاني، الذي نفاه منشور البوابة الرسميّ، وهي تُسرِعُ مروراً بالمنطقة المحظورة؛ ملامحها في تلك الصورة واضحة وضوح الشمس. صورتها معهما في الكافيتريا؛ يحيى وناجي، وأمامهم صحون الفول. صور كثيرة لا تعرف من التقطها لكن الأمر ليس بغريب. الصورة الأخيرة كانت سوداء تماماً وكأنما احترقت أثناء التحميض، فكرت إن كان هناك من لايزال يستخدم الكاميرات العادية.

اتصل البواب بأم مبروك، سألها عن أخبار البنت والولد ثم أسرَّ لها بأن الست أماني في البيت، نور الصالة يظهر من المَنْوَر الذي

ينام فيه، لم ينطفئ منذ أول أمس، وصفيحة القمامة استقرت أمام باب الشقة، شكّ في الموضوع لكنها أعطته الشهرية بنفسها مساء البارحة. أطلقت أم مبروك الزغرودة الأولى في الطابور قبل أن تغلق التليفون.

زاروا أماني، لكنها كانت متعبة فلم تجلس معهم طويلاً ولم تُطِل الحديث، وقد اقتصر كل ما فاهت به على السؤال عن الأحوال العامة، وعن صحّتهم، تكلمت بلا حماسة أو انفعالات، ولما سألوها هم، قالت إن أفراداً من الحرس الأمني الحاجب ارتابوا فيها وهي تبحث عن الأشعة، فاستوقفوها واحتجزوها لفترة استولوا خلالها على الهاتف، واستجوبوها حول سبب وجودها، وفحصوا البطاقة جيداً واستقصوا عنها ثم تركوها، وأنها قد عادت إلى البيت بنزلة برد قوية، التقطت عدواها على الأغلب من المستشفى، فمكثت في البيت متورمة الحلق محمومة، دون أن تتمكن من الردّ على التليفونات، أشارت إلى مجموعة من الأقراص وعلب الدواء على مائدة الصالة. قالت أيضاً إنها لم تجد في الأجواء نسخة من الأشعة، وأنها باتت مقتنعة بأنها لم تُرسَل أبداً إلى هناك، وأن طارق أضاعها، لكنه يراوغهم لعدم رغبته في تَحَمُّل المسئولية. هز ناجي رأسه مؤمّناً على رأيها دون تعقيب، وصمت يحيى، فيما نهض إيهاب من مقعده داعياً إلى الانصراف وإعطائها فرصة للراحة، على أن يرتبوا لقاءً آخر فيما بينهم حال تحسن صحتها، إذ لابد لهم من بحث ما يمكن فعله في الأيام القادمة.

بعد أن أغلقت الباب خلفهم، عادت إلى الصالة وهي تتمنى أن

يذهب عنها الصداع، حملت أكواب الشاي إلى المطبخ وغسلتها جيداً وأطالت زمن الغسيل شاردة، صار لملمس المياه وصوت الأكواب أثر مريح لم تعهده في نفسها من قبل، جففتها ووضعتها على الرفّ، وخرجت دون أن تطفئ النور. لم ينطق أحدهم بكلمة واحدة، لا حاجة لتبادل الحديث الآن، تُخفي أماني أمراً؛ ربما هدّدوها أو أهانوها، أو ضربوها. ظاهرياً يبدو جسدها مُعَافَى، لا أثر لتعذيب أو حتى لصفعة على الوجه، لكن ثمة أشياء تحدث لا يمكن تخمينها. ربما أخذوا منها بطرائقهم العجيبة معلومات وتفصيلات عن يحيى؛ الحِرز الذي صَعُبَ عليهم التخلص منه، أو عن ناجي؛ الذي لولاه ما بقي يحيى على قيد الحياة إلى الآن، أو حتى إيهاب الذي يعرفونه تمام المعرفة ربما أفضل مما تفعل هي بكثير. أو ربما لم يأخذوا منها شيئاً قط، فقط أخافوها وتلاعبوا بمشاعرها ومكنوناتها، وقادوها إلى أن تصبح على تلك الحالة الباهتة، منزوعة الحيوية والإرادة، حالة لا تشبهها على الإطلاق.

تركهما يحيى قاصداً مبنى قديمًا على جانب الطريق، كُتِبَ عليه «دار التحاليل والأشعة المتخصصة»، لكنه خرج منه بعد ثوان كما دلف إليه، وقد وجد الباب مغلقاً وعليه جنزير حديد صدئ. لا فائدة من المحاولة بعد الآن، صدر القرار وتم تطبيقه على الأماكن كلها، حتى العيادات والمراكز الصغيرة لم تتمكن من التهرّب منه. عاد ينظر حوله ثم أشار إليهما بيده وعبر الشارع باتجاه صيدلية كبيرة، غاب لدقائق وعاد بعلبة أقراص مُسَكِّنَة للألم. مروا في الطريق بمتجر صغير متخصص في أجهزة الاتصالات، درج يحيى في الماضي على التوقف أمامه، كلما راودته من حين إلى آخر فكرة

اقتناء محمول، توجه إلى البائع مستعلماً عن أسعار الخطوط والأجهزة، فطرح عليه بعض العروض ثم اختار له صندوقاً أنيقاً عليه علامة الشركة البنفسجية. رفضه يحيى، وطلب تغييره بأي علامة أخرى، لكن الرجل تأسف مستدركاً أن المحل بأكمله قد بيع إلى تلك الشركة، وسوف تتغير اللافتة التي تعلوه عما قريب.

المؤسسة

في أعقاب الزيارة التي قام بها ثلاثتهم على حين غرة، لم تُجِب أماني على هاتفها سوى مرة واحدة فقط، رغم عشرات المكالمات التي أمطروها بها. جاء صوتها مُتَقَطِّعًا بعيدًا، ورجت ناجي أن يتريث ويكف عن الإلحاح حتى تُتِمّ شفاءها، وتتمكن من العودة إلى العمل بصورة طبيعية. أكدت عليه أيضاً أنها سوف تحادثه من مكتبها هناك. بدا واضحاً أن أماني لا ترحب بالزيارات المنزلية، وقد تباعدت الاتصالات المحمولة بينها وبينهم، إذ لم تعد بالفعل آمنة، كما امتدت الظنون بالناس لتشمل الهواتف الأرضية كذلك، لكنها من ناحيتها أبقت على اتصال أسبوعي وحيد، تطمئن فيه على يحيى، وتتأكد من عدم حدوث مصائب جديدة، مكررة بطريقة آلية أنها بخير. ظهر يحيى في تلك الفترة هَرِمَاً مغتمّاً، ومُعتَلّ المزاج، راحت رقعة الدماء اليومية في ملابسه تتسع باضطراد حتى أنهكه النزف، ولم يعد مرتبطاً بعملية التبول.

فضل الابتعاد قليلاً، تاركاً لها حرية اختيار الوقت المناسب للاقتراب مرة أخرى، والإفضاء بما يؤرقها ويوجعها، لكنه سرعان

ما نفض تردده ورغبته في عدم مضايقتها، بمجرد أن انقطع اتصالها المنتظم لأسبوعين متتاليين. قرر أن يعرج على المؤسسة آملاً أن تكون قد استأنفت عملها. استقبله المدير بفتور رغم متانة العلاقة التي ربطت بينهما أثناء عمله هناك، فقد أمضى يحيى في المكان سنوات اقتربت من العشر، جلب فيها عدداً كبيراً من العملاء، وحقق قفزات في معدلات البيع، لكن أداءه هذا لا يبدو أنه شفع له. واجهه المدير بمزيج من سوء الظن، والضيق، وتأفف حين سأل عن أماني، كما لو كان يتهمه ضمنياً بارتكاب خطيئة عظمى، وقد أحس يحيى أنه لولا بقايا الحرج والحياء لسأله المدير عما جاء به هذه الساعة ولطلب منه ألا يطيل في الزيارة.

عثر على أماني في غرفتهما، المكان أليف ودافئ كما تركه، فقط أضيفت تلك الستائر المزركشة إلى الأرض المكسوة بالموكيت الكالح المتسخ، وبقيت المروحة المكسورة، المتدلية من السقف على حالها. كانت مرتبكة شاحبة الطلة، وعلى مكتبها أكوام من الأوراق وأسماء وتليفونات الزبائن، وكأنها تركتها تتراكم لشهور بغير أن تمسها. سحب المقعد في بطء وصعوبة وجلس، ثم مد يده ملتقطاً يدها فشعر بها باردة مرتجفة. حين انتبهت، وأدركت أن يحيى أمامها بالفعل، وليس ظلاً في خيالها المهتز، أخذت يده بين راحتيها وشدت عليها بلهفة وقوة، وكأنما تستنجد به وتوقظ نفسها، وتتيقن في الوقت ذاته من وجوده المادي.

سألته مراراً عن صحته وعما استجد عليه في الفترة الماضية، وعن الدماء التي صارت تصبغ ملابسه على الدوام، استمعت وقد

حاز حديثه على انتباهها كله، واستزادته حتى انتهى من سرد ما طاف بذهنه من أخبار وحكايات. أخفى عنها بعض التفاصيل متعمداً، لا تحتاج الآن إلى من يثقل عليها، وكفاها ما عانته بسببه من توتر. يحمل داخله وزر تعريضها للخطر، وكذلك وزر ما يوقن أنها لم تذكره لأحد حتى الآن.

حين أتى دورها في الحكي دارت وماطلت، وظهر كلامها مشوشاً، غامت عيناها، وطافت بعيداً عنه، بعيداً جداً. هزّها برفق وقد شمله القلق، فعادت إليه بنظرة جامدة، ساكنة، ليس فيها من روحها إلا أقل القليل: لا شيء يا يحيى، لم يحدث شيء، سرحت في بعض الذكريات السخيفة. مَرَّ المدير بالغرفة ووقف للحظات دون أن يدخل، فقام يحيى منصرفاً ربّت على ظهر يدها بحنو، وهمس بعبارة ما. هزت له رأسها وابتسمت ابتسامة خفيفة.

إيناس

طلب شلبي من حَمُّود أن يريه الخبر في الجريدة. شاهد المذيع يقرأه في التلفزيون أثناء جلوسه على المقهى، وأحس أنه قد وقع على كنز سوف ينتشله مما هو فيه. أمسك حَمُّود بالجريدة وفتحها على الصفحة التي ورد فيها الخبر، فرجاه شلبي أن يقتطعه له بشفرة موسى أو مقص. فرد الورقة المقتطعة وسط حاجياته حريصاً على ألا تتمزق او تنبعج، ثم أخذ رشفة كبيرة من كوب الشاي، وغادر متعجلاً دون أن يكمله.

أزعجت إيناس شلبي بكلامها عن ابن عمه محفوظ، وأورثته عاراً يستحق الثأر. لم يغب عن باله ما قالته، بات وأصبح وهو يسترجع حديثهما ويكزّ على أسنانه، ويتميز كمداً. ظل يؤنّب نفسه على فشله في الرد عليها رداً مناسباً، غلبته تلك المتعوسة في الكلام وجعلته يتلفّت يميناً ويساراً بحثاً عنها، كلما اعتزم إعادة روايته على مسامع الناس، ليس لشيء إلا لخوفه من أن تتدخل كما فعلت في المرة السابقة، فتفسد عليه الحكي وتجعل منه مضحكة للسامعين.

يعترف بينه وبين نفسه، أنها نغصت عليه وقفته منذ جاء، رغم

أنها امرأة. واحدة وسط عشرات بل وسط مئات، واحدة مقابل بلدة بأكملها، لكنها واحدة فاجرة لا تخجل من شيء. تظن نفسها ذكية لكنه يعرف مثلما تعرف وأكثر. وصله من الفاهمين والمطلعين على ما خفي من الأمور؛ أن الشاب الذي قتله محفوظ كان مؤمناً، يصلي ويصوم بانتظام ويذهب إلى المسجد يوم الجمعة، وأنه أغلب الظن لم يشارك في التخريب، نعم يعرف هذا جيداً، لكن محفوظ لم يكن يعرفه بكل تأكيد. قالوا له أيضاً إن الشاب كان في طريقه إلى العمل، لكن محفوظ أيضاً كان يؤدي عمله الذي كُلِّفَ به، ولم يُرِد شيئاً سوى الانتهاء من الخدمة بأقصى سرعة والعودة إلى البلدة. خطّط للسفر من هناك إلى مكان آخر حيث سبقه أولاد الخالة كلهم.

عاد يحيى إلى الطابور في وقت عودة شلبي من المقهى تقريباً، منتشياً رائق البال رغم الألم، وفي عينيه طيف الابتسامة الأولى التي يلحظها على وجه أماني منذ اختفت. استشعر حين رآها تلك الومضات الصغيرة، تقافزت داخله في جزء من الثانية، وأعادته إلى الحلبة مرة أخرى بعد أن شارف على الانسحاب. مَنَحَهُ استقبالها هذا صباحاً مختلفاً، هل يقول إنه بهيج ودافئ؟ بالتأكيد. صحيح أنها لم تبح له بشيء جديد، ولم تُشف تَحَرُّقَه لمعرفة ما أَلَمَّ بها، ولا أطفأت قلقه تجاه تصرفاتها المتحفظة، وقد أكد حدسه دون مراجعة، أنه لن يعرف أبداً ما الذي جرى لها، على الأقل ليس قبل أن تَفتَحَ البوابة، وتُحسَم الأمور المعلّقة التي صارت أكثر كآبة وإرهاقاً، لكنها على كل حال أعطته الضوء الأخضر لزيارتها في المؤسسة ولو على فترات متباعدة، وسوف يكون بقربها ولا يهم بعد ذلك شيء. في المرة القادمة سوف يشربان معاً القرفة باللبن

التي تحبها، وسوف ينزلان إلى المطعم كدأبهما سوياً، لن يتكلم كثيراً حتى لا يسرقهما الوقت كما حدث اليوم، سوف يتركها تُسرّ إليه بما ترغب، دون ضغط أو إلحاح.

اخترق جسم غريب فضاءه الحالم المستريح فجزع، ثم تدارك الأمر حين رأى يد شلبي الخشنة ممتدة أمامه. كان شلبي يغترف من الحقيبة الجلدية القديمة التي تقيّحت حوافها، والتي يحتضنها منذ ظهر في الطابور، أوراقاً متشابهة ويوزّعها على ما تيسّر من الواقفين. لاحظ يحيى قبل أن يدقّق النظر في ورقته، أنها تحمل خبراً منسوخاً من جريدة «الحق». تلقّف إيهاب إحدى الوريقات في لهفة، بينما وصلت أخرى إلى أم مبروك، فلما لم تجد فيها صوراً تفهمها، مرّرتها لإيناس، التي نفرت وكادت أن تقفز مبتعدة عنها، لكنها لم تلبث أن قبلتها في حذر بعد أن رأت مثلها في أيدي الجميع. كان هناك خبر متوسط الحجم أسفل العنوان المثير «التوصل إلى مفتعلي الأحداث المشينة»، وقد تبرعت ذات الشعر القصير بقراءة عدة سطور من ورقتها، علي المتحلّقين حولها، الذين لم تكفهم الأوراق:

ظهر أن شخصاً ينتمي إلى دولة أجنبية، سبق اتهامه في قضايا إرهاب، وعليه أحكام غيابية بالسجن المؤبد، قد دخل إلى البلد منذ شهور، وعمل بمساعدة بعض العملاء والسفهاء الموتورين على إثارة القلاقل، وعلى هدم الثقة بين البوابة والشعب. ويُذْكَرُ أن هذا الشخص قد توفي الأسبوع الماضي جراء إصابة قاتلة، قبل أن يستكمل مخطّطه الأثيم، ولم يترك وراءه أي معلومات، وتجرى

الآن تحقيقات موسعة، للوقوف على صلته بالأحداث المشينة، ويُرَجَّحُ كذلك أنه كان وراء إطلاق النيران الذي شهدته الساحة في تلك الفترة.

أخذ شلبي يتحرك في نشاط جمّ وسط الواقفين، ليتابع عملية القراءة، ويطمئن على الأثر الذي أحدثته أوراقه بين الناس. كان يتنقل هنا وهناك مؤكداً على ما جاء في الخبر، فوحدة الحرس الأمني القابض، التي انتمى إليها محفوظ، لم تطلق النار على أي شخص، كما لم تكن الأحداث المشينة إلا مؤامرة خسيسة حبكها بعض الغرباء الملاعين، وساعدهم على تنفيذها قلة من الخونة في الداخل. دبروا الأحداث، وأوقعوا بين الناس، ثم ألصقوا الأمر كله بابن عمه وزملائه، ورموهم بالتهم الباطلة واختفوا دون أن يشكّ أحد فيهم. كادوا أن ينجحوا في فعلتهم بما لهم من باع طويل في ترتيب المكائد، والمصائب، لكن الله لا يرضى بالظلم أبداً.

لم يرتكب محفوظ أي ذنب أو خطأ، ولا لوم عليه، وقد ظهر الحق أخيراً دون مواربة؛ لم يفعل ابن العم الشهيد سوى تأديب بعض المتجاوزين بعصاه كما كان يفعل في كل مرة، وهي بشهادة الشهود لم تؤد أبداً إلى الوفاة، أما من ماتوا فلا شأن له بهم، على الأغلب لم تنطلق من سلاحه رصاصة واحدة، وربما لم يكن معه في ذلك الوقت سوى العصا. الآن في يده دليل، وحتى لو قيل زوراً وبهتاناً أن محفوظ أطلق النار، وإن يكن، ظهر أن هناك جاسوس أطلق هو الآخر النار، وعن نفسه، لم ير سلاح محفوظ، سمع رواية زملائه فقط ولا يوجد شيء مؤكد، والرصاصة التي زعموا

أنها اخترقت رأس الشاب لم يعثر عليها أحد، ذهب إلى المستشفى الميري، وحاولوا إنقاذ حياته وفتحوا بالفعل رأسه لكن الأطباء قالوا إنهم لم يستخرجوا أي رصاص. ظهر أخيراً من الذي صنع كل هذا، وسوف تثبت التحقيقات التي تجري الآن سلامة موقفه. يستحقّ محفوظ المعاش والتعويض، وكذلك التكريم. شطّ الخيال بشلبي ففكر أيضاً أنه سوف يطلب، حين يصل إلى البوابة، إقامة نصب تذكاري في البلدة، يُكتَبُ عليه أسماء الشهداء جميعهم، وأولهم محفوظ، كي يتذكر الناس طيلة الوقت أنه مات بطلاً.

عاد إلى مكانه وراء إيناس، ووقف منتصراً كما لو كان جنرالاً ربح معركة حربية للتوّ. فرد أكتافه منتشياً بنفسه ومعتدّاً بكونه ابن عم الشهيد الذي تم إنصافه على صفحات الجرائد. كان يركز النظر عليها في أغلب الوقت، يتابع انفعالاتها وانعكاسات الخبر الصادم على ملامحها في جزل، يناقش أحد الواقفين بينما يدير رأسه إلى الناحية الأخرى كي تظل في مجال رؤيته. استطاع أخيراً أن يرد اعتباره ويخرسها تماماً، لن تجرؤ بعد اليوم على التشكيك في محفوظ ولا على اتهامه بخيانة أبناء بلده وإزهاق أرواحهم. لم تفه بكلمة واحدة. ربما تراجع نفسها وسوف تقدم له اعتذاراً أمام الواقفين مثلما سخرت منه علانية من قبل.

ازدادت إيناس رعباً، كلامها مسجل وقد اتهمت فيه من اتهمت وتجاوزت كل حدودها، بل ودعت إلى معاقبة بعض ممن لا يمكن أبداً معاقبتهم. لابد أنهم سوف يلقون القبض عليها حالاً، بعد أن صار هناك فاعل آخر، وثبت ترويجها للأكاذيب. سيتهمونها

بالتواطؤ، وربما يضيف شلبي إلى قائمة الاتهامات ضلوعها في تشويه سمعة ابن عمه، وسوف تدينها المحكمة بكل تأكيد، ومن المحتمل أن تظهر أدلة جديدة تثبت وجود علاقة ما، بينها وبين ذلك الرجل الذي مات، والذي لن يكون بالطبع موجوداً في لحظة محاكمتها لينفي الأمر. لن تفقد الوظيفة فقط، أو حتى تختفي لفترة ثم تعود، لكنها ستقضي بقية حياتها في السجن، ولن تجدي المنشورات نفعاً.

هل تكون الورقة التي جاءت بها أم مبروك عن طريق الخطأ هي المستند الوحيد الذي يحوي كلامها، فتكون قد أنقذتها دون أن تدري، وهل أعاد موظّف المنفذ تدوين الكلام وإرساله إلى القبو بعد أن فقد الورقة، أم نسي الأمر ومنحها أملاً في النجاة؟ فكرت أنه ربما يكون من الأفضل لها أن تبحث عن محام بين قاطني الطابور، تحسباً لكل الاحتمالات. وسط الجدل والنقاشات النشيطة التي انبثقت بسبب شلبي، لم يشعر أحد بمصيبتها على الإطلاق. التزمت مكانها، وراحت تعدّل من زيّها الجديد في عصبية، وتتأكّد أن عنقها وشعرها مختفيان تماماً، ثم ذهبت لتطلب من ذي الجلباب استخدام هاتفه، مدعية أن جهازها قد أصابه عطب كبير بعد أن أسقطته سهواً على الأرض.

أمسك ناجي بذراع يحيى وجذبه بعيداً عن الناس الذين تجمعوّا بالقرب من شلبي متناقلين الوريقات. لم يكن ناجي مهتماً بمحفوظ وقضيته بقدر ما جذبه محتوى الخبر، وأثار في رأسه الأسئلة. اعترفت الجريدة بإطلاق رصاص، فهل يعني هذا

أن البوابة اعترفت بدورها بوجود مصابين أم أن الأمر لا يزال يلفّه الغموض؟، تحمل الصياغة أوجهاً عديدة، لا يمكن القطع بأحدها. لم يبحثا الاحتمالات كثيراً، اتفقا على استكمال خطواتهم، بلا أدنى تغيير، لا جديد. يعرف يحيى جيداً مصدر الرصاصة التي تتحرك في حوضه، رأى من أطلقها، وما من شيء يمكنه أن ينفي أو يمسح ما جرى طالما بقي على قيد الحياة.

* * *

اكتسبت أم مبروك حيزاً أكبر، وضعت أمامها كرسيين من البلاستيك، وحجراً كبيراً دحرجته من الرصيف المقابل بمساعدة أحد الشباب، وأوقفته على جانبه ليقوم مقام مائدة صغيرة، تقدم فوقها المشروبات لأصحاب الحظوة من الزبائن؛ وقد أوصت مبروك بالتقاط الصحف والمجلات التي يتركها الناس خلفهم في المقاهي والطرق وحول المنفذ كل يوم، وكذلك بجمع كل ما يزيد عن حاجة مقدمة الطابور، التي باتت ملتقى لعدد من الواقفين الأكثر وجاهة، وزوّدت ببعض وسائل الترفيه.

استراحت ذات الشعر القصير في موقعها الجديد، واستمرأت وجودها إلى جوار أم مبروك، وقد رأت في توافد الناس فرصة طيبة للدعوة إلى حملتها، لكن الأمر لم يقف عند هذا الحد، فقد بدأ الحوار بينها وبين الزبائن يتسع، ويتشعب، ويتخذ مسارات جديدة لا ترتبط بحملة مقاطعة الشركة البنفسجية فقط، بل تتعداها إلى شئون معيشية ومواضيع متنوعة، كان مصدرها الأساسي الراديو، الذي لم يتوقف منذ جاءت به عن بث الأخبار.

برنامجاً يومياً تبدأه باستلام حصيلة الولد مبروك من المطبوعات، وتحديد أهم الأخبار الواردة فيها، وعلى رأسها كل ما هو متعلق بالبوابة، ثم وضع علامات حمراء بجوارها للقرّاء، وإعلام غير القرّاء شفهياً بها.

خرجت على نظامها المعتاد في ذاك النهار، وخصّصت بداية اليوم لإذاعة التكذيب الذي جاءت به جريدة «الحق». تبيّن من التحقيقات والتحريات، أن الشخص الأجنبي الذي اتُهِمَ بتدبير الأحداث المشينة هو ضابط طبيب، جاء من دولة بعيدة، وأنه كان ضالعاً في بعض جرائم الحرب، وقد هرب منذ سنوات من بلاده، ثم ظهر هنا حيث غير ديانته واستقر تحت اسم جديد، وسكن المنطقة الحادية عشرة وتزوج، ولم تكن له أية أنشطة سياسية، أو عدائية بخلاف ما فعله في دولته تحت إمرة النظام العتيد الذي سقط بعد فترة، وقد أرسلت سفارته توضيحاً تؤكد فيه أن القضاء توقف عن ملاحقته في بلده، بعد أن تأكد من الوفاة الطبيعية، ومن ثم أُغلِقَ ملف الرجل بعد نصف قرن من البحث عنه. لم يحتل هذا الخبر سوى بضع سطور في زاوية صغيرة جداً من الصفحة قبل الأخيرة، بينما جاء في الصفحة الأولى عنوان كبير عن تاريخ الجواسيس في البلاد، والاضطرابات التي أثاروها وهم متخفّون قبل أن يتم الكشف عن حقيقتهم.

أصاب الإحباط شلبي وقد ظهر السبب واضحاً للعيان. انكسرت كبرياؤه قليلاً، انهدل كتفاه لأسفل، وتوقف عن الحكي تماماً رغم أن الملل لم يصبه يوماً واحداً من اجترار تفاصيل حياته،

تلك التي لم تجتذب في واقع الأمر الكثيرين. عند الظهيرة حمل بعض الأغراض، وأوصى إيناس ـ رغم ما بينهما ـ بحفظ مكانه، فوافقت على الفور دون أن تتطرق إلى أية مواضيع. بدا لها في تلك الدقائق، وقد اختلف كثيراً عما عهدته، حتى أنها أشفقت عليه؛ نبرة صوته مكتومة، ووجهه يطفح بالسأم والحرج أيضاً، لكنها لم تنشرح لما أصابه مثلما فعل معها. لشلبي كما فهمت من المحيطين بهما، ظروف صعبة؛ يحتاج هو وعائلته، وعائلة ابن عمه إلى مصدر ثابت يتعيشون منه دون تهديدات مستمرة، لكنها تعرف أيضاً أن هذا ليس السبب الوحيد لانتظاره أمام البوابة، فقد جاءها وهو في أشد الشوق لأن يضيف إلى عائلته لقباً ذا قيمة، جاهاً وفخراً وسط البلدة الفقيرة، يقف بهما نداً أمام مالك الأرض.

جاء متفائلاً متباهياً، وانقلب بائساً مرتبكاً لا يدري ماذا يصنع، تماماً مثلما هي في هذه اللحظة، تتوالى عليها النوائب واحدة بعد الأخرى، ولسانها الذي تخلّى عن حذره وصار منفلتاً هو السبب دائماً، لم تكن تفعل هذا مطلقاً قبل أن تأتي إلى الطابور، شيء أصابها هنا وغيّر من طبعها، شيء مخيف، كانت في حالها لا تكلم أحداً ولا تتشاكل مع أحد، ولا تتدخل في أي شيء ليست طرفاً أصيلاً فيه، ثم انقلبت إلى النقيض. العجيب أنها تعاهد نفسها بعد كل زلّة أن تعود لما كانت عليه، صموتة ومنطوية وهادئة، ثم تخرق العهد في أول فرصة. خفف تكذيب الخبر الذي سمعته للتوّ من قلقها، لا يزال الفاعل على الأقل مجهولاً؛ محفوظ أو شلبي أو غيره، لم يُحسَم الأمر بعد وقد يكون كلامها صحيحاً لا غبار عليه، لكنها على كل حال تدرك جيداً أنها لن تجد من يحميها ويدافع عنها

تكوّنت دوائر نقاش ضيّقة، ثم اتسعت وتزايد حجمها شيئاً فشيئًا، وظهر فيها محاضرون ومريدون ومُنَظِّرُون، حتى صارت ملتقى اجتماعياً، يقصده كل من له رغبة في الاطلاع على الجديد بشأن البوابة، أو السؤال عن آخر التطورات التي تجري بعيداً عنها. مع الوقت، أصبحت قعدة أم مبروك مصبّاً رئيساً للأخبار والشائعات التي ملأت الطابور. في بعض الأحيان كانت تلك الشائعات تُصنع وتصاغ في الداخل، ثم يتمّ تصديرها، وفي أحيان أخرى كان الطابور يستقبلها قادمة من أماكن بعيدة عنه، وفي كل الأحوال كانت تمر حتماً على القعدة التي تعيد توزيعها.

انتحلت أم مبروك أسباباً وأعذاراً عديدة، وتهربت بكل ما أوتيت من مهارة وقدرة على المراوغة من الرجل ذي الجلباب، الذي لم يكف عن مضايقتها، فقد اجتذبت ذات الشعر القصير جمهوراً عريضاً نافس جمهور درسه الأسبوعي وفاقه في بعض المناسبات. نصحها أكثر من مرة بالابتعاد عنها، وبالكفّ عن استضافتها، فلما لم تفعل، وبّخها وبكّتها، وأعطاها أمراً قاطعاً بأن تطردها دون مماطلة من المكان، لكن أم مبروك التي اقتربت من جمع المبلغ اللازم لشفاء ابنتها، استبد بها العناد وواجهته بصفاقة، رافضة أن تتخلص من صديقتها الجديدة، بل إنها عصته للمرة الثانية دون أي تقدير للمكانة التي يحظى بها، وتخلّصت من المحمول المجّاني، واستبدلت به آخر أقل سعراً بتشجيع من أغلب الواقفين حولها. لما رأى التمرد جلياً في تصرفاتها، وأدرك أنها قد خرجت عن طوعه تماماً ولم يعد له عليها سلطان، حرمها من حضور الدرس الأسبوعي، وأعلن في أكثر من مناسبة أن التجمع لغير أغراض

التَفَقُّه في الدين وأمور العبادة أمر مكروه، يُفقِدُ المرء حسناته، ويجعله من المغضوب عليهم والمارقين.

فَتَرَت حملة مقاطعة الشركة البنفسجية بعد حين، وظل الأمر ملتبساً على الناس، حتى مع تراجع ظاهرة اختفاء المواطنين. ساد الظن بأن موجة جديدة من الاختفاءات قادمة في الطريق، فمكث أغلب الأشخاص على حذرهم، وصاروا يتركون أجهزتهم في غرف ليس بها أحد، خوفاً من أن تنقل الأحاديث الهامة أو الموحية التي تدور في البيوت، وقد قصروا مكالماتهم التليفونية على المجاملات الاجتماعية القصيرة؛ التهاني والتعازي وغيرها من المناسبات، مع ذلك لم يتمكن أي مواطن من تحويل اشتراكه إلى الشبكة الأخرى تجنباً لهذه الإجراءات الاحترازية، إذ إنها أوضحت أكثر من مرة اكتفاءها بعملائها الحاليين، ورفضت ضم المزيد، مدعية عدم قدرتها على تقديم الخدمة لعدد أكبر من المستهلكين، في الوقت ذاته لم يعلن أي مواطن فاز بالخط المجاني والجهاز الجديد الامتناع عن قبولهما، فاستمرت الشركة البنفسجية في إجراء القرعة نصف الشهرية وإعلان الفائزين.

خلال هذه الفترة وطـدت ذات الشعر القصير وجودها وشعبيتها في حرم أم مبروك، غير عابئة بالتحذيرات والتهديدات التي جاءتها تباعاً، ولا بالدعاء الذي خصها به ذو الجلباب خلال إحدى صلوات الجماعة، زاعماً أنها تؤسس بؤرة فاسدة بالطريق الذي اختارته، وأنها زرعت وسط الناس نواة مليئة بالشر، تحضهم على الإكثار من الأسئلة والتفكير وكلها أمور غير محبّبة. وضعت

إذا حلّت الكارثة، فما من أصدقاء لها هنا، ولن ينفعها لسانها هذا وقت الشدة.

خبر آخر أبرزته ذات الشعر القصير مع ابتسامة مغموسة بالخبث؛ حمل باب الوظائف في الجريدة إعلاناً غير مألوف، عن استحداث إدارة جديدة تابعة للمنفذ، وذُكِرَ في متنه أنه على من يرغب في شغل إحدى الدرجات الوظيفية لتلك الإدارة، أن يتقدم بأوراقه، شاملة الشهادات والتصاريح الحاصل عليها من الجامعة ومن البوابة على التوالي، وأن يجتاز المقابلة الشخصية بنجاح خلال أسبوع واحد من تقديم الأوراق، ثم ذُيِّلَ الخبر بالعنوان الذي يجب أن تُرسَلُ عليه الطلبات بالبريد المسجل: منفذ البوابة، إدارة الاتصالات، خلف المنطقة المحظورة. لم يتمكّن ناجي من إخفاء دهشته، قال لذات الشعر القصير إن هذا الإعلان هو الأكثر إبهاماً بين جميع الإعلانات التي قرأها على الإطلاق، فلم تَرِد فيه أي مواصفات للوظيفة ولا حتى للمتقدمين إليها، لا شروط ولا مزايا ولا استثناءات، لكنها على كل حال تعيين ميري مُغر، يضمن الراتب الثابت والعطلات. حتى الآن لم يتلق رداً من مكتب الترجمة كما كل مرة، أمر عاديّ، فسيرته الذاتية الحافلة بالمصائب لا تسمح له بالالتحاق بأي عمل في سلاسة، خطر له أن يقدم أوراقه إلى الإدارة الجديدة، ليس لتوافر احتمال الفوز بالوظيفة بالطبع، بل نكاية في المعلنين عنها، من المؤكد أنهم سوف يُفاجَأون بملفّه، لن يصدق أحدهم أنه قد تجرأ على طلب تلك الوظيفة تحديداً. لَوَّحَ بيده حين رأى إيهاب قادماً، وصاح مفصحاً له عن الفكرة التي طرأت له في التو، ففاجأه إيهاب بأنه سوف يقدم أوراقه هو الآخر، ثم خفض

صوته وأفهمه أنه يشكّ في نوايا الإعلان، ربما يكون استكمالاً لعمليات التنصّت التي لا يعلم أحد حتى الآن إلى أي مدى وصلت، ولا إلى أي مرحلة سوف تستمر، خاصة أنه لم ترد أية أخبار عن هؤلاء الذين يختفون يوماً بعد يوم.

غاب شلبي فترة ثم عاد إلى الطابور، وليس في يده شيء مما كان يحمله، لا الحقيبة الجلدية ولا ساعة اليد، ليس معه سوى نوط ذهبي براق ذي شريط حريريّ، قال إنه تسلمه من المنفذ لاسم ابن عمه محفوظ، بعد أن تبين المسؤولون خطأهم وعثروا على اسمه في الكشوف، وأن شهادة تقدير سوف تُمنَحُ له بعد أن يتم ختمها من البوابة. تَعَرَّف ناجي على النوط لكنه لم يشأ البوح بالسر، ظل يضحك دون توقف حتى دمعت عيناه.

الزيارة

اتصلت أماني بناجي في خطوة مفاجئة.لم تعد ترى أو تخاطب أحداً سوى يحيى منذ فترة، يعرج على المؤسسة كلما استطاع ويمكث معها ساعة أو بعض الساعة وفقاً لحالته الصحية. لم يتعرف عليها ناجي في البداية إذ لم يظهر على شاشة تليفونه الرقم المسجل باسمها، لم تعطه مجالاً للسؤال ولا للسلامات، طلبت منه أن يلتقيها فوراً. على ناصية المقهى، بالجهة المقابلة للكافيتريا، ظلت أماني تسير في دوائر وساقاها ترتجفان، متوقعة ظهور ناجي في أي لحظة. زارها مرة أخرى.

جاء الطبيب ذو الزي الرسمي إلى المؤسسة وهدّدها أمام المدير وبقية الموظفين، لم يكن تهديده صريحاً، قال إنه في انتظار مرور يحيى عليه في مستشفى الأجواء، وإن العملية لابد وأن تُجْرى حتى لا تحدث مضاعفات تهدّد حياته، وتودي بها سريعاً، أسرع مما تتخيّل هي. استدار قبل أن يخرج من غرفتها قائلاً إنه يعرف جيداً مكانه، ويمكنه أن يقتطع وقتاً رغم مشغولياته ليزوره بنفسه إذا لم يره في مكتبه خلال الأيام القادمة.

كانت عيناها زائغتين وهي تتوسل إلى ناجي كي يمنع يحيى عن زيارتها، وألّا يدعه يمرّ بالمؤسسة على الإطلاق، ولا بأي مكان آخر حتى بيته، الطابور أكثر أمناً، على الأقل لم يختف منه أحد دون عودة حتى الآن. لم تتلفّظ بكلمة واحدة عن تلك الأشياء المريعة التي عادت إلى وعيها حية نابضة بمجرد رؤيتها للطبيب. أشياء، ما من مجال لذكرها، وما من أحد سوف يستوعب ما مرّت به. هي نفسها لم تستوعب شيئاً حتى الآن.

لم يأخذ ناجي فرصة كي يتكلم، ارتاع لمرآها على تلك الحالة المشوشة، فوافق على كل ما طلبته دون جدال، وأكّد لها أن كل شيء سيسير على ما يرام، وأن يحيى سوف يكون بخير. رجته أن يأخذا حذرهما، فرجاها أن تنتبه هي إلى نفسها وأن تهدئ من القلق الذي يفترس ملامحها، فربما لا يحمل كلام هذا الطبيب أي تهديد حقيقي، هؤلاء أقوالهم كثيرة ومرسلة، وفي أغلب الأحيان يعتمدون على التخويف وبثّ الذعر في الناس بحيث لا يتمكنون من وزن الأمور واتخاذ القرارات بذهن صاف. ظل يخاطبها محاولاً زرع بعض الطمأنينة في نفسها، لكنها لم تسمع منه حرفاً واحداً، أعادت مرة ثانية ما قالته دون ترتيب، وغادرت الناصية بخطوات واسعة، سريعة ومترنحة، حتى أنها كادت تسقط أكثر من مرة وناجي يتابعها بعينيه.

جال مُفَكِّراً فيما قد يفعله الآن، لا يدري إن كانت محاولته لطمأنتها سوف تفلح في طمأنته هو، أم أنها مجرد عبارات سقطت على لسانه وانطلقت قبل غيرها. لا تحتمل حالة يحيى الصحية أي

محاولة للهرب، هذا غير أنه لن يقبله ولن يفكر حتى فيه. صحيح أن وجوده وسط المنتظرين يوفر له بعض الحماية، لكنه يعود أحياناً للبيت، مرة أو مرتين أسبوعياً لينال قسطاً من الراحة ويستعيد بعض عافيته التي يفقدها يوماً بعد يوم بسبب ذاك الجهد المضني، وقريباً سوف يَهِّلُ الشتاء ولن يتمكّن الناس من مداومة البقاء في الطابور كما يفعلون الآن، وبيت يحيى كما بيته هو، ليس مخفياً عن الأعين، يعرفونه جيداً منذ زمن طويل، وسوف يشكل كلاهما خطراً عليه. تاه في تداعيات الموقف، وحطّ على رأسه سيل من الأفكار المشتّتة، تلفّت حوله ليكتشف أنه وصل دون أن يدري إلى رصيف الميكروباص وقد هدّه التعب، فانضغط في أول سيارة، وقرّر أن يترك نفسه إلى حيثما تتوقف في نهاية رحلتها.

تثاءب وقد أسند صدغه إلى زجاج النافذة، وأخذ يصنع عليه دوائر مندّاة بأنفاسه الساخنة، ويعبث فيها بأصابعه؛ لعبته القديمة المفضلة. كانت الشوارع خاوية في تلك الساعة، حتى القطط والكلاب اختفت، لم يلمح سوى قط واحد سمين يتثاءب مثله فوق عربة بيضاء تكسوها طبقة معتبرة من الأتربة. السماء كذلك كانت هادئة الإضاءة، سحب كثيفة تحجب أشعة الشمس المباشرة وتلطّف من الجو، بينما الأفق مغبّش ثقيل، كما لو علقت فيه جزيئات من الغبار والنفايات وتجمّدت في الفراغ، لا تهبط إلى الأرض ولا تتطاير وتتلاشى.

عبرت أمامه لافتة على شكل سهم تشير إلى المنحدر العميق الواقع إلى اليمين، وقد كُتِبَ عليها بخط واضح: «الطريق العام»،

أدرك بغير انزعاج أنه في اتجاه صعود التل أو ما شابه. دار في رأسه أن يلحق هناك بإيهاب، الذي طار إلى مقر الجريدة حاملاً تحقيقًا جديدًا، ثم استطاب أن يحتفظ بعقله نائماً مؤجلاً التفكير إلى أن تتوقف السيارة. توالت اللافتات واحدة وراء أخرى، وأخيراً أعلن السائق نهاية الخط، وأوقف الميكروباص أسفل لافتة ضخمة، نُقِشَ عليها باللون الأبيض السميك جملة واحدة: «اذكر الله»، وأسفلها رقم هاتف محمول، ثم إمضاء: عِبْس.

لم يبتعد كثيراً عن مقرّ الجريدة، أمكنه رؤيته على بعد أمتار معدودة، هبط من السيارة بتكاسل واتجه نحو المبنى المتواضع وهو يراود نفسه العودة من حيث أتى. سأل موظفة الاستعلامات عن إيهاب فأخبرته أنه مجتمع برئيس التحرير، ترك لها اسمه وفَضَّلَ الانتظار في الخارج. جلس على الرصيف المقابل مسنداً رأسه إلى جذع شجرة جافة أسقطت عليه بعض أفرعها وشيئاً من الروائح الصنوبرية العتيقة. ربما حان الوقت لأن يكف يحيى عن المعاندة والتمسك بموقفه حتى ولو شعر بإهانة التراجع والخضوع، صار الوضع حرجاً ولم تعد انعكاساته تصبّ فوق رأسه هو فقط، رأس أماني أيضاً دخل إلى اللعبة، وهو ما يعني أن الأمر لن يعود طبيعياً بينهما كما كان من قبل.

خلال تلك السنوات التي امتدت منذ انتظم طالباً مجتهداً في الجامعة وحتى الآن، وهو لا يعرف غيرهما، أقرب الأصدقاء إليه على الرغم من سماتهم الموغلة في التناقض. لم يكن ارتباط أماني بيحيى سوى نتيجة متوقعة لتواؤم طبيعي لم يصطنعه أحدهما،

كلاهما قوي وعنيد. أماني تملك صلابة لم يرها كثيراً في فتاة، ويحيى لا يفقد أبداً التماسك والثقة في قدرته على تطويع الظروف وفقاً لما يناسبه. لم يعترف يحيى يوماً أنه مجرد فرد واحد ضعيف، وسط مجتمع له ضوابط وقواعد أقوى من كل شيء، أقوى من الحاكم نفسه، وأقوى من المنفذ ومن البوابة.

فشل في إقناعة بأن ثمة علاقات متشابكة شديدة التنظيم يخضع لها الأفراد حتى لو لم يروها، حتى ما يظهر منها عشوائياً له نظام خفي يسير تبعاً له. يضحك يحيى كلما ناقشه جدياً، ويسخر من قسم الفلسفة الذي أفسد عقله، وخرّب إيمانه بفطرة الناس. أماني أيضاً كانت تشاركه الضحك، ولا تقتنع أبداً بأن هذا الاستقلال الذي تتوهم أنها تعيشه، ليس في حقيقة الأمر سوى شكل متفق عليه، جزء من النظام يكمل شبكة العلاقات والتناقضات. البوابة نفسها جزء أصيل من الشبكة، رغم أنها تبدو ممسكة بخيوطها من الخارج.

قال لأماني ذات يوم بعيد إن كل ما تفعله، وإن بدا تافهاً وغير ذي صلة، تتم ترجمته كأحد مفردات المشهد العام بطريقة أو بأخرى، حتى كمية الهواء التي تتنفسها، ابتسم ساعتها في سره محافظاً على وقار مصطنع؛ ثم أضاف أن الإيجار الضئيل الذي تدفعه لصاحب البيت، ربما عَجَّلَ بظهور البوابة المفاجئ في قلب المدينة مثلاً. قال لها أيضاً إنها هي نفسها تتأثر بكل ما يجري وإن لم تفطن له، وإن قراراً تتخذه البوابة بمنع الطائرات الورقية ذات الأشرطة الملونة قد ينعكس على أسلوب حياتها أو عملها من طريق غير مباشر، وأن

هذا التأثير المتبادل أمر أكيد الحدوث رغم غياب روابط وعلاقات مباشرة. ساعتها لم تكف عن القهقهة إلى أن افترقا، واتهمته بالجنون المطبق.

كانت منذ تصادقا، بمنأى عن أي شيء لا يتعلق بتفاصيل حياتها اليومية التي تعيشها بخفة وانطلاق، يحيى أيضاً يشبهها، وهو يفضل كذلك أن يتعامل مع الواقع المباشر الذي يلمسه ويتوخى أدق ما فيه. أما هو فظل شريكهما المخالف، الذي لا يلتفت إلى الأشياء الصغيرة والتفاصيل، يبدو تائهاً وسطها، لا يرى سوى الإطار الواسع الذي يضم داخله كل شيء، يبتلع الكتلة الكبيرة كما هي عليه، لا يفتش في مكوناتها كثيراً، مكتفياً بمحاولة الهضم. كان يحسدهما إذ ظلا سالمين آمنين، بينما طالته غضبات البوابة وأعاصيرها في فترات كثيرة من حياته، مع ذلك فسوف يضيع يحيى ومعه أماني الآن، ثم يبقى هو وحيداً، لا يسعه أن يفعل شيئاً، وقد صار مكبلاً بوجوده، لا يتمكن من التحليق في فضاءات واسعة كما اعتاد، لو ظل في ثوب الطالب الجامعي أو حتى المعيد الشاب المنطلق، لغير وجه الطابور مائة وثمانين درجة، ولدافع عن رفيقيه باستماتة، وما اكتفى في سبيلهما إلا بإسقاط تلك البوابة وتقويض نظامها. أفاق على يد إيهاب تضرب كتفه في ودّ: أهلا يا ناجي.. زيارة خارج التوقعات.

- جيت بالصدفة البحتة، مش ها تصدق اللي حصل من الصبح لغاية دلوقت.

- نتكلم في الطريق مش انت رايح الطابور برضه؟ بالمناسبة،

المدير مش عايز ينشر أي تحقيقات تانية لها علاقة بالطابور، رفض التحقيق الأخير اللي كتبتُه من أسبوع، والنهاردة رفض واحد كمان، وقبل التحقيقين دول حذف كل التفاصيل المهمة من الخبر اللي كان بيتكلم عن زيارتي أنا وأماني لمستشفى الأجواء، تصور؛ اختصر ثلاث فقرات بحالها في سطرين ونص، شكل الخبر كان عامل زي رسايل التهنئة والتعازي بالظبط، ده حتى موضوع مقاطعة الشركة البنفسجية رماه على مكتبه بعد ما بصّ على العنوان، وبعدين رفض يرجّعهولي لما طلبته منه، أقول لك الحق، المدير ده هو كمان مشكوك فيه تقدر تفهّمني ازاي يمنع خبر عن فضيحة لشركة محمول، وفي الوقت نفسه يسمح بخبر تاني بيهاجم مستشفى الأجواء بجلالة قدره، حتى ولو كان خبر صغير وغامض حبّتين؟

الجريدة

أجرت جريدة «الحق» التي ارتفعت نسبة توزيعها في الفترات الأخيرة حواراً شيقاً مع الشيخ الأعلى، ونوهت في عنوان جانبي بارز، عن أن هذا الحوار يأتي إسهاماً منها في الرد على الشائعات التي تجاوزت الحدود، والتي ألمحت دون وازع من ضمير، إلى سقوط عدد كبير من المواطنين الأبرياء بالرصاص، خلال الأحداث المشينة الأولى والثانية، تلك المشكوك في حدوثها من الأساس. أشارت الجريدة في مربع خاص محاط بإطار سميك، إلى أن البوابة نفت هذا الأمر عدة مرات دون فائدة، فقد تزايد انتشار تلك الشائعات بين الناس.

وكتب رئيس التحرير مقدمة قصيرة للحوار جاء فيها أن فضيلة الشيخ الأعلى، الذي يشغل منصب رئيس لجنة الإفتاء والتبرير، قد تلقى عدداً من برقيات التهنئة على فتاواه الأخيرة، التي حظيت بتأييد شعبي واسع النطاق، وأكد أن فضيلته هو الوحيد القادر على إنارة الطريق في تلك المرحلة العصيبة، التي يفتي فيها من يعلم ومن لا يعلم. تعدّدت الأسئلة الموجهة من المُحَاوِر إلى الشيخ،

وإن انصبّ أغلبها على المادة التي تناولتها الشائعات، وقد أجاب الأخير على كل علامات الاستفهام بصدر رحب، وأعطى ردوداً شافية، دفعت المحاور لإيقاف التسجيل عدة مرات مبدياً إعجابه وامتنانة الشديد.

قال الشيخ إن الموضوع ينقسم ببساطة إلى شقين، مطلقي الشائعات ومروِّجيها؛ وهم شقٌ أول، وأولئك حكمهم معروف، وهو حكم الكاذبين الأفاقين. أما الشق الثاني فهو فحوى الشائعة نفسها، وأمره سهل وواضح، إذ اتفق العلماء فيما بينهم، ومعهم كذلك غالبية البسطاء والناس العاديين، على أن التدين والورع يحميان المرء من النوائب والمحن والشرور، من هنا فإن المواطن إذا كان مؤمناً صالحاً وتقياً، وليس مزيفاً أو في قلبه مرض، فلن يورد نفسه مورد التهلكة، وسوف يبتعد تلقائياً عن مواطن الشبهات، وينفتح أمامه باب الطاعة والتقوى، ولن يجد نفسه أبداً في منطقة ملتبسة أو محظورة، وعليه فإن القول بوجود عدد كبير من الإصابات، هو محض كذب وافتراء من القلة المعادية للدين التي لا تتحصن به وبالتالي فإنها كثيراً ما تُصَاب، أما أغلب الناس في ربوع البلاد، فهم والحمد لله مؤمنون، ولا يُخْشَى عليهم من شيء حتى الرصاص. جاء في الحوار أيضاً، أن ثمة احتياطات وتدابير ينبغي أن يأخذها الشخص، ليصرف الله عنه السوء، وأن مِنَ الأتقياء الطيبين مَن لا يفعل فعلاً إلا وردد الأدعية عند البدء والانتهاء. استعان الشيخ الأعلى بنصوص عدة من الكتاب الأكمل موضحاً أن المؤمن إذا أصابته رصاصة رغم ما يلقيه من أدعية و أذكار، فإن إيمانه يحميه من الظنون، ويهديه إلى اليقين الحق بأن قاذفها هو الله، وعلى المؤمن المصاب ألا يجزع أو يعترض على

مشيئة الإله، وألا يسأل في الوقت نفسه عن أشياء لا ينبغي السؤال عنها، مما قد يوقعه بلا هوادة في نقيصة الفضول. عليه أيضاً أن يصبر وأن ترضى نفسه وتقرّ وأن يدرك كم هو محظوظ بأن أجره وثوابه قد انتقل من درجة الدنيا إلى درجة أخرى رفيعة لا يبلغها في المنتهى إلا الصابرون المطيعون.

قال الشيخ الأعلى في نهاية الحوار إن كل ما صرح به يقوم مقام الفتوى، وإن لجنة الإفتاء والتبرير قد اعتمدته اعتماداً نهائياً في اجتماعها الماضي، وسوف تعلنه خلال أيام في لقاء إعلامي موسع ليطمئن جميع المواطنين الذين أصابهم الارتباك.

نُشِرَت في صدر الصفحة صورة كبيرة للشيخ الأعلى، وهو يبتسم ابتسامة وقورة وأمامه الصحفي، كما كُتِبَ على لسانه أن الشيخ يثني على الجهود التي تبذلها الجريدة من أجل إعلاء كلمة الحق، وأنه لهذا السبب قد خصّها بهذا بالسبق.

* * *

جلس يحيى على الكرسي البلاستيك أمام أم مبروك رافعاً ساقيه على المائدة الحجرية، وفي يده كوب من الشاي، وفي اليد الأخرى التحقيق الذي كتبه إيهاب ومزق نسخته رئيس التحرير، بينما استقر إيهاب نفسه وبجانبه ناجي، فوق بعض صفحات الجرائد المنشورة على الأرض. هزّ يحيى كتفيه، مؤكداً أن رئيس التحرير على صواب بَيِّن، فالتحقيق لا يبدو صالحاً للنشر، والقصة ليست منطقية، بل هي مناقضة لكل الشهادات المنشورة في الصحف الأخرى، وكذلك لكل الرسائل التي صدرت عن البوابة، بالإضافة إلى ذلك فإنها لا

تتماشى مع الفتاوى الصادرة مؤخراً عن اللجنة. لم يكتب إيهاب إلا عن شائعات؛ شائعات تشير إلى وجود مواطنين مصابين بالرصاص الميري لم يتم الكشف عن أسمائهم بعد، وشائعات تقول بأن آخرين قد تمّت التعمية على إصاباتهم، وأن الرصاص الذي استخرج من أجسادهم، تم التخلص منه وادعاء عدم وجوده، وشائعات تفيد أن عدداً من الأشخاص، مِمَن تمكنوا من عبور المانع الحجري، ودخلوا ناحية المنطقة المحظورة، وساروا باتجاه المبنى الشمالي للبوابة، قد قتلوا بطلقات الرش، وأن منهم من لم يمت فتحامل على نفسه وعاد من حيث أتى، لكنه اختفى بعد ذلك تماماً ولم يعرف له مكان.

أورد إيهاب أيضاً فقرة صغيرة تحمل شهادة سابقة لأحد سائقي الميكروباص عن شاب جريح، مشيراً إلى أن هذا السائق هو الآخر قد اختفى، وأن البوابة أعلنت - بعد أن أدلى بأقواله - أنه معروف منذ زمن بتعاطي الأقراص التي تسبب الهلوسة، وأنه لا وجود للشاب الذي حكى عنه، ولا للساق المجروحة التي لم يُعثَر لها على أي أثر. وضع إيهاب بعد ذلك نصاً قصيراً جاء في إحدى النشرات الإخبارية، قيل فيه إن السائق أُدخِلَ مصحة ميري للعلاج من إدمان الأقراص، مع ذلك لم يعرف أحد أين يُعَالَج ولا إن كان قد خرج. أعاد يحيى الأوراق إلى إيهاب مُطلِقاً ضحكة عالية تفيض بالتهكم، بينما اعتدل ناجي في جلسته ونصحه بنسخها وتوزيعها في الطابور.

ظلت الأخبار والأوراق، والمنشورات، وبعض الجرائد، تدور بين أيدي الواقفين دون هوادة، وقد أصابتهم حُمَّى البحث عن معلومات طازجة في أي مكان وبأية وسيلة ممكنة، إذ كان الوقت

يمر دون أن يتحركوا شبراً واحداً. التحق عامل البريد المُسَجَّل بالطابور، حاملاً بلاغاً رسمياً إلى البوابة، تقدمت به مجموعة من الناس تحت اسم «رابطة متضرري الأحداث المشينة». وجه البلاغ اتهامات صريحة للشيخ الأعلى بإحداث بلبلة في أنحاء البلاد، بعد الحوار الذي أجرته معه جريدة الحق، والذي شكّك من خلاله في درجة إيمان المصابين.

قال مقدمو البلاغ إن الحوار أساء إلى سمعتهم وسط عائلاتهم ومعارفهم وزملائهم في العمل، وقد أرفقوا مستندات موثقة، تثبت أن كثيرين منهم مؤمنون أتقياء، حصلوا على شهادات «صلاحية مواطنة» مِن قبل لأسباب مختلفة، ومع ذلك أصيبوا بالفعل. وقد دفعوا في بلاغهم بعدة حيثيات؛ وضعها محام لديه إصابة جسيمة هو الآخر، ليثبتوا أن الفتوى يشوبها العوار، ثم طالبوا بسحبها وإعادة النظر فيها قبل إذاعتها على الناس في المؤتمر الإعلامي.

من جهته، تقدم مركز «الحرية والصلاح» ببلاغ عاجل إلى المَنْفَذ ـ استناداً إلى الحوار ذاته ـ مُتَّهِماً المصابين بأنهم مقصرون في أداء الفروض الدينية الواجبة عليهم، وأن هذا التقصير هو العامل المباشر الذي أدى إلى إصابتهم، وطالب المركز في بلاغه بإحالة ملفاتهم كاملة إلى لجنة الإفتاء والتبرير للبت في أمرهم واتخاذ ما يلزم حيالهم من إجراءات. مع كل ما أثير من لغط، لم يتم التراجع عن الفتوى، كما لم يتم تعديلها بأي شكل من الأشكال، وقد أُعلِنَت بالفعل وشهدت الأيام التالية لصدورها توالي البيانات المفسرة والمساندة لها، بينما نفت رسالة البوابة الأخيرة وجود ما يُسَمَّى بالمنطقة المحظورة.

الدرس

لم يخيب الرجل ذو الجلباب الظنون، بدأ الدرس الأسبوعي الحادي والثلاثين، مؤمّنًا على فتوى الشيخ الأعلى، وعلى رأي اللجنة الفُضلى، التي تحوي علماء من أصحاب النوايا الخالصة، والرأي السديد، وقال مفتتحاً الحديث، إن مراجعتهم أو التقوّل عليهم ـ كما يفعل بعض السفهاء ـ في أمور الدين ليست جائزة شرعاً.

تم تخصيص الصف الأول بعد مداولات ومشاكلات فقهية، كي تجلس فيه النساء، اتقاءً لتعريضهن في الخلفية إلى أية مضايقات، وقد جلست إيناس في الصدر وعلى ملامحها اهتمامٌ كبيرٌ بالدرس. ارتدت إسدالاً قاتماً فوق ملابسها العادية، يمتد من منتصف الجبهة تقريباً حتى أطراف القدمين، بحيث لا يُظهِرُ من جسدها أية تضاريس أو معالم. بعد الانتهاء من الشرح وإجابة السائلين، نظر إلى الجالسات متمعناً، وانخرط في الدعاء ثم اختتمه مشيداً بالمؤمنات الكاسيات، اللاتي تسلكن طريق الهداية، وشدد بقوة على كونهن خير زوجات وأمهات.

ترك مكانه ليوزع عليهن كتيبات صغيرة متنوعة العناوين؛ «خصوصيات النساء»، «الابتلاء بفتنة النساء»، «عذاب القبر ونعيمه»، و«الحقوق الزوجية»، واختص إيناس بالمجموعة الكاملة، قائلاً إنها هدية بسيطة ابتهاجاً بدخولها إلى زمرة الأخوات التائبات إلى الله، العائدات إلى طريق الهدى والحق، كي تزيد من علمها وتفقهها في أمور الدين والدنيا.

عاد إلى مكانه مرة أخرى، مشيراً إلى أهمية فتوى الشيخ الأعلى، التي وضعت النقاط فوق الحروف وانتشلت الناس من الجهل والحيرة، وجعلتهم على بينة من المؤامرات الدنيئة التي تحاك للبلاد، ثم وجه الشكر والثناء إلى المراكز والجمعيات، التي يضطلع بقيادتها رجال شرفاء مجاهدون في سبيل الله، والتي أخذت على عاتقها في الفترة الأخيرة، مهمة إصلاح المجتمع وإعادته إلى الصواب، وإحياء السلوكيات الدينية القويمة، وأعلن في النهاية تضامنه المعنوي والقانوني مع مركز الحرية والصلاح، ومشاركته رسمياً في البلاغ الذي تقدم به، بهدف الوقوف على نوايا المصابين ومدى التزامهم الديني والأخلاقي.

لاح على يحيى الحنق وهو يستمع إلى رواية إيهاب عن الدرس الأسبوعي والفتوى، خاصة بعد أن لاحظ تلك التغيرات التي انتابت عدداً من الواقفين في محيطه ومن بينهم إيناس، لكنه رغم ذلك لم يتحمس لاقتراح ناجي بتكوين جماعة مضادة، تحت اسم «جماعة المصابين الشرفاء» أو «المصابين الصالحين»، شغله الألم المتزايد الذي ما عاد يزول بأشرطة المسكنات، تلك الأشرطة التي أقعدته

بدورها تقريباً عن الحركة، وجعلته دائخاً فاقدا للاتزان في معظم الوقت، وغير قادر على التركيز، حتى أنه لم يتمكن من السعي وراء أماني ومتابعة أحوالها.

لم يفت إيناس درس أسبوعي واحد منذ أن التزمت بملابسها الجديدة، انتظمت في الحضور وقد شعرت بكثير من الارتياح، واحتوتها تدريجياً مجموعة جديدة، يختلف أداؤها عما عهدته من مجموعات النساء، التي عرفتها في المدرسة. اشتركت معهن في أنشطة روحية واجتماعية، فحضرت زيارات لداعيات ولقاءات دينية وجلسات عديدة للتدبّر. كانت غالبية الجلسات تنعقد خارج الطابور حيث تتجمع السيدات الواقفات فيه وتتوجهن كتلة واحدة إلى عربة مخصوصة، تتولى توصيلهن إلى مكان الجلسة ثم العودة بهن بعد الانتهاء منها. انشغلت إلى حد ما وتخففت من حالة الخوف التي سيطرت عليها، وإن ظلت الأفكار المزعجة تراودها بين الحين والآخر، وقد خرج شلبي من دائرة اهتماماتها بينما بقيت تراقب يحيى من بعيد، وقد قلل حضورها تلك الجلسات من فترة وجودها في الطابور.

وجه الرجل ذو الجلباب نشاطه إلى فرعين جديدين، أولهما هو افتتاح مركز صغير بالقرب من الطابور، لتأهيل الراغبين في الحصول على شهادة صلاحية مواطنة من البوابة، إذ اكتشف أن عدداً كبيراً من المنتظرين ليس له مطلب سواها، كما كان متأكداً من عدم استيفاء أغلبهم للمعايير المقررة. أما الفرع الثاني فهو عملية جمع التبرعات والهبات النقدية، وقد أعلن عنها في دروسه أكثر

من مرة، دعماً للشركة البنفسجية، التي صرحت اعتزامها تطوير خدمات جديدة لصالح العملاء غير القادرين.

طلب من إيناس التي نشطت بجانبه، المساعدة في توصيل الأمر لأكبر عدد من النساء اللاتي تقابلهن في الطابور، واللاتي لا تنتظمن في حضور الدرس الأسبوعي، فشرعت على الفور في التنفيذ، آملة أن يشفع لها عملها هذا في الهروب من أزمة الحوار الذي دار بينها وبين شلبي وتم تسجيله من خلال الشركة. تعطل الأمر قليلاً إذ اشتبك إيهاب ويحيى وتبعهما ناجي مع الرجل ذي الجلباب، وتبادل الأربعة التراشق بالأوصاف العنيفة، فاتهمه إيهاب بفساد الذمة، بينما اتهم هو ثلاثتهم بفساد الدين، وألمح من بعيد إلى وقوع يحيى تحت طائلة البلاغ الذي قدمة مركز الحرية والصلاح، بسبب إصابته التي يحاول أن يخفيها، والتي سوف تقوده عما قريب للمساءلة أمام لجنة الإفتاء والتبرير، مرجحاً إدانته بالإجماع، ومعاقبته باعتباره مواطنًا غير صالح. انفض الاشتباك بعد فترة قصيرة دون انتصار ساحق لأحد الطرفين، ودون خسائر مادية، لكن إيناس حزنت بشدة لهذا الموقف. كان يحيى على رأس الأشخاص الذين انتوت مخاطبتهم في أمر التبرعات، عازمة عدم قصر نشاطها على السيدات.

تعلم جيداً أنه لا يملك هاتفاً محمولاً، ولم يشترك بالتالي في حملة مقاطعة الشركة البنفسجية ولا يبدو مهتماً بها، والأهم من هذا وذاك أن التبرعات كانت تمثل بالنسبة إليها، مدخلاً مناسباً للتعرف عليه. أحرزت نجاحاً لا بأس به، توجهت إلى المستجدات اللاتي

انضممن حديثاً إلى الطابور، واللاتي لم تشهدن فضيحة التنصّت؛ وتمكنت من إضافة سيدتين جديدتين أفصحتا لها برغبتهما في حضور الدرس، وجمعت مبلغاً مالياً متوسطاً من بعض الموسرات، وقد أبدى ذو الجلباب انبهاره بمهارتها، ثم لم يلبث أن تقدم إليها يوم الصلاة خاطبا يدها وطالبا ما أحلّه الله. تظاهرت بالدهشة والخجل، ووضعت وجهها في الأرض كما تخيلت أن تفعل دائماً في مثل هذا الموقف، ثم رجته أن يمنحها مهلة لمفاتحة أهلها. تركت الطابور في اليوم التالي وحلت ضيفة على بيت أختها، إذ أدركت أنها في حالة مرتبكة لا تسمح بالبقاء وحدها في البيت الكبير. أقامت لديها بضعة أيام، لم ينته فيها الحديث إلى قرار واضح. لم تكن أختها متحمسة بما يكفي لتشجعها على القبول، وقد شعرت من الوصف أن الرجل غير ملائم بالمرة.

من ناحيتها لم تفه إيناس بكلمة واحدة عن الأزمات التي وقعت فيها، لم ترغب في سماع وصلة أخرى من اللوم والتقريع، كما لم تكن مستعدة لإرعاب أختها ولا إلى تلقي انعكاسات هذا الرعب مرة أخرى عليها. استشارت أمها وأباها من خلال التليفون، فوجدت منهما ترحيباً لم تتوقعه، واستخارت فألفت في نفسها ارتياحاً لوجود شخص بجانبها، في وسعه تحمل المسئولية، ويمكنها أن تستند إليه عند الشدائد والمحن، وقد دفعها الوقت الذي قضته لدى أختها في الاتجاه نفسه، خاصة بعد أن شعرت بضيق زوجها من مزاحمتها لهم في المكان، وتيقنت من استحالة البقاء هناك إذ ما اضطرتها الظروف.

كفت أماني عن الذهاب إلى المؤسسة، لم يعاتبها المدير ولم يسأل حتى عن السبب، دخل مكتبها في اليوم الأخير وأمرها بأن تكتب ورقة بها طلب إجازة دون مرتب، لم يحاول حتى أن يتمم على عهدتها، وإن نبهها إلى تسليم الدفتر الذي يحوي تليفونات العملاء إلى موظفة أخرى. نظرت في زجاج النافذة فرأت انعكاساً لدائرتين داكنتين مكان عينيها، لم تعد تستطيع النوم إلا لفترات شحيحة متقطعة، تصحو خلالها مفزوعة، وتبقى لدقائق طويلة في ظلام كامل، غير قادرة على استعادة النظر، يصبح جفناها ثقيلين جداً بحيث يستحيل عليها فتحهما.

الفصل السادس

الورقة السادسة

متابعات

«يتم تحديث المعلومات الموجودة في هذه الورقة تباعاً، ويرجى من السادة المكلفين بعمليات الرصد والجمع، التحقّق من كل معلومة والتأكّد من سلامتها، قبل تسليمها إلى المختص بالتدوين، كما يرجى عدم إفشاء أي من محتويات تلك الورقة تحت أي ظرف، قبل الحصول علىٰ إذن رسمي موقع ومختوم. ومن غير المسموح به السؤال عن هوية المكلفين بتحديث البيانات.

ملحوظة:

هذه الورقة مخصّصة لتقصّي أحوال المريض حال خروجه من المستشفى وابتعاده عن الرقابة الطبية اللصيقة، وتهدف بشكل عام إلى تكوين صورة شاملة عن البيئة والأوضاع التي يعيش فيها ويتفاعل معها، وكذلك إلى رصد ما قد يطرأ عليه وعلى الأشخاص المقربين منه والمحيطين به، من مستجدات طبية أو غير طبية، ولا يسمح بالاطلاع على تلك الورقة إلا للأطباء المسئولين عن الملف، وحاملي البطاقات الرسمية الخاصة أيا كانت تخصصاتهم الوظيفية».

حوت تلك الورقة أكبر كم من المعلومات رآه طارق منذ أن صار يطالع بانتظام ملف مريضه الاعتباري؛ يحيى جاد الرب سعيد، وقد اشتملت على وصف تفصيلي لتنقلات المريض وخريطة بمعارفه، وأصدقائه وعناوينهم، والأمكنة التي عادة ما يقصدها، أما المقدمة التمهيدية فكانت عبارة عن تقرير كامل، بتاريخ حياته منذ الولادة والالتحاق بالمدرسة وحتى عمله بالمؤسسة. ظل طارق شغوفاً بقراءة تلك الورقة والتدقيق فيها. يشبهه يحيى إلى حد كبير في بعض التفاصيل، ولد لعائلة متوسطة الحال؛ أب يعمل موظفاً، وأم مقيمة في المنزل، طفل وحيد لا إخوة لديه ولا أخوات، أنهى دراسته الابتدائية في مدرسة خاصة، ثم تركها بسبب المصروفات المتزايدة إلى مدرسة عامة، حتى أنهى المرحلة الثانوية دون عقبات، وبمستوى دراسي معقول.

تردّد في تلك الفترة على نادٍ صغير دون أن يحرز نجاحاً رياضياً ملفتاً في لعبة محددة عدا الكرة الطائرة، حيث اختاره المدرب عضواً أساسياً في فريقها، لكنه دخل إلى الجامعة وترك النادي تماماً. لم يفهم طارق بوضوح كيف لم يمارس يحيى أي نشاط سياسي خلال

دراسته في كلية التجارة، كما هو مكتوب، وكيف كان يُشَاهَد في الوقت ذاته وبشكل مستمر في صحبة بعض الطلاب الخارجين على النظام والأصول. عموماً فقد انضم في تلك الفترة إلى فريق المسرح، مثلما فعل هو أثناء دراسته الطب، ونشر عدة محاولات شعرية في مطبوعات الكلية، تعرف من خلالها على صديقته أماني السيد، والتي سترد عنها معلومات مفصلة في الفقرات اللاحقة.

تخرّج بتقدير جيد وأنهى خدمته الإجبارية في الحرس الأمني المانع، ثم عمل مندوباً للمبيعات في مؤسسة تسويق ذات سمعة طيبة تتاجر في مستحضرات التنظيف، وتقع في المنطقة الرابعة، بينما أقام هو بمفرده في شقة صغيرة بالقرب من منزل العائلة في المنطقة التاسعة. لم يتقدم إلى البوابة أو المنفذ من قبل للحصول على تصاريح أو شهادات، ولا توجد في ملف خدمته بالمؤسسة شهادة صلاحية المواطنة. كانت هناك ملحوظة في نهاية الفقرة يتوقف أمامها طارق كل مرة: تمت مخاطبة مالك الشركة وَلَفْت نظره إلى التقصير الواضح في استكمال ملفات الموظفين والعاملين، كما تم التنبيه عليه بضرورة إيداع شهادة صلاحية المواطنة في جميع ملفات الخدمة.

احتوت خريطة المعارف والأصدقاء على فقرتين كبيرتين وفقرة ثالثة أصغر، الفقرة الأولى خاصة بأماني السيد ابراهيم، البالغة من العمر 37 عاماً، وهي غير متزوجة ومقيمة في المنطقة السادسة بمفردها. توفي والداها منذ سنوات، ولها إخوة مقيمون في مناطق بعيدة. تخرجت في كلية الحقوق بتقدير جيد جداً، ويبدو أن يحيى

قد تعرف عليها أثناء الدراسة الجامعية، وتوطدت علاقتهما، فعملا تباعاً بعد التخرج في نفس المؤسسة، حيث تولت وظيفة في قسم المبيعات التليفونية، ولم تعمل مطلقاً في مجال المحاماة. فهم طارق من التقرير أنها على اتصال دائم بيحيى، وأنها ترافقه في غالبية الأماكن التي يقصدها عدا البوابة، كما قرأ أيضاً أنها تلعب دوراً أساسياً في تمسكه بموقفه من الرصاصة، وتدعم وقوفه في الطابور، حائلة دون خضوعه للعملية الجراحية. لم تتقدم هي الأخرى بأية طلبات للحصول على شهادات أو تصاريح من البوابة طوال حياتها.

تطرّقت الفقرة الثانية إلى شخص يُدعى ناجي سعد، ذكرت أنه أقرب أصدقاء المريض يحيى جاد الرب وزميله في نفس الدفعة الدراسية، تخرج في كلية الآداب قسم الفلسفة بترتيب الثاني على الدفعة، وهو معيد سابق بالجامعة وعاطل عن العمل في الوقت الحالي. استنتج طارق أن هذا هو الشاب الذي زار المستشفى مع يحيى وأماني ورفض الدخول معهما إلى مكتبه. ذكرت الفقرة أنه سبق وأن تم توقيفه وهو بعد طالب في السنة الثانية، من قِبَل أفراد الحرس الأمني المانع، بسبب أفعال مخلّة بالنظام الاجتماعي الجامعي، حيث اشترك في كتابة وتوزيع منشورات ذات صبغة تحريضية على الطلبة.

تقرّر قبول تعيينه معيداً في قسم الفلسفة لاستبقائه تحت ملاحظة الحرس، لكنه استمر في أفعاله التي أخلّت بالعملية التعليمية، ثم استقال بسبب أفكاره الشاذّة غير الملائمة. شكاه الطلاب بسبب

تلك الأفكار وتم التنبيه عليه أكثر من مرة بالالتزام، ثم أخبره عميد الكلية بأن عليه إحضار شهادة «صلاحية مواطنة»، فجاء بدلا منها باستقالته وألقاها في وجه الأخير، الذي تقدم بشكوى إلى المنفذ يتهمه فيها بازدرائه وازدراء البوابة. تم توقيفه للمرة الثانية في منزل المريض يحيى جاد الرب، وفي حوزته أوراق مسيئة كان في طريقه إلى نشرها، وقد اعترف بالجريمة وأكد أن الأول لم يكن على علم بنواياه وأنه مر عليه مصادفة، وقد أطلق سراحه بعد فترة وجيزة، ورُفِضَ طلبه بالحصول على شهادة «صلاحية مواطنة» من البوابة، بعد أن حاول العمل في وكالة إعلامية. فهم طارق أن هذا الشاب يلازم يحيى ملازمة لصيقة في الطابور، وبدا له أنه كرس وقته كاملاً لهذا الأمر، خاصة وقد صار متعطلاً عن العمل ولم يفلح في إيجاد وظيفة أخرى.

كانت الفقرة الثالثة من نصيب إيهاب، لم يأت فيها الكثير من المعلومات أو التفاصيل، بل تمت إحالة القارئ إلى ملف آخر، يبدو أنه أقدم تاريخاً تحت اسم «إيهاب أحمد سالم»، تم حِفظُه في القبو، وقد ذُكِرَ رقمه بوضوح. المعلومة الوحيدة التي جاءت تفصيلاً في تلك الفقرة هي إرسال إيهاب أوراقه إلى المنفذ، طلباً للوظيفة التي أعلنت عنها إدارة الاتصالات.

اشتملت الفقرات التالية، على وصف دقيق لتحركات يحيى منذ هروبه من مستشفى الأجواء، وحتى وصل إلى الطابور، ويبدو أن أمره قد حظي بأهمية خاصة، إذ لم يُغفِل الراصد شيئاً ولو بدا تافهاً، حتى أن ذهابه إلى منزل أماني في تاريخ إتمام عامه التاسع والثلاثين

ورد في إحدى الفقرات، كما وردت في البداية ملحوظة قصيرة، عن الرسالة التي تلقاها من أم مبروك في الطابور. كان هناك مرور عابر على تلك اللقاءات السريعة التي جمعت بين يحيى وطبيبة العيون، والتي نبّهته خلالها إلى ضرورة ذهابه إلى المنفذ، لاستخراج شهادة الصلاحية التي صارت لازمة للحصول على التصريح. ورد أيضاً أنهما قطعا الطريق سوياً إلى هناك، إذ كان عليها هي الأخرى استلام رأي موظف المنفذ في كشف النظر الذي أجرته أختها قبل اعتماده من البوابة.

سأل طارق أحد زملائه عن معنى العبارة السابقة التي أثارت فضوله، فأخبره بأن هناك نسبة تبلغ خمسة بالمائة من حِدَّة النظر متروكة لتقدير الموظف، وأنه عادة ما يضيفها كاملة إلا إذا حدث ما يعكّر صفوه. تم رصد وتوثيق مقابلة يحيى لمدام ألفت رئيسة التمريض بدقة شديدة، خاصة المقابلة الثانية فقد تبين أن يحيى سألها عن تفاصيل عملها بالمستشفى، واستوضح إن كان هناك تخصص معين لكل ممرضة يختلف عن الأخريات، ثم طلب منها مباشرة بعد إجاباتها، التي يبدو أنها أرضته، أن تساعده على استخراج الرصاصة وأن تقوم هي بإجراء الجراحة بنفسها، مقابل مبلغ مالي مغرٍ، يسدده لها فور الانتهاء، بشرط أن تُسَلِّمَه الرصاصة في يده، جاء في السطر التالي، أنه عرض عليها كتابة جميع الإقرارات والتعهدات التي تشير بها، والتي تعفيها من المسئولية الطبية الجنائية، وتلقيها على كاهله إذا ما حدث أي مكروه. تُرِكَت مساحة خالية في الورقة بعد انتهاء كلام يحيى، فكر طارق أنها مخصّصة لتسجيل رد مدام ألفت الذي لم يَرِد في الفقرة، سواء بالرفض أو القبول.

راح يفكر مندهشاً مما يفعل كما لو كان يكتشف الأمر للوهلة الأولى؛ فتح هذا الملف عشرات المرات، ولم يدعه يغيب عن عينيه لوقت طويل على الإطلاق، لكنه لم يعرف أبداً من الذي يقوم بتدوين تلك المعلومات وتحديثها بانتظام، راصداً كل شيء يوماً بعد يوم، بالتواريخ، وأحياناً بالساعات، والأغرب أنه لم يسأل ولم يتعجب طيلة شهور متعاقبة، قضاها بين أوراق الملف، يطالع فيها باستمرار الجديد، ويظهر أنه كان مستريحاً في قرارة نفسه لفكرة متابعة يحيى عن بعد، وأنه كان ممتناً لما يجري بشكل ما، خاف إن نبش وراء تساؤلاته أن يتوقف التدوين.

إضافة إلى كل ما جاء بالورقة الخامسة، كانت هناك إشارات ودلالات على الحالة الصحية ليحيى، أدرك منها طارق أن الوضع يتفاقم بمرور الوقت، وأنه لا أمل مطلقاً في اتجاهه نحو الاستقرار كما كان يحلم؛ تباعدت مرات تبوله، ولم تعد تخرج منه سوى نقاط قليلة من سائل مائل للاحمرار وأحياناً صديدي، كما تكرر كثيراً لجوؤه إلى الصيدليات المحيطة، وشراؤه كميات هائلة من المسكنات القوية، وقد تراجعت قدرته على المشي والجلوس بوضوح. ترك الملف بعد أن أزعجته قراءة الأعراض الأخيرة التي جَدَّت على يحيى، وقام ليتصل بأماني، مُمَنِّياً نفسه بأن تكون الأشياء المذكورة غير حقيقية، وأن تطلعه هي على ما يزيل عنه الشعور بالذنب ولو قليلاً، لكن أماني لم تُجِب على اتصالاته بالمرة، فاعتقد أنها تتجاهله لموقفه المتخاذل أو أن ثمة مكروهًا قد وقع. كانت حالته النفسية هو الآخر تزداد سوءًا؛ وقد عاد يجتر التفاصيل القديمة بكامل سخافتها، وبكافة المشاعر المصاحبة لها؛ لو بَكَّرَ

بالجراحة دون أن يعرف بأمر التصريح المطلوب لاستراح، حتى لو أحالوه إلى التحقيق واستدعته البوابة، ساعتها كان سيبدو أحمق جاهلاً وهو يقسم بعدم معرفته بالقوانين، لكنه لن يكون مضطراً إلى الكذب، أما الآن فهو يعرف ويفهم ولا يتمكّن من تجاهل معرفته، ولن يكون قادراً على الكذب.

مرفق بالملف

كشف بأسماء المصاحبين

احتوت هذه الورقة العالقة بنهاية الملف، على أسماء الأشخاص الذين نقلوا يحيى بعد إصابته إلى المستشفى القريب، لم يتعرف طارق على أي من الأسماء المدونة سوى اسم أماني، التي حَلَّت في بداية القائمة. كانت هناك أسماء أربعة أخرين، ثلاثة رجال وامرأة واحدة، لم يجد معلومات عن هوياتهم، ولم تُدَوَّن أرقام بطاقاتهم الشخصية، كما لم يظهروا في خريطة المعارف والأصدقاء، التي احتلت الجزء الأكبر من الملف. ليس في استطاعته إذن الاتصال بشخص آخر يدله على يحيى، لا هو قادر على تقديم المساعدة رغم أنه يدرك بحكم اطلاعه على الموقف كله حجم معاناته، ولا هو قادر على تجاهل الأمر وتناسيه وكأن لم يكن. أحنقه اضطرابه المستمر وعجزه عن السيطرة على مشاعره وأفكاره، مرّت شهور وهو معلق في تلك المنطقة الرمادية، دون أن يقوم بأي فعل. قرر في لحظة غضب جنونية أن يذهب إلى الطابور، باحثاً عن يحيى.

وصل بحلول المساء. حمل الجو لسعة برودة أورثته قشعريرة في جسده كله، كما لم تكن الإضاءة كافية لتمييز الوجوه. وجد استحالة في التطلع إلى الواقفين واحداً بعد الآخر، تطوع البعض لإرشاده لكنه لم يستطع الإجابة عن سؤالهم المتكرر: «قال لك فين في الطابور يا أستاذ؟». سمع كثيراً عن الطابور، أنصت إلى الحكايات التي تتبادلها عنه الممرضات ومجموعة الأطباء الجدد منبهراً، لكنه لم يتصور أن يتوه هناك، ولا أن يفشل في العثور وسط الواقفين، على رجل لا يفارقه وجهه حتى أثناء النوم، وفوق هذا يحمل في جسده إصابة تميزه عن الجميع.

كان يمدّ خطوته بأقصى ما يستطيع حتى يصل إلى المقدمة، لكنه لم يصل أبداً. كلما أبصر في الضوء الضعيف تجمعاً من الناس وتخيّل أنه وصل أخيراً، اكتشف أنها مجرد محطة، محطة استراحة إذا جاز له الوصف. بدأ يدرك شيئاً فشيئا حجم الطابور، ومغزى تنبيه السائق على الركاب: «الخط ده رايح آخر الطابور عند العلبة وبس، اللي عايز الراس يركب الخط التاني.

يحيى غير موجود، أو هو موجود لكنه لن يعثر عليه، هكذا

استقر في نفسه. انطفأت أغلب الأنوار وبدأ عدد كبير من الناس في التجهيز للمبيت، بينما أخذ البعض يغادر على أن يعود صباحاً، ولم يظهر يحيى لا بين النائمين ولا مع المغادرين. أخرج تليفونه وجرب الاتصال بأماني مرة أخيرة، لكنها لم تختلف عن سابقاتها، كأنها هي الأخرى مختفية مع يحيى. هاجمه شعور قوي بالوحدة والغربة عن المكان، انزلق على جبهته عرق بارد وانقبضت معدته، وطغت عليه فكرة واحده تتلخص في رغبته بالعودة من حيث جاء؛ الحجرة الدافئة المضيئة. وجد نفسه جالساً في الميكروباص، نزل تلقائياً أمام المستشفى، أقفل عليه باب المكتب بالمفتاح ثم ابتلع قرصاً مهدئاً وجلس وحيداً يفكر، وأمامه ملف يحيى مفتوحاً.

الكابوس

لم تتمكن أماني قبل تركها للمؤسسة بأسبوعين كاملين من بيع أي شيء، كانت تتصل بهواتف الزبائن المستديمين الذين اعتادت التعامل معهم، فتفقد أعصابها خلال الحديث، وتتشاجر دون داع، بل إنها أغلقت التليفون ذات مرة في وجه أحد كبار العملاء من ملاك الفنادق، مما دفع المدير إلى استدعائها، وَقَّعَ عليها خصماً كبيراً من المرتب وأنذرها بالفصل.

لم تتحسن الأمور بعد قبول طلب الإجازة واستقرارها في البيت، إذ ظلت في حالة ضبابية، منعدمة الاتزان، تترقب حدوث شيء غير محدد الملامح على مدار الأربع والعشرين ساعة، تتوجس عند فتح الباب لأي قادم، حتى مُحَصِّلي الفواتير، وتنتفض كلما أعلن التلفزيون عن إذاعة رسالة من رسائل البوابة.

بخلاف هذا لم يكن لديها ما تفعله أو تفكر فيه، سوى الفشل الذي منيت به في الحصول على صورة من الأشعة، ظلت تلوم نفسها وتدور في دائرة واحدة دون توقف، وهي تفكر في ما كان يجب عليها أن تقوم به، وفي الأخطاء التي ارتكبتها خلال زيارتها

لمستشفى الأجواء، والتي لولاها لأنجزت الأمر بشكل أفضل، ولأمكن ليحيى أن يخضع للجراحة مطمئن البال.

لم تنم في الليلة التي لاحظت فيها تكرار رقم تليفون طارق على شاشة محمولها، فكرت أن تكلّمه، لكنها كانت ترتعب بمجرد أن ترى الرقم، تسمعه يخبرها بالكارثة التي باتت تنتظرها في يقين كامل، فيضغط أصبعها الزر الأحمر بغير إرادة منها ويغلق التليفون. بقيت في الفراش تتقلب حتى أصاب رأسها الدوار، وصارت تتخيل أن يحيى بجانبها، تشعر بصوت تنفسه ورائحة جسده، ثم تغفو عيناها لدقائق فترى أضغاثًا وتهويمات، تجمع بين عزاء بنت أم مبروك ووقوف يحيى على رأس المدفن مرتدياً زي التُرَبِيّ، ثم سقوطه ميتاً بسبب النزيف.

زار طارق كابوسها المتقطع أيضاً، يرى الرصاصة بارزة من بطن يحيى لكنه لا يمد يده ليلتقطها، كما رأت يحيى يدخل إلى البوابة، ثم يخرج من الناحية الأخرى وجسمه مُقَسَّمٌ على هيئة شرائح عرضية، لا يوجد بينها الجزء الذي يحوي الرصاصة، بينما ناجي يردّد أن الرصاص هو جزء من صورة كلية لا ينبغي أبداً تفتيتها، وفقاً لنظريات الفلسفة وعلم الاجتماع المقدسة، وأنه يجب التعامل معه في موقعه الطبيعي وعدم انتزاعه منه، حتى لا يحدث خلل في السياق. في أحد أركان الكابوس، كان هناك بلدوزر هائل مرعب، يحفر المكان الذي سوف يُدْفَنُ فيه يحيى، مقبرة على عمق كبير جداً، يقف بجانبها وجه مألوف القسوة، لكنها لا تدرك تحديداً لمن هو.

تغيّر المشهد فرأت نفسها في مكان وافر الغنى، له جدران مكسوة بخشب فاخر، وأثاث ناعم مترف، وسجاد لين سخيّ الملمس، لم تجرؤ أن تدهسه بقدمها التي بدت حقيرة جداً وسط المكان. كانت هناك لافتة سوداء كتب عليها بحروف ذهبية براقة «إدارة المؤامرات»، ولم يكن من زائرين سواها. عاد بها الكابوس مرة أخرى إلى المقبرة، لكنها كانت تمشي هذه المرة داخلها حيث الظلام دامس، وتصادف أناساً يتحركون مثلها في صمت. القبو: فهمت ضمنياً أنها في القبو، كأن الكلمة كانت معلقة في الهواء طيلة الوقت؛ لا تراها، لكنها تدركها فجأة، وتستوعب الموقف بكامل حواسها، في لحظة استنارة مخيفة. وحين تتأكد من أنها صارت حبيسة في هذا المكان إلى الأبد، تصحو فَزِعَة، وتلك الشعيرات الصغيرة التي كانت نائمة على ساعديها تقف مرتعشة، ولسانها ملتصق بحلقها من شدة الجفاف. تكرر الكابوس بتنويعات مختلفة طيلة الليل، حتى لم تعد تميز بينه وبين الواقع.

الشتاء

بدأ فصل الشتاء رسمياً، هكذا جاء في الرسالة التي بثها جهاز التلفزيون مباشرة بعد إذاعة إعلان البوابة، استجابت الشمس التي كانت تقسم يحيى كل ظهيرة إلى نصفين، وانكسرت بعض الشيء، وهبّت نسمات معتدلة، فلم يعد بحاجة لتبادل الظل مع ناجي، لكن مع انخفاض درجات الحرارة، اشتدّت عليه نبضات وتقلّصات جانبه الأيسر، حتى صار يئن مع خروج الهواء ودخوله إلى صدره، وقد أصبح بوله عبارة عن سائل دموي خالص، واستحال عليه الانثناء فكان يقضي الوقت واقفاً أو ممدداً على الرصيف المقابل للطابور، ولم يعد قادراً على زيارة قعدة أم مبروك إلا على فترات متباعدة، فظل ناجي ملازماً له.

مرّ عليهما إيهاب في موعده المفضل، عائداً من المنفذ بعد أن استطلع نتيجة المقابلة الشخصية التي أجراها منذ فترة، بغرض الحصول على الوظيفة الخاصة بإدارة الاتصالات، وقد عبر الجزء الأوسط من الطابور في طريقه، جامعاً بعض الأخبار. عرف أن إيناس تركت مكانها نهائياً، إذ عُقِدَ قرانها على الرجل ذي الجلباب،

وأنها أعطت قبل رحيلها، جميع الأغراض التي استعملتها خلال الشهور الماضية لابن الجنوبية العجوز، وأوصته بالسلام عليها. كذلك حصد مبروك شهادة الابتدائية رغم أنه لم يحضر بعض الامتحانات لوجوده في الطابور ولمعاودته الشكوى من نوبات الكلى، وقد طورت أم مبروك نشاطها، فجاءت ببعض الأواني الفخارية الصغيرة وزرعت فيها النعناع الطازج، بناءً على نصيحة من ذات الشعر القصير. أخبرهما أيضاً بأن لجنة الفحص قد رفضت أغلب المتقدمين إلى الوظيفة، وهو في طليعتهم، بدعوى الافتقار إلى الخبرة العملية، والمهارة الكافية.

ظل يحيى مهموماً، لم يعلق على حكايات إيهاب حتى انتهى الأخير من الكلام، فسأله عن ورود أية أخبار من ناحية أماني، لكن إيهاب أجاب بالنفي. جاء اتصال ناجي بها في وقته تماماً لينقذها من الحيرة والتردد، أخبرته مذعورة بمكالمات طارق المتتالية التي لم ترد عليها، أعطى الهاتف ليحيى الذي تكلّم معها ما لا يزيد عن دقيقة واحدة؛ كان كلامها متلعثماً، وقد طغى صخب الطابور على صوت يحيى الواهن، فلم يتمكّنا من التحدث تقريباً.

أحدثت محاولات طارق ارتباكاً غير متوقع، وأفضت بهم إلى مناقشة احتمالات كثيرة، ربما قرر إعطاءهم الأشعة، وربما يفكر في إجراء الجراحة، وربما تعرض هو الآخر لتهديد، أو تلقى أمراً بإجرائها من الباطن: باطن مستشفى الأجواء. وصل طارق إلى الطابور للمرة الثانية منكمشاً على نفسه، لكنه تمكّن من العثور على ناجي بسهولة بعد وصف مطوّل من خلال الهاتف. ذهب معه إلى

حيث وجد يحيى مستقراً على الأرض، يقرأ بعض الجرائد، وقد وضع فوق جانبه الأيسر كوباً مملوءًا بالشاي الساخن حتى الحافة، تتصاعد منه الأبخرة، حياه طارق في شيء من الخجل، وقد فطن إلى محاولته التغلب على الألم بتدفئة مكان الإصابة، انحنى يشد على يده، ثم لم يلبث أن جلس بجواره على الأرض. تبادلا حديثاً عاماً، وقد استراحا لذلك التواطؤ المشترك على عدم التطرق إلى تفاصيل الأزمة. لم يكن طارق يهدف من زيارته سوى إلى التحقق مما قرأه في الملف. لا بأس من أن يعترف كذلك بأنه رغب بشدة في الحد من معاناته الشخصية، لكنه فشل؛ كانت الحالة سيئة بالفعل، أسوأ مما قرأ ومما توقّع، لم يجد حلولاً حقيقية في يده، لا أكثر مما يفعله يحيى ذاته بمعاونة أصحابه.

المنفذ

انهمرت السيول على عدة مناطق وأغرقت أراضي كثيرة، من بينها الأرض التي تزرعها بالأجرة عائلتا شلبي ومحفوظ، وقد ذابت العشتان، وانصرفتا من مكانهما مع انهمار السيل لعدة أيام دون توقف. هرول شلبي عائداً إلى البلدة لكنه لم ينس أن يأخذ معه النوط. عاين الخسائر بنفسه؛ غرق المحصول كله، وذهب التلفزيون والدش، كما ذهبت أيضاً ملابس محفوظ، لم يجد شيئاً سوى مياه غاصت فيها قدماه قرابة الشبرين. بعدما هزّه عويل أمه وزوجة عمه، وبناتها الخمس: أخوات محفوظ الأصغر سناً، رأى أن الحل الأمثل هو معاودة زيارة المنفذ.

اصطحب معه ما يثبت الضرر الذي أصابهم، طالباً تخصيص قطعة أرض تضم العائلتين بعيداً عن مدقّ السيل، لكن الموظف القابع في المنفذ اتهمه بالتحايل، وبالتورط في عملية إسقاط السيول، قال إنه ولاريب تَعَمَّد إغراق العشش، كي يتملك أرضاً جديدة يُسمح له فيها ببناء دار، بدلاً من الأرض الغارقة التي تقع في حيّز زراعي، لا يُسمَحُ فيه سوى ببناء تلك العشش الهشّة.

استغرق شلبي عدة ثوان متجمداً، في انتظار استكمال المزحة، لكن الموظف لم يكن يمزح معه. تحمل الكثير في الأسابيع الفائتة؛ تعرض للسخرية والإهانة وطُعِنَ في شرفه وكرامته وخذله القائد والوحدة وكذلك فعلت البوابة، حتى اضطر إلى الكذب على الناس ليستبقي ماء الوجه، وقد فاض به الكيل في تلك اللحظة. ارتعش غضباً وزمجر، ثم أمسك بعنق الموظف بغتة، حتى أن هذا الأخير لم يفلح في الارتداد إلى الوراء بالسرعة الكافية. وجّه له قبضته الخشنة من بين القضبان الحديدية فأصاب وجهه، ثم أخرج النوط من جيب الصديرية وشجّ به رأسه، قبل أن يسحبه الناس المنتظرون خلفه بعيداً في هلع، بينما استمر شلبي يسب ويزعق بأنه أخو الشهيد، وأن له حقوقاً على البوابة، لن يفرط فيها حتى يموت مثله.

وصلت حكايته إلى الطابور بعد ساعات قليلة، تناقلها الواقفون في خليط من الدهشة مشوب ببعض الابتهاج، وأذاعتها ذات الشعر القصير في الملتقى اليومي، فتوقع المُحَلِّلون أن شلبي سوف يكون أول المختفين من بينهم، لكنه عاد بعد أيام وقد هدأ، وأصر على الوقوف في مكانه حتى تنفتح البوابة، متجاهلاً الأسئلة التي تكالبت عليه. بعد أيام أسرّ إلى أم مبروك بأنه يريد معرفة الحقيقة، لكنه لم يقل لها أية حقيقة على وجه التحديد.

مع الإقبال المتزايد ووصول الطابور إلى مناطق غير مسبوقة، وغير مأهوله تقريباً بالسكان، صدر قرار من البوابة بإقامة سور حول الواقفين لحمايتهم، خاصة وقد ثبت أن هناك من يحاول استغلال الظروف، للعبث بحالة الأمن والطمأنينة والسلام، وكذلك بأفكار المواطنين الصالحين. في الوقت ذاته، ظهر فوق المبنى الشمالي

للبوابة، الذي يمكن رؤيته من المنطقة الوسطى للطابور، رجل جالس على السطح، خلف جسم غير واضح الملامح، لكنه مثبّت على ثلاثة أرجل، ويبدو كما لو كان تلسكوباً أو آلة تصوير عتيقة أو ما شابه، وقد تم تصويب فوهة هذا الجسم نحو المؤخرة. لم يترك الرجل مكانه أبداً منذ ظهر، على الأقل لم يزعم أحد الواقفين أنه قد رآه في أي ساعة من اليوم، ينهض واقفاً، أو يغادر موقعه، حتى أن بعض المستقرين في الطابور، قرروا التناوب فيما بينهم على مراقبته، ثم أكدوا فيما بعد مذهولين، أنه لم يتحرك مطلقاً على مدار ستة أيام متتالية.

* * *

قالوا لها هناك، قبل أن تنتقل إلى العدم الأكبر، إن شيئاً لم يحدث، لا إصابات، لا رصاص، لا ملفّات، لا شيء.. لكنها لم تصدق. مع ذلك يمكن أن تكون ادعاءاتهم حقيقية. فكرت في الأمر وهي تستمع إلى رسالة البوابة العاجلة، التي انبعثت من إذاعة الشباب في الراديو، مؤكدة أن ثمة فيلمًا سينمائيًّا مشتركًا ضخم الإنتاج، كان يتم تصويره في الساحة طيلة الفترة الماضية، وأن البلدان التي شاركت فيه أرادت أن يكون التصوير طبيعياً بقدر الإمكان فأخفت الكاميرات ومعدات التصوير عن الناس. أضافت الرسالة أن الفيلم يُعَدُّ من أكبر أفلام الحركة في تاريخ السينما على مستوى العالم، كما أوضحت أن هذا هو سبب اعتقاد بعض المواطنين في وجود رصاص وقنابل وغازات وأدخنة، رغم أنه لا يوجد شيء على الإطلاق سوى بعض الخدع المعروفة. أهابت بالجميع الاطمئنان، وتَجَنُّب الانسياق وراء الشائعات والروايات

التي يتم اختلاقها وتغذيتها من قِبَل بعض الممسوسين، وأوضحت أن الحياة تسير بشكل عاديّ.

استراحت أماني. وجدت في رسالة البوابة ضالّتها المنشودة، فهدأت واستقرت نفسياً إلى حد كبير، بينما ظل يحيى ينزف ببطء. كان الأمر إذن مفتعلاً، لكنه انطلى عليها وعلى الجميع، هذا هو التفسير المنطقي والمقنع لما مرت به، ولو صدقتهم منذ البداية ما تركت عملها، وما حبست نفسها في البيت واعتزلت كل شيء، وما تعذب يحيى هذا الوقت كله، متصوراً أنه تورط في أمر خطير وأن عليه مسئولية لا يمكن التفريط فيها. أوحشها كثيراً وكذلك ناجي، وحتى إيهاب الذي لم تره سوى مرة واحدة؛ تاقت إلى رؤيتهم جميعاً. نعم لم يحدث شيء.

استسلمت للتداعيات التي انطلق عقلها ينسجها حول رسالة البوابة؛ نفي التهديدات والخوف والترقب إلى منطقة غير منظورة من الذاكرة، واستبعاد كل ما قضّ مضجعها وأرّقها، شعرت بأنها تتحرر من تلك الخيوط المتينة التي كبلتها، وشَلَّتها عن الحركة والتفكير، وعن الإحساس بما حولها لوقت بدا أبدياً.

انزاح هم كبيس عن صدرها، فتحت رئتيها أخيراً وجذبت جرعة كبيرة من الهواء، ثم تناولت المحمول واتصلت بناجي غير عابئة بأية تحذيرات، زَفَّت إليه البشرى، وحاولت إقناع يحيى دون فائدة، بأن الرصاصة التي اخترقت جسمه واستقرت في حوضه، إنما هي رصاصة زائفة، وأنه لا يهم استخراجها، ولا يجب أن يشغل باله بمن يحصل عليها، لكنه لم يقتنع، ولم يكف عن النزف.

مقترح طارق

توصل طارق بعدما استمع إلى الرسالة هو الآخر، إلى اقتراح بدا على الرغم من غرابته وجيهًا. سوف يموت يحيى في وقت قريب، ولن يخسر شيئاً من محاولة أخيرة متهوّرة. لو أتيح له أن ينتقل إلى منزل أحد أصحابه؛ ناجي أو أماني مثلاً، لتخطى عقبة الحصول على التصريح، ولأمكن اصطحاب أدوات الجراحة اللازمة، وإجراء العملية هناك، فالمواد والبنود الصادرة عن البوابة لا تلزم سوى المستشفيات والعيادات، ولا شأن لها بالأشخاص العاديين في البيوت. سوف يكون الأمر أكثر سهولة أيضاً إذا وافقت ألفت على المساعدة وقبلت العرض، يمكن حينها أن يرشدهم إلى كيفية استخراج الرصاصة، دون أن تمتد يده إلى يحيى على الإطلاق.

لم يواجه ذلك الحل الذي طرحه طارق آية صعوبات أو معارضة، قبلوه جميعاً عدا أماني التي لم يطلعها عليه أحد. تحمس إيهاب عازماً تصوير الحدث، وعرض المشاركة بأي شيء يحتاجونه، بينما فَضَّلَ ناجي أن يترك ليحيى حرية الاختيار دون تدخل من أحد، مُرَحِّباً باستخدام منزله في أي وقت، أما يحيى ذاته فقد وافق

من حيث المبدأ، لكنه قرر الانتظار لبضعة أيام حتى يراجع ألفت، ويعرف موقفها النهائي. تركهم طارق وقد اتفق مع ناجي على موعد يذهبان فيه لمعاينة المنزل، وتجهيز حجرة ملائمة بالإضاءة والأثاث الذي يصلح لما ينتويه.

فور وصوله إلى المستشفى كتب الموعد باليوم والساعة على قصاصة من الورق، ووضعها في مكان ظاهر فوق المكتب، وزخرفها بالقلم الرصاص كي لا ينسى. داعبت أصابعه ورقات الملف في اعتياد، فلاحظ متثائباً أن زياراته الثلاث إلى الطابور قد دُوِّنَت، وعلى رأس كل منها التاريخ والتوقيت، لكن المساحة المتروكة لردّ ألفت ظلت خالية. أخبره ناجي بعد أيام قليلة أن ألفت ليست في مكانها، وأنها صارت أول المختفين من الطابور.

عجل أمر الاختفاء من خطواتهم، فتحدد موعد أقرب بين طارق وناجي، وراح إيهاب يستعلم عن كاميرا مناسبة بدلاً من التي تُقرِضُها له الجريدة، ثم ابتاع واحدة وحملها معه ليقيم إلى جانب يحيى، الذي بدأ يعاني من نوبات فقدان للوعي، رافضاً أن يبارحه إلى أي مكان، وقد أسلم مهمة التجوال في أرجاء الطابور إلى ناجي، وأوصاه بالملاحظة الجيدة. تشاغل ناجي عن الهواجس القاتمة التي كانت تنتابه حول فقدان صديقيه، بالتركيز في الأنباء الواردة من ذات الشعر القصير، فأقام بدوره بجوار قعدة أم مبروك، منتظراً حلول الموعد. لم يستجدّ خلال وجوده شيءٌ، سوى هذا الجو المتوتر الذي ساد الواقفين، مؤدياً إلى تزايد المشاحنات، كذلك أُطلِقَت بعض الشائعات حول الجالس فوق سطح المبنى الشمالي، لكنه لم يُلقَ إليها بالاً.

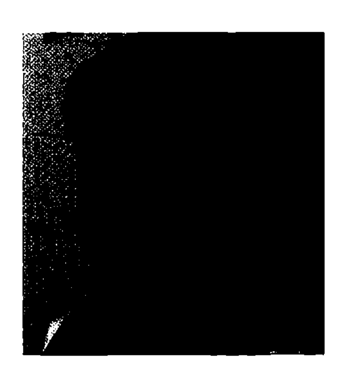
مرت عدة أيام كان طارق يُجري فيها التجارب الأولية داخل المستشفى، ويتمّم على قائمة التجهيزات الضرورية التي يجب أن يوفرها لدى ناجي، بينما لم تفهم صباح سر النشاط الذي دَبَّ فيه، ولا السبب في تناقص عدد الساعات التي يقضيها مرابضاً بمكتبه وحده، جرّبت أن تسأله فلم يعطها أية إجابة. لم يستمر هذا الوضع على ما هو عليه طويلاً؛ خمل طارق من جديد، وخبا مرتداً عن نشاطه، ثم لم يلبث أن أوجد عذراً مقبولاً وأجّل موعده مع ناجي مرة أخرى، وقد شاب أفكاره بعض الندم، وشعر أن مبادرته تلك جاءت متسرّعة أكثر مما ينبغي، وأن فعلاً واحداً سوف يرتكبه الآن قد يضيّع مستقبله إلى الأبد. صحيح أن الملف لا يحوي التفاصيل الدقيقة لزياراته إلى يحيى، ولم يحتو كذلك على اقتراحه الأخير بإجراء الجراحة في بيت ناجي، لكنه صار مراقباً بمجرد أن تم تسجيل ذهابه إلى الطابور، وانتقل اسمه من خانة الطبيب المعالج، إلى الصفحات الداخلية، أصبح واحداً من الأسماء التي تشملها الورقة الخامسة؛ ورقة المتابعات.

بعد ليلتين قضاهما متيقظاً، حسم أمره، وقرر أخيراً أن يغامر بكل شيء وأن ينفذ دوره في الاتفاق، اتصل مؤكداً على الموعد، ثم تقدم بطلب إجازة اعتيادية لأسبوع كامل، لم يقم بمثلها منذ قبلوه طبيباً في المستشفى. أطلقت صباح حوله العديد من الشائعات، قالت إنه سوف يتزوج طبيبة من عائلته، وأنه يعدّ العدة للسفر إلى خارج البلاد، وحين كف عن الإمضاء في دفتر الحضور دون أن يثبت أو ينفي ما أشاعته، قالت إنه ربما يلحق برئيسة التمريض التي لم يعرف أحد أين ذهبت.

عاد متريضاً على قدميه بعد أن أتمّ مهمته الأولى في منزل ناجي بنجاح، وقد صارت الحجرة مستعدة لاستقبالهم، ولاستقبال الرصاصة. دخل إلى الفراش وجذب غطاءه الخفيف، ثم نام نوماً عميقاً لم يختبره منذ فترة طويله. فور استيقاظه ارتدى ملابسه، وتوجه إلى المكتب على وجه السرعة؛ دخل المستشفى دون أن يلمحه أحد، واستل الملف، وفتحه على الصفحات الأخيرة عامداً، كي يقرأ ما تمّ تدوينه عن الساعات الماضية، التي قضاها لدى ناجي، لكن تلك الزيارة لم يكن لها وجود على الإطلاق، لم يُكتَب عنها سطر واحد، ولم ترد حولها أية إشارة. تلك هي السابقة الأولى التي لا يدوّن فيها حدث يخص يحيى، أمر عجيب جداً. فتش في الورقة ثانية، تأكد أنه ما من جديد قد أُضيف، لا شيء سوى أن «يحيى جاد الرب سعيد» قد قضى من حياته مائة وأربع عشرة ليلة في الطابور.

كانت الصفحة مؤرخة باليوم السابق، ويبدو أن التدوين قد توقف بعد ذلك. مكث طارق يفكر في الأمر حائراً منقبض الصدر، تداعت إلى رأسه الأحداث الكثيرة التي مر بها كما لو كانت مشهداً واحداً متصلاً. بقى صامتاً هادئاً، شاخصاً في الحائط المقابل دون حراك، لم يكن بحاجة إلى إعادة قراءة أوراق الملف مرة أخرى، وضع يده تلقائيا في جيبه، لكنه كان قد ترك قلمه الخشبي الأثير في جيب المعطف وحمله إلى منزله، تناول قلم حبر أزرق من درج المكتب، تردّد لثانية واحدة صنع خلالها نقطة صغيرة مكان القلم، ثم لم يلبث أن أضاف جملة وحيدة بخط يده في نهاية الورقة الخامسة، أغلق الملف بعدها، وتركه فوق المكتب وقام.

المحتويات



طبيبة وكاتبة وفنانة تشـكيلية ولدت بالقاهرة عـام ١٩٧٦ ، وتخرجـت من كليـة طب عين شـمس عام ٢٠٠٠، ثم حصلت على ماجيستير الأمراض النفسـية والعصبيـة في ٢٠٠٥، وهي عضو في مركـز النديم لتأهيـل ضحايا العنف والتعذيـب. عملـت كطبيبـة بمستشـفى العباسـية للصحة النفسـية لعدة سنوات، ثم كمديرة لإدارة الإعـلام بالأمانة العامة للصحة النفسـية. لهـا مجموعتان قصصيتـان صدرتا عن دار ميريـت والهيئة العامة لقصور الثقافة على التوالي، ولها أيضا دراسـة نفسـية بعنوان «مـا وراء التعذيـب»، وكتاب بعنـوان «إغراء السـلطة المطلقة» صـادر عـن دار صفصافة عـام ٢٠١١، والهيئة العامة للكتاب عام ٢٠١٢. أقامت العديد من معـارض النحت والتصوير والفوتوجرافيا الخاصة، كما شاركت في معارض جماعية متنوعة، وتحمل عضوية نقابة الفنانين التشـكيليين. حصلـت على عـدة جوائز منها جائزة ساويرس للأدب المصري فرع المجموعات القصصية عام ٢٠٠٨، وجائزة المسابقة المركزية للهيئة العامة لقصور الثقافة في العام نفسـه، كما حصـل كتابهـا «إغراء السـلطة المطلقة» على جائزة ومنحـة أحمد بهاء الدين للباحثين الشباب عام ٠٠٩

في أول

الأمر، بدا الوقوف في طابور

البوابة، مظهراً عادياً من مظاهر الحياة، لكنه

تحول بعد فترة إلى حياة قائمة بذاتها. انضم إلى الطابور الكثير

من الأشخاص الذين لا يجمع بينهم أي رابط، سوى أنهم مضطرون

إلى الوقوف هناك، وقد أخذ كل منهم يعيد تشكيل عالمه الخاص، بما يتوافق

والمواظبة على الوجود في الطابور. الأهداف المتباينة لكل من إيناس وأم مبروك

وذي الجلباب وغيرهم من الواقفين لا تتحقق، والبوابة لا تنفتح، مع ذلك فإن الجميع - بما فيهم يحيى الذي تتجوّل في جسده رصاصة منذ وقوع «الأحداث المشينة» وينتظر استخراجها- يفضلون الاستمرار في أماكنهم، برغم عدم صدور أي قرارات رسمية بمعاقبة المغادرين.

نقرأ مع الدكتور طارق ملف يحيى ورقة بعد الأخرى، وعبر تلك الأوراق تتشكل صورة السلطة التي وراء البوابة. دون أن تترك لنا الرواية فرصة للإمساك اليقيني بتلك السلطة فإنها ترسم بمهارة قدرة السلطة على تحويل البشر إلى نسخ يصعب التفريق بين أحدهم والآخر. رواية الطابور تتنقل بين الفانتازيا والواقع

أو عالم يشبه الواقع بسخرية وخفة تسمح لكاتبتها بحجز

مكان هام على خريطة الرواية المعاصرة في العالم

العربي.

تصميم: أحمد حسن





www.dar-altanweer.com